صور من حياة الأنبياء

تأليف
محمد بن أحمد بن يونس جاب الله

ح محمد احمد يونس جاب الله ، ١٤٢٦هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

جاب الله ، محمد احمد يونس

صور من حياة الانبياء . / محمد احمد يونس جاب الله . – الرياض ، ١٤٢٦ هـ

.. ص ؛ .. سم

ردمك : ١ - ٥٧٠ - ٤٩ - ٩٩٦٠

١ – الانبياء ٢ – قصص الانبياء أ.العنوان

ديوي ٢٢٩,٥ ١٤٢٦/٥٦٤٢

رقم الإيداع : ٥٦٤٢ / ١٤٢٦

ردمك : ١-٥٧٠-٤٩-٩٩٦٠

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

صور من
حياة الأنبياء

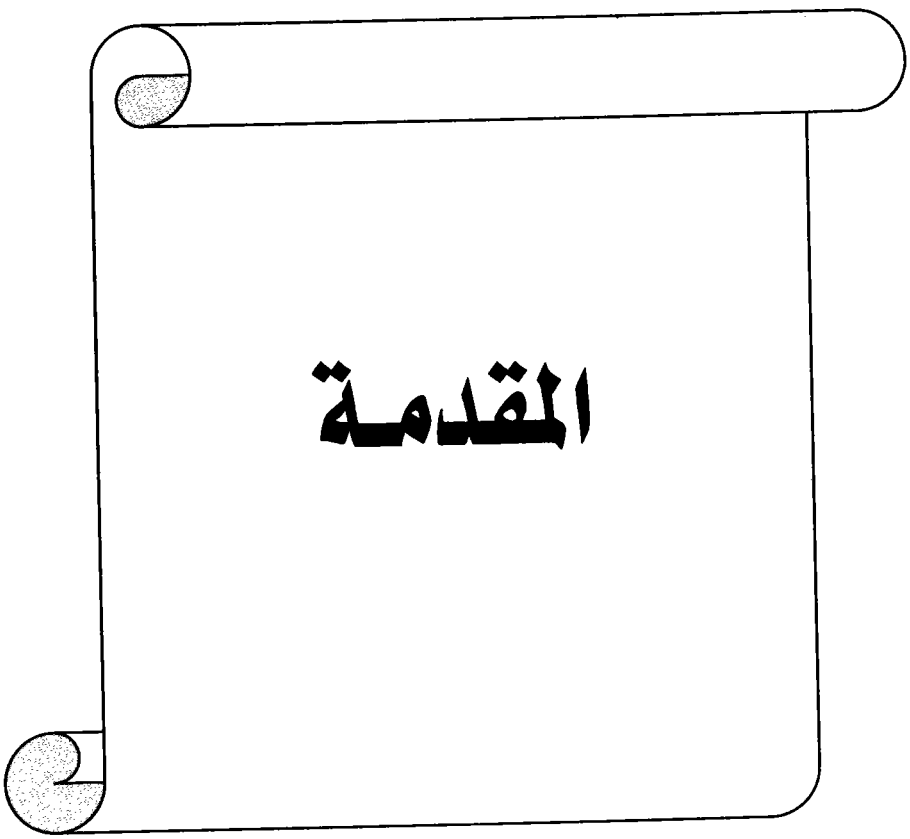
المقدمة

المقدمـــة

الحمد لله الذي لا يحمد في الكون سواه، ونتوب إليه ونستغفره، أرسل الأنبياء دعاةً هادين، وبعث الرُّسل مبشرين ومنذرين، وجعلهم نوراً وضياءً للعالمين، قال تعالى: ﴿وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾ [الأنعام: ٤٨].

والصلاة والسلام على سيدنا محمداً عبده ورسوله وصفيّه وخليله، أرسله الله بالهُدى ودين الحق، بين يدي الساعة بشيراً ونذيراً، وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً، وجعله خاتم الأنبياء والمرسلين، قال تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ﴾ [الأحزاب: ٤٠].

أنعم الله تعالى على البشرية جمعاء بهذا القرآن الكريم، الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وقد جمع الله في القرآن ما يحتاج إليه الإنسان من العقائد والعبادات وقصص الماضين من الأنبياء والمرسلين التي هي عبرة وعظة لمن يخشى الله رب العالمين، قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ فِى قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَـٰبِ﴾ [يوسف: ١١١].

فهذا كتابي بين أيديكم، تحدثت فيه عن (**صور من حياة الأنبياء**) الذين هم قدوتنا وأسوتنا، آمنَّا بهم جميعاً، وشهدنا لهم بالبلاغ، وأقررنا لهم بالفضل، جعلهم الله هداةً مهتدين وقدوة للعالمين، وأسوةً حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر.

ويكفي من فضلهم وشرفهم أن الله سبحانه وتعالى اختصهم بوحيه، وجعلهم أُمناء على رسالته، وخصَّهم بأنواع كرامته، فمنهم من اتخذه خليلاً، ومنهم من كلمه تكليماً، ومنهم من رفعه مكاناً علياً، ومنهم من سمّاه عبداً شكوراً، ومنهم من رفعه الله إليه حفظاً من كيد الكائدين، ومنهم من ألين له الحديد في يديه، ومنهم من سُخرت له الرياح، ومنهم من أحيا الموتىٰ بإذنه.

قال تعالى: ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَۚ فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُۖ فَبِهُدَىٰهُمُ ٱقْتَدِهْۗ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًاۖ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرَىٰ لِلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٠﴾ ﴾ [الأنعام: ٨٩، ٩٠].

هذا وأسأل الله تبارك وتعالى أن يوفقنا إلى ما يحب ويرضى، وأن يجعل هذا العمل خالصاً لوجهه الكريم، وأن ينفع به سائر المسلمين، وأن يحشرنا جميعاً في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحَسُنَ أولئك رفيقاً.

المملكة العربية السعودية — محمد بن أحمد بن يونس جاب الله

الرياض - في غرة رمضان ١٤٢٦هـ — غفر الله له ولوالديه

* * *

الأنبياء صفوة البشر

تعريف النبوة:

النبوة هبة وفضل من الله العلي القدير لمن شاء من خلقه، وهي الدعوة إلى الإيمان بالآخرة وإيثارها على الحياة الدنيا الفانية التي يطمع فيها كثير من الناس، والنبوة لا تكون بالوراثة، ولا تكون بطريقة الغلبة والاستعلاء، إنما هي اختيار، يختار الله سبحانه وتعالى لها أفضل خلقه، وصفوة عباده، يختارهم لحمل الرسالة، ويصطفيهم من بين سائر البشر بهذا العمل الجليل كما بيّن لنا الله عز وجل في كتابه العزيز الحكيم، فقال تعالى: ﴿ ٱللَّهُ يَصْطَفِى مِنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ ٱلنَّاسِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿٧٥﴾ ﴾ [الحج: ٧٥].

وقال عز وجل: ﴿ ۞ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ﴾ [آل عمران: ٣٣].

وقال سبحانه: ﴿ وَإِنَّهُمْ عِندَنَا لَمِنَ ٱلْمُصْطَفَيْنَ ٱلْأَخْيَارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ [ص: ٤٧].

والنبوة خاصة بالرجال، ولا تكون للنساء أبداً، والحكمة من ذلك أن النبوة عبء ثقيل، وتكليف شاق، لا تتحمله طبيعة المرأة الضعيفة، ولهذا كان جميع الرسل في محنة قاسية مع أقوامهم، وابتُلوا ابتلاءً شديداً في سبيل تبليغ دعوة الله.

قال تعالى: ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِىٓ إِلَيْهِمْ ۚ فَسْـَٔلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [النحل: ٤٣].

الفرق بين النبي والرسول:

النبي: هو إنسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع، ولكنه لم يكلَّف بالتبليغ.

وأما الرسول: فهو إنسان من البشر أوحى الله تعالى إليه بشرع، وأُمِرَ بتبليغه.

والرسالة أعلى مرتبة من النبوة؛ لأن كل رسول نبي، وليس كل نبي رسولاً.

وعدد الأنبياء كبير جدًّا، إذ يزيد عددهم على مائة وعشرين ألفاً، وأما الرسل فهم قلة تزيد عن ثلاثمائة بقليل، والذين ذكروا في القرآن الكريم يجب الإيمان بهم تفصيلاً، وهم خمسة وعشرون وكلهم من الرسل وهم:

(آدم، نوح، إبراهيم، إسماعيل، إسحاق، يعقوب، داود، سليمان، أيوب، يوسف، موسى، هارون، زكريا، يحيى، إدريس، يونس، هود، شعيب، صالح، لوط، إلياس، إليسع، ذو الكفل، عيسى، محمد» صلوات الله عليهم أجمعين.

أما بقية الأنبياء فيجب الإيمان بهم جملة، بمعنى أن نؤمن بأن هناك أنبياء غير هؤلاء الذين ذكروا في الكتاب العزيز؛ لأن الله سبحانه وتعالى قد أخبر عنهم بقوله: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِن قَبْلُ وَرُسُلًا لَّمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ ۚ﴾ [النساء: ١٦٤].

وسأل أبوذر الغفاري رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، أي الأنبياء كان أول؟

قال رسول الله ﷺ: آدم.

قال: يا رسول الله، ونبيٌّ كان؟

قال ﷺ: نعم، نبيٌّ مُكَلَّم.

قال: يا رسول الله، كَمْ المُرْسَلُونَ؟

قال ﷺ: ثَلاثمائة وبَضْعَةَ عَشَرَ جَمًّا غَفِيراً.

قال أبوذر الغفاري: كم وفاء عدة الأنبياء؟

قال ﷺ: مائة ألف وعشرون ألفاً[1].

التفاضل بين الأنبياء:

فضَّل الله سبحانه وتعالى بعض الأنبياء عن بعض، فليسوا جميعاً بدرجة واحدة من الفضل والمكانة، فقد جعلهم سبحانه وتعالى درجات، وفي ذلك يقول تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

ومِن الرسل الكرام مَن سماهم الله عز وجل (أولي العزم) وهم قادة الأنبياء وسادتهم، وأمر رسول الله ﷺ أن يقتدي بهم في جهادهم وصبرهم، فقال عز وجل: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾ [الأحقاف: ٣٥].

وإنمَّا سُمّوا بأولي العزم لأن عزائمهم كانت قوية، وابتلاءهم كان شديداً، وجهادهم كان شاقًّا.

فمنهم مَن صبر على البلاء والتكذيب القرون الطويلة، والمِحَن

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: (١٧٨).

والشدائد مثل نوح عليه السلام الذي بُعِثَ في قومه قريباً من ألف عام، ولم يؤمن معه إلا قليل.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ ٱلطُّوفَانُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [العنكبوت: ١٤].

ومنهم من وصلت به الشدة والكرب، ونال من قومه الشدائد والأهوال، إلى درجة أنهم رموه في النار مثل إبراهيم عليه السلام خليل الرحمٰن، ولكن الله عز وجل نجَّاه فأمر النار أن تكون برداً وسلاماً عليه.

قال تعالى: ﴿ قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِى بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾ وَأَرَادُوا۟ بِهِۦ كَيْدًا فَجَعَلْنَٰهُمُ ٱلْأَخْسَرِينَ ﴿٧٠﴾ ﴾ [الأنبياء: ٦٩ ـ ٧٠].

وهكذا بقية أولي العزم كموسى وعيسى، ثم خاتم المرسلين وأفضلهم محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، كلهم أوذوا من أقوامهم، فتحملوا الأذى والعذاب وصبروا على البلاء والشدة.

قال تعالى: ﴿ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٦﴾ ﴾ [آل عمران: ١٤٦].

مهمة الرسل عليهم السلام:

أرسل الله سبحانه وتعالى الرسل لدعوة الخلق إلى عبادة الخالق الواحد القهار، وتبليغ أوامر الله عز وجل ونواهيه إلى البشر وليكونوا منارات للهدى، وأعلاماً للفضيلة، ولينشروا النور والضياء في أرجاء البلاد.

قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ ۚ ﴾ [النحل: ٣٦].

وقد جعل الله عز وجل علامة الرسول تبليغ الرسالة، وخاطب خاتم الأنبياء محمد ﷺ بقوله تعالى: ﴿ ۞ يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ ۚ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ﴿٦٧﴾ ﴾ [المائدة: ٦٧].

* * *

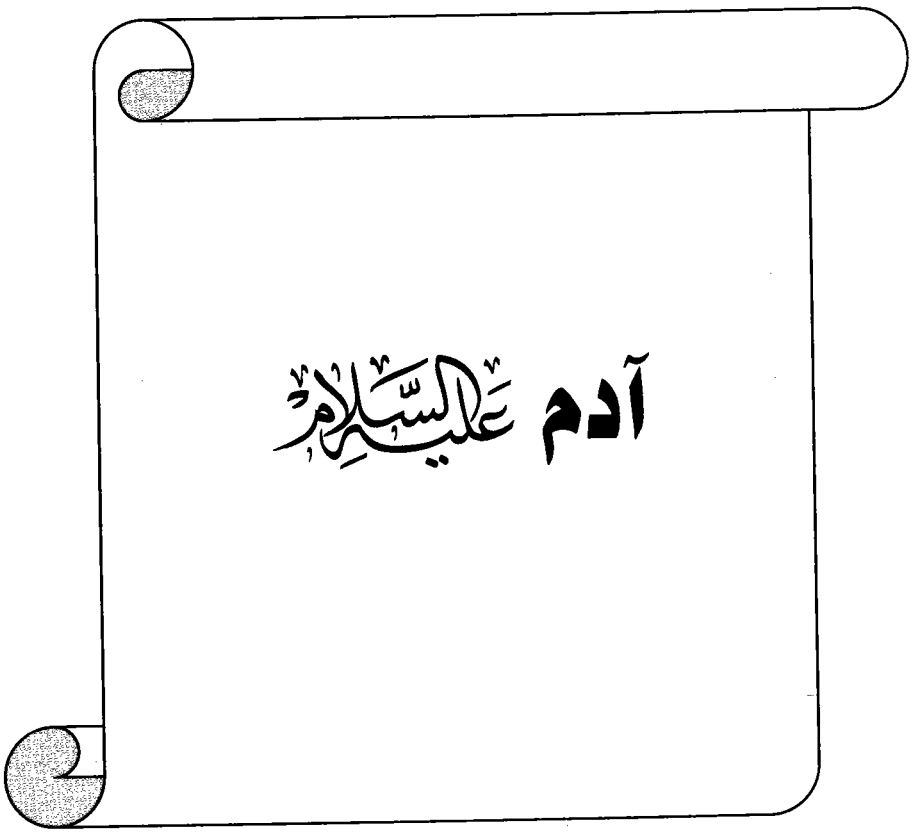
آدم علیہ السلام

آدم عليه السلام

آدم هو أبونا وأبو الخلق جميعهم، وهو أول مخلوق إنساني خَلَقَه الله سبحانه، وهو أول الجنس البشري، ومنه ومن زوجه خَلَقَ الله بنيه الذين عَمَّروا الأرض من بعده، وهو نبي قد اصطفاه الله واجتباه، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: ٣٣].

خلق الله آدم بيده:

تبدأ قصة خلق آدم عليه السلام عندما جمع الله سبحانه وتعالى الملائكة وأخبرهم بأنه سيجعل في الأرض خليفة هو آدم وذريَّته، وأنه سيمكنهم في الأرض؛ فقالت الملائكة سائلين ـ على وجه الاستعلام لا على وجه الاعتراض والتنقُّص لبني آدم ـ: ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ﴾ [البقرة: ٣٠].

فردَّ الله سبحانه عليهم وقال لهم: ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: ٣٠]؛ لأنه سيكون منهم الأنبياء والمرسلون والصدِّيقون والشهداء.

وهنا خَلَقَ الله سبحانه وتعالى آدم بيده مباشرة، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [ص: ٧٢]، أخذ الله سبحانه من تراب الأرض قبضة فخلق منها آدم، ثم بلّها الله تعالى بالماء

فصارت صلصالاً (طين متحجِّر)، وصوَّره وجعل طوله ستين ذراعاً، كما أخبرنا رسول الله ﷺ حيث قال: «**خلق الله آدم وطوله ستون ذراعاً، ثم قال: اذهب فسلِّم على أولئك النفر من الملائكة فاستمع ما يجيبونك فإنها تحيتك وتحية ذريَّتك، فقال: السلام عليكم، فقالوا: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته**»(١).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي، فقال: «**خلق الله التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم بعد العصر من يوم الجمعة**»(٢).

وقال رسول الله ﷺ: «**خير يوم طلعت فيه الشمس يوم الجمعة، فيه خُلِق آدم، وفيه أُهبط، وفيه تيب عليه، وفيه مات، وفيه تقوم الساعة**»(٣).

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «**لما نُفخ في آدم الروح مارت وطارت، فصارت في رأسه، فعطس فقال: الحمد لله رب العالمين، فقال الله: يرحمك الله**»(٤).

ولهذا قال عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: «**إن الله لم يخلق بيده**

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٣٢٦)، ومسلم في «صحيحه»: (٢٨٤١).
(٢) أخرجه مسلم في «صحيحه»: (٢٧٨٩)، والنسائي في «سننه»: (١١٠١٠).
(٣) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: (٥٠٤)، ومسلم في «صحيحه»: (٨٥٤).
(٤) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٤/ ٢٦٣)، وابن حبان في «الموارد»: (٢٠٨١).

إلا ثلاثاً: خلق آدم بيده، وغرس جنة الفردوس بيده، وكتب التوراة بيده».

سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس:

بعد أن خَلَق الله سبحانه آدم ونفخ فيه من روحه، أَمَرَ الملائكة بتكريم آدم بأن يسجدوا له سجود تكريم لا سجود عبادة؛ لأن سجود العبادة لا يجوز إلا لله سبحانه، وهنا استجاب الملائكة إلى أمر الله، باستثناء إبليس الذي أبى أن يسجد استكباراً وحسداً، ولقد سأله الله تعالى: ﴿مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿١٢﴾﴾ [الأعراف: ١٢].

احتجَّ إبليس بأنه أفضل من آدم، فهو قد خُلِق من نار، بينما آدم خُلِق من طين، والنار في رأيه أفضل من الطين، وهنا تكبَّر ولم يستجب لأمر الله؛ فطرده الله من الجنة، ولَعَنَه إلى يوم الدين.

قال تعالى: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ ﴿٧٣﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ ٱسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧٤﴾ قَالَ يَٰٓإِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَىَّ ۖ أَسْتَكْبَرْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ ٱلْعَالِينَ ﴿٧٥﴾ قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ ۖ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾ قَالَ فَٱخْرُجْ مِنْهَا فَإِنَّكَ رَجِيمٌ ﴿٧٧﴾ وَإِنَّ عَلَيْكَ لَعْنَتِىٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلدِّينِ ﴿٧٨﴾﴾ [ص: ٧٣ ـ ٧٨].

آدم عليه السلام مُعلِّم الملائكة:

من فضل الله سبحانه وتعالى على آدم عليه السلام أن عَلَّمه الأسماء كلها الموجودة في جنة عدن، وألهمه القدرة على وضع اسم لكل ما تقع عليه عينه هناك من زروع وأشجار وثمار وحيوان، ثم أراد الله بعد

ذلك أن يبيِّن للملائكة أن هذا المخلوق خير منهم؛ فعرض هذه المسميات على الملائكة، وقال لهم: ﴿أَنۢبِـُٔونِي بِأَسۡمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ٣١﴾ [البقرة: ٣١]، فعجزت الملائكة عليهم السلام عن معرفة هذه المسميات، وقالوا: ﴿سُبۡحَٰنَكَ لَا عِلۡمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمۡتَنَآۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡعَلِيمُ ٱلۡحَكِيمُ ٣٢﴾ [البقرة: ٣٣].

فقال تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئۡهُم بِأَسۡمَآئِهِمۡۖ﴾ [البقرة: ٣٣]؛ ففعل آدم عليه السلام، وعلَّم الأسماء كلها للملائكة، وهنا قال الله للملائكة: ﴿أَلَمۡ أَقُل لَّكُمۡ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ غَيۡبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ وَأَعۡلَمُ مَا تُبۡدُونَ وَمَا كُنتُمۡ تَكۡتُمُونَ ٣٣﴾ [البقرة: ٣٣].

وبهذا أثبت الله سبحانه وتعالى للملائكة أن هذا المخلوق الجديد الذي صغَّروا من شأنه هو أكثر مهم علماً وأوسع معرفة.

حواء عليها السلام كيف خُلقت؟

لمَّا خلق الله سبحانه وتعالى آدم عليه السلام ألقى عليه النوم، ثم خلق حواء من ضلع من أضلاعه اليسرى وهو قصير، فلمَّا استيقظ رآها جالسة عند رأسه فقال لها: من أنتِ؟

قالت: امرأة.

قال آدم: لماذا خلقتِ؟

قالت: لتسكن إلي... فمال إليها وألفها؛ لأنها خُلِقَت منه[1].

---

(١) «معاني التنزيل»، الإمام الخازن. (بتصرف).

ولذلك يقول الله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ [النساء: ١].

وقال رسول الله ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيراً؛ فإنهن خُلِقن من ضلع، وإن أعوج شيء في الضلع أعلاه، فإن ذهبت تقيمه كسرته، وإن تركته لم يزل أعوج**»(١).

وقد أخذ أحد الشعراء هذا المعنى فصاغه شعراً فقال:

هي الضلعُ العوجاء لست تقيمها
ألا إن تقويم الضُّلوع انكسارها
أتجمع ضعفاً واقتداراً على الفتى
أليس عجباً ضعفُها واقتدارها؟

خُلِقت حواء عليها السلام قبل دخول آدم الجنة؛ لقول الله تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [الأعراف: ١٩]، وسميت حواء؛ لأنها خُلِقت من حي.

آدم وحواء في الجنة:

أمر الله تعالى آدم عليه السلام أن يسكن هو وزوجته الجنة، وأباح لهما كل شيء في الجنة إلا شجرة عيَّنها لهما، وقال له ولزوجته: إن الشيطان عدو لكما فاحذراه، فلا يخرجنكما من الجنة، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يَٰٓـَٔادَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ ٱلْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰٓ ﴿١١٧﴾﴾ [طه: ١١٧]، وقال الله لآدم في تمتيعه بهذه الجنة: ﴿إِنَّ لَكَ

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٥١٨٥).

﴿أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [طه: ١١٨، ١١٩].

إغواء إبليس لآدم:

عاش آدم وحواء في الجنة ينعمان بنعيمها ويأكلان من ثمرها، ولكن ماذا فعل الشيطان؟

جاء إبليس اللعين إلى آدم وحواء ووسوس لهما بالأكل من الشجرة لإغرائهما، وقال لهما: إن ربكما نهاكما عن الأكل من هذه الشجرة حتى لا تكونا من الملائكة أو تكونا خالدين، وقال لآدم: ﴿يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾﴾ [طه: ١٢٠] أي: هل أدلك على الشجرة التي إذا أكلت منها حصل لك الخلد فيما أنت فيه من النعيم، وظللت في ملك لا يبيد ولا ينقضي؟

وهنا نسي آدم وحواء أن إبليس هو عدوهما، واستجابا لإغرائه، وأكلا من الشجرة، فلمَّا ذاقا طعمها؛ انكشفت لهما عوراتهما، (وكان قبل ذلك لا يرى كل منهما عورته ولا عورة الآخر)، فأخذا يجمعان بعض أوراق الشجر ليغطيا به ما انكشف، وجعلا ورق الشجر على هيئة الثوب الساتر، وناداهما ربهما مؤنباً إياهما على ذنبهما، فقال: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: ٢٢].

وشعر آدم وحواء بذنبهما ومعصيتهما لله سبحانه؛ فندما أشد الندم، ورجعا إلى ربهما تائبين نادمين، وقالا: ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: ٢٣])[1].

---

(١) «قصص الأنبياء»، الحافظ ابن كثير. (بتصرف).

فأوقع الله في قلوبهما التوبة التامة والإنابة الصادقة ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ﴾ [البقرة: ٣٧].

فتقبل الله دعاءهما وتوبتهما؛ فتاب عليهما وغفر لهما.

إخراج آدم وحواء عليهما السلام من الجنة:

أخبر الله سبحانه آدم عليه السلام أنه سيكون بينه وبين إبليس عداوة لا تنتهي، وأنهم سيبقون في الأرض يعمرونها ويتمتعون فيها تمتعاً موقتاً إلى حين انتهاء آجالهم، ومن الأرض يخرجهم الله أحياء يوم القيامة للحساب والجزاء، فقال تعالى: ﴿ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾﴾ [الأعراف: ٢٤].

كما أخبره الله سبحانه أنه سيمدهم بالهدى والرشاد، فمن تبع هدى الله فقد نال سعادة الدنيا والآخرة، فقال تعالى: ﴿ٱهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا ۖ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ ٱتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴿١٢٣﴾﴾ [طه: ١٢٣]، وقد اقتضت حكمة الله أن يأكل آدم من الشجرة، والله يعلم أنه آكل منها لا محالة؛ لأنه لابد وأن يسكن الأرض ويعمرها هو وذريته من بعده، ويجعل الله فيهم خيراً كثيراً، وعباداً صالحين وأنبياء ومرسلين.

حكمة آدم عليه السلام:

عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال:

«قال موسى عليه السلام: يا رب، أرنا آدم الذي أخرجنا ونفسه من الجنة. فأراه آدم عليه السلام.

فقال موسى: أنت آدم؟

فقال آدم: نعم.

فقال: أنت الذي نفخ الله فيك من روحه، وأسجد لك ملائكته، وعلَّمك الأسماء كلها؟

قال: نعم.

قال موسى: فما حملك على أن أخرجتنا ونفسك من الجنة؟

فقال له آدم: مَن أنت؟

فقال: أنا موسى.

قال آدم: أنت موسى نبي بني إسرائيل؟ أنت الذي كلَّمك الله من وراء الحجاب، فلَم يجعل بينك وبينه رسولاً من خلقه؟

قال: نعم.

قال آدم: تلومني على أمر قد سبق من الله عز وجل القضاء به قبل؟!

قال رسول الله ﷺ: «فحجّ آدم موسى، فحجَّ آدم موسى»[1].

قابيل وهابيل:

وضعت حواء توأمين: قابيل وأخته، وهابيل وأخته، وقد كانت أخت قابيل أجمل من أخت هابيل، وعندما بلغ مبلغاً من العمر لم يجدوا من يختارون للزواج، وهنا صدر الأمر الإلهي بأن يتزوج أنثى البطن اللاحق من ذكر البطن السابق، فلا يحل للأخ أخذ أخته التي ولدت معه من بطن واحدة، وبذلك أصبحت أخت قابيل زوجة لهابيل، وبالعكس، فإن أخت هابيل أصبحت زوجة لقابيل.

---

(١) أخرجه أبوداود في «سننه»: (٤٧٠٢)، وأبويعلى في «المسند»: (٢٤٣).

وطلب آدم عليه السلام أولاده وأبلغهم الأمر، لكن قابيل لم يستجب لهذا الأمر، ولم ينزل على إرادة أبيه؛ لأن نصيبه أقل جمالاً من نصيب أخيه، وود لو تكون توأمته من نصيبه دون أخيه.

وهنا أمر آدم أولاده بأن يُحْضِرَ كل واحد منهما شيئاً عزيزاً من كدّه يقرّبه قرباناً ويضعه في مكان مرتفع لنرى أيكما يُقْبَل قربانه فسيحظى بالجميلة من البنات، وكان هابيل صاحب غنم، فأتى بأفضل كباشه، وكان قابيل فلاحاً فأتى بكمية رديئة من القمح، ثم تقدم كل منهما بقربانه إلى الله، وكان علامة قبول القربان نزول نار من السماء تحرقه.

فنزلت النار على كبش هابيل فأحرقته، وتركت قربان قابيل.

فعلم قابيل أن الله قبل قربان أخيه ولم يقبل قربانه فحسده وقتله.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [المائدة: ٢٧ ـ ٣٠].

ولقد كان هابيل أول مَن قُتِل على ظهر الأرض، وما عرف قابيل كيف يواري جثة أخيه، فحمله في جراب على ظهره، وظل حائراً، وقد لامته نفسه على فعلته، فبات معذباً.

وبعث الله غرابين فاقتتلا، فقتل أحدهما صاحبه، ثم حفر له بمنقاره، ووارى جثته تحت التراب، هنا استشعر قابيل الندم والحسرة

فقال: ﴿يَٰوَيۡلَتَىٰٓ أَعَجَزۡتُ أَنۡ أَكُونَ مِثۡلَ هَٰذَا ٱلۡغُرَابِ فَأُوَٰرِيَ سَوۡءَةَ أَخِيۖ﴾ [المائدة: ٣١]، ثم هرب إلى اليمن، وحزن آدم على هابيل، فمكث مائة سنة لا يضحك[١].

قال رسول الله ﷺ: «**لا تقتل نفسٌ ظلماً إلا كان على ابن آدم الأول (قابيل) كفل من دمها؛ لأنه كان أول من سَنَّ القتل**»[٢].

وصية آدم عليه السلام قبل موته:

لمَّا حضرت الوفاة آدم عليه السلام دعا ولده شيث وقال: يا بني، إني مفارق هذه الدار، فانظر يا بني أن لا تفارق العروة الوثقى وهي شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ﷺ، سيد الأولين والآخرين والأنبياء والمرسلين، فإني رأيت ذلك مكتوباً على سرادق العرش وأبواب الجنة وأطباق السموات والأرض.

واعلم يا بني أن الله تعالى قابض روحي في الساعة التي خلقني فيها وهي أفضل ساعة في يوم الجمعة، فإذا كان ذلك الوقت فاخرج من القبلة ساعة واحدة واسمع تعزية الملائكة، فتفز يا بني بتعزية الملائكة.

واعلم يا بني أن الله سبحانه وتعالى يبعث لي أكفاناً من الجنة وحنوطاً، ويتولى أمري جبريل وميكائيل وإسرافيل عليهم الصلاة والسلام.

---

(١) «قصص الأنبياء»، الشعراوي. (بتصرف).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٣٣٥)، ومسلم في «صحيحه»: (١٦٧٧).

فانظر يا بني كيف يغسلني، فتعلم منه؛ فيكون سُنَّة لك ولأولادك من بعدك، وتصلي عليَّ الملائكة المقربون زمرة بعد زمرة، فإذا فرغوا من الصلاة فصلِّ أنت وتعمد قبري فألقي عليَّ السلام، ثم نزع خاتمه من إصبعه فدفعه إليه[1].

وفاة آدم عليه السلام:

قال أبي بن كعب ـ رضي الله عنه ـ: «إن آدم لمَّا حضره الموت، قال لبنيه: أي بني، إني أشتهي من ثمار الجنة»، فذهبوا يطلبون له ما يشتهي، فاستقبلتهم الملائكة ومعهم أكفانه وحنوطه، ومعهم أدوات الدفن (المساحي والفؤوس والمكاتل).

فقالوا لهم: يا بني آدم، ما تريدون، وما تطلبون؟

قالوا: أبونا آدم مريض، واشتهى من ثمار الجنة.

فقالوا لهم: ارجعوا، فقد قضى أبوكم.

فلما رأتهم حواء عرفتهم، فلاذت بآدم.

فقال آدم: إليكِ عني، فإني إنَّما أتيت من قبلك، فخلي بيني وبين ملائكة ربي ـ عز وجل ـ.

فقبضوه وغسَّلوه وكفَّنوه، وحنَّطوه، وحفروا له، ولحَّدوه، وصلُّوا عليه، ثم أدخلوه قبره، فوضعوه في قبره، ثم حثوا عليه التراب.

---

(١) «قصص ومواليد الأنبياء»، الإمام الكسائي.

ثم قالوا: يا بني آدم، هذه سنَّتكم في موتاكم، وهذا سبيلكم[١].

واختلف العلماء في موضع دفنه، ولكن القول المشهور أنه عليه السلام دفن في جبل أبي قبيس بمكة المكرمة، وتوفيت حواء بعد سنة من وفاته ودفنت إلى جانبه، وبعد طوفان نوح نقل قبر آدم بيت المقدس.

رحم الله آدم وحواء عليهما السلام وأسكنهما جنات النعيم.

* * *

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (١/ ٣٤٤)، والطبراني في «الأوسط»: (٨٢٦١).

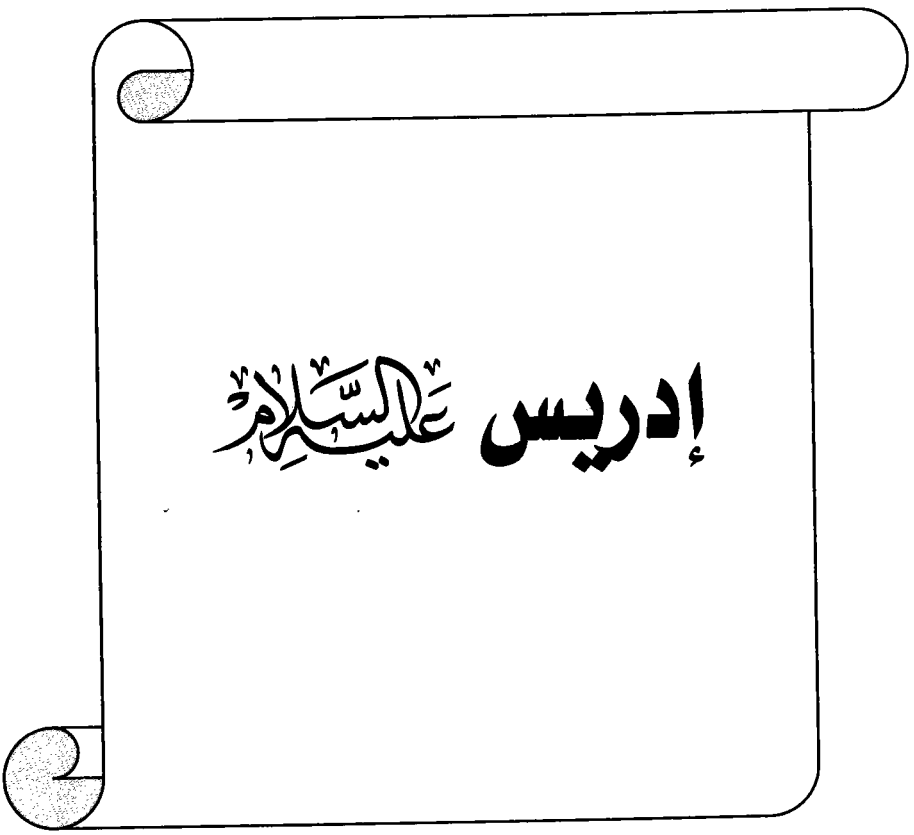
إدريس عليه السلام

إدريس عليه السلام

هو إدريس بن يارد بن مهلائيل بن قينان بن أنوش بن شيث بن آدم عليه السلام [١]، وهو أول نبي بعد آدم عليه السلام وأوَّل مَن خطَّ بالقلم.

وهو أول من نزل عليه جبريل عليه السلام بالوحي لهداية نسل (قابيل)؛ ليرجعوا عن غيّهم وكفرهم ويتوبوا إلى الله ويتبعوا شريعته.

وهو أول من خاط الثياب ولبس المخيط وكان لا يغرز إبرة إلا قال: سبحان الله.

وهو أول من اتخذ السلاح وجاهد في سبيل الله، ووضع الأوزان والمكاييل.

ولادته ونشأته:

قال المؤرخون: إن إدريس عليه السلام وُلِد ببابل، وبها نشأ، وإنه أخذ في بداية حياته بعلم شيث بن آدم، ولمَّا كبر إدريس آتاه الله النبوة فأمر بالمعروف ونهى عن المنكر، ودعا إلى شريعة الله، فنهى المفسدين عن مخالفة شريعة آدم عليه السلام فأطاعه أقلهم وخالفه أكثرهم؛ فخرج هو وأتباعه حتى وافوا مصر.

وأقام إدريس عليه السلام ومن معه من المؤمنين بمصر، يدعو الناس ويحث على طاعة الله عز وجل، وأمرهم بصلوات ذَكَرها لهم، وأمرهم بصيام أيام معروفة من كل شهر، وحثّهم على الجهاد لأعداء دينهم،

---

(١) «قصص الأنبياء»، الحافظ ابن كثير.

وأمرهم بأداء زكاة أموالهم معونة للضعفاء، وشدد عليهم في الطهارة من الجنابة.

إدريس في السماء:

رُفع إدريس عليه السلام إلى السماء الرابعة وهو ابن ثلاثمائة وخمس وستين سنة، وسبب صعوده إلى السماء أنه كان يصعد له من العمل الصالح بمثل ما يصعد لجميع بني آدم في عصره، فأحبه ملك الموت، فاستأذن الله تعالى في مصاحبته، فأذن له فهبط إليه في صورة آدمي، وكان يصحبه، فلمَّا عرفه إدريس عليه السلام قال له: إني سائلك حاجة.

قال ملك الموت: ما هي؟

قال: تذيقني الموت، فلعلي أعلم شدته، فأكون له أشد استعداداً؛ فأوحى الله إلى ملك الموت أن اقبض روحه ساعة.

ففعل ملك الموت، ثم قال له: كيف رأيت؟

قال إدريس: كان أشد مما بلغني عنه.

ثم قال لملك الموت: أحب أن تريني النار.

فحمله فأراه إياها، ثم قال: أحب أن تريني الجنة، فأراه إياها، فلمَّا دخل الجنة وطاف فيها، قال له ملك الموت: اخرج.

فقال: والله لا أخرج حتى يخرجني الله عز وجل.

فبعث الله عز وجل ملكاً يحكم بينهما.

فقال الملك: ما تقول يا ملك الموت؟

فقصَّ عليه ما جرى.

فقال: ما تقول يا إدريس؟

قال إدريس: إن الله تعالى يقول: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥] وقد ذقته، وقال سبحانه: ﴿وَإِن مِّنكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا﴾ [مريم: ٧١]، وقد وردت، وقال لأهل الجنة: ﴿وَمَا هُم مِّنْهَا بِمُخْرَجِينَ ﴿٤٨﴾﴾ [الحجر: ٤٨].

فوالله لا أخرج حتى يخرجني الله تعالى، فسمع هاتفاً من فوقه يقول: «بإذني دخل، وبإذني فعل، فخلي سبيله»(١).

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِى ٱلْكِتَٰبِ إِدْرِيسَ إِنَّهُۥ كَانَ صِدِّيقًا نَّبِيًّا ﴿٥٦﴾ وَرَفَعْنَٰهُ مَكَانًا عَلِيًّا ﴿٥٧﴾﴾ [مريم: ٥٦، ٥٧].

من أقواله عليه السلام:

قال عليه السلام: «الصبر مع الإيمان بالله يورث الظفر».

وقال: «حب الدنيا وحب الآخرة لا يجتمعان أبداً».

وقال: «الشريعة من تمام الدين، وتمام الدين كمال المروءة».

وقال: «السعيد من نظر إلى نفسه، وشفاعته عند الله الأعمال الصالحة».

وقال عليه السلام: «لا تحلفوا كاذبين، ولا تهجموا على الله سبحانه باليمين، ولا تُحلّفوا الكاذبين، فتشاركوهم في الإثم».

وقال: «لا تحسدوا الناس على مؤاتاة الحظ، فإن استمتاعهم به قليل، ومن تجاوز الكفاف لم يفته شيء».

* * *

(١) «قصص الأنبياء»، الشعراوي. (بتصرف).

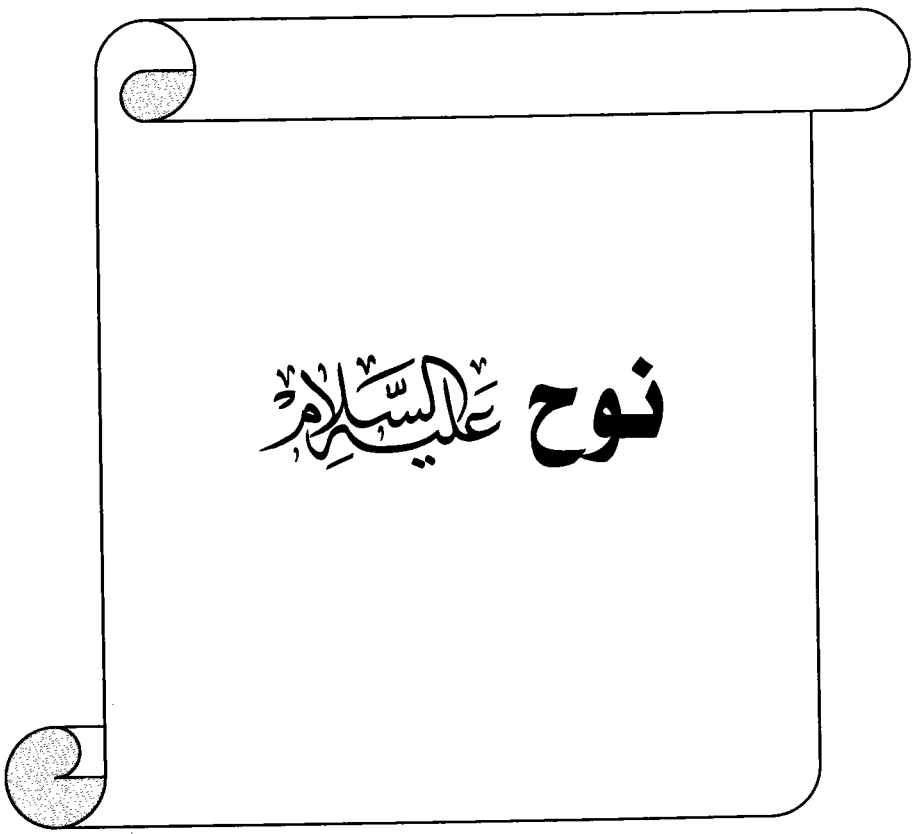
نوح عليه السلام

نـوح عليه السلام

هو نوح بن لامك بن متوشلح بن إدريس، يمتد نسبه إلى آدم أبوالبشر عليه السلام، وكان بينه وبين آدم ألف سنة؛ لِما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كان بين نوح وآدم عليه السلام عشرة قرون كلهم على شريعة من الحق، فاختلفوا، فبعث الله النبيين مبشرين ومنذرين[1].

وهو عليه السلام أول أولي العزم من الرسل.

وهو أول رسول يحذر من الشرك وعبادة غير الله عز وجل، إذ كانت أمته أول الأمم المشركة على وجه الأرض.

وكان عليه السلام نجَّاراً، دقيق الوجه، طويل اللحية.

عبادة الأصنام:

مكث البشر بعد آدم قروناً طويلة، وهي أمة واحدة على الهُدى، ثم اختلفوا، وأدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة.

وكان يوجد في قوم نوح أُناس صالحون، وبعد موتهم حزنوا عليهم حزناً شديداً، فجاءهم الشيطان وأمرهم أن يُصوِّروا تماثيلهم؛ ليتذكروا بها أحوالهم ويقربوهم من الله عز وجل.

---

(١) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢/ ٥٤٦)، وقال: صحيح على شرط البخاري.

فلمَّا هلك الذين صوَّروهم جاء من بعدهم أُناس يجهلون حقيقة هذه الأصنام ولماذا صنعت.

فقال لهم الشيطان: إن هؤلاء الأصنام ودًّا وسواعاً ويغوث ويعوق ونسرا، قد كان من قبلكم يدعونهم ويستشفون بهم، وبهم يسقون الغيث، وتزول الأمراض، فلم يزل الشيطان بهم حتى جعلهم يعبدونها من دون الله.

وهنا بعث الله سبحانه وتعالى نوح عليه السلام إلى قومه؛ ليخلصهم من عبادة الأصنام، فقال لهم: يا قوم، إني محذركم من عذاب الله، ومبين لكم طريق النجاة، فاعبدوا الله وحده لا تشركوا به شيئاً؛ لأني أخاف عليكم إن عبدتم غير الله أن يعذبكم عذاباً شديداً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٥﴾ أَن لَّا تَعْبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ أَلِيمٍ ﴿٢٦﴾﴾ [هود: ٢٥، ٢٦].

كما قال لهم نوح عليه السلام: إنكم إن أطعتم الله واجتنبتم السيئات يغفر لكم ما تقدَّم من ذنوبكم ويمهلكم ويمتعكم في الدنيا والآخرة، ولكن إن عصيتم ربكم فإنه لن يمهلكم بل سيُعَجِّل لكم العذاب وسيأتيكم بغتة من حيث لا تشعرون[1].

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢﴾ أَنِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَٱتَّقُوهُ وَأَطِيعُونِ ﴿٣﴾ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُؤَخِّرْكُمْ إِلَىٰٓ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ ٱللَّهِ إِذَا جَآءَ لَا يُؤَخَّرُ ۖ لَوْ كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤﴾﴾ [نوح: ٢ ـ ٤].

---

(١) «قصص الأنبياء»، عبدالرحمن السعدي. (بتصرف).

عناد واستعلاء الكفار:

بعد أن خاطب نوح عليه السلام قومه ودعاهم إلى طاعة الله، وأخبرهم أنه لا يطلب منهم أجراً، رفض الأغنياء أن يتساووا مع الفقراء، ولم يؤمنوا، بل وطلبوا من نوح أن يطرد الفقراء الذين آمنوا بالله حتى يؤمنوا هم.

فأجابهم نوح: لست بطارد أحداً من الذين آمنوا استجابة لطلبكم وبسبب احتقاركم إياهم، فهم مُقَرَّبون عند الله وسيلاقون ربهم يوم القيامة فيتولى حسابهم وجزاءهم، أما أنتم فإني أراكم قوماً تجهلون.

لم تؤثر كلمات نوح عليه السلام في نفوس قومه بل ردّوا عليه في عناد قائلين: يا نوح قد خاصمتنا وأطلت في ذلك فإن كنت صادقاً في دعوتك فهات ما تهددنا به من العذاب.

قال لهم نوح: هذا الأمر بيدي الله وحده، فهو الذي يصيبكم بالعذاب إن شاء، لا يمنعه منكم مانع[1].

قال تعالى على لسان نوح عليه السلام: ﴿قَالُوا يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٣٢﴾ قَالَ إِنَّمَا يَأْتِيكُم بِهِ اللَّهُ إِن شَاءَ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَنفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدتُّ أَنْ أَنصَحَ لَكُمْ إِن كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَن يُغْوِيَكُمْ هُوَ رَبُّكُمْ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٣٤﴾﴾ [هود: ٣٢ ـ ٣٤].

---

(١) «قصص الأنبياء»، عبدالرحمن السعدي. (بتصرف).

يأس نوح عليه السلام من إيمان قومه:

لمَّا بلغَ نوح درجة اليأس من قومه بعد تسعمائة وخمسين سنة من المجادلة، وضاق بهم ذرعاً، لجأ إلى ربه مستغيثاً به مما يلاقي من قومه من إعراض، فقال: يا رب إني دعوت قومي إلى الإيمان بك وترك عبادة الأصنام، وقد دعوتهم في كل وقت سواء في الليل أو النهار، فلم يزدهم إلا تمرداً وعصياناً، وإني كلما دعوتهم لعبادتك لتتجاوز عن سيئاتهم وضعوا أطراف أصابعهم في آذانهم كراهة أن يستمعوا دعوتي، وبالَغوا في الإعراض فتغطوا بثيابهم كي لا يروني، ولا يسمعوا كلامي، وهنا توجَّه نوح عليه السلام إلى ربه بالدعاء عليهم فقال: ﴿رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: ٢٦، ٢٧][1].

امرأة نوح وعبادة الأصنام:

أعرضت امرأة نوح عن دعوة الإيمان، واتَّبعت طريق الضلال، وكانت تقول للناس عن زوجها نوح عليه السلام إنه مجنون، لا يعقل، يتحدث بكلام لا يفهمه أحد، ويتكلم عن أشياء غير ممكنة الحدوث، ويزعم أن الأصنام لا تضر ولا تنفع، وكانت تُخْبِر الجبابرة من قومها بمَن آمن مع نوح، قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

---

(١) «قصص الأنبياء»، عبدالوهاب النجار. (بتصرف).

سفينة نوح عليه السلام :

بعد أن ضاقت في وجه نوح عليه السلام كل السُّبُل لإصلاحهم، عندئذٍ لجأ إلى ربه يشكو قومه، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ ﴿١١٧﴾ فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِيَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١١٨﴾﴾ [نوح: ١١٧، ١١٨].

استجاب الله سبحانه لدعاء نوح عليه السلام، وأراد سبحانه قبل أن يُهلك قومه المكذبين وأن يهيئ له أسباب النجاة، فأوحى الله إلى نوح أن يصنع الفُلك برعاية منه وتعليم من الله.

وجعل نوح عليه السلام يصنع الفلك من أخشاب الشجر، وكلما مرَّ عليه ملأ من قومه سخروا منه، فقال لهم: إن تسخروا منَّا اليوم فإنَّا نسخر منكم إذا وقع الهلاك بكم، وانتهى نوح من صنع السفينة، وكانت طولها ثلاثمائة ذراع، وعرضها خمسون ذراعاً، وارتفاعها ثلاثون ذراعاً وهو ارتفاع كبير؛ لكي تسع كل المؤمنين والحيوانات ودواب الأرض.

وأمر الله سبحانه نوحاً أن يجمع من كل صنف من الأحياء والحيوانات زوجين ذكراً وأنثى؛ ليحملها معه في السفينة، وكذلك أمره الله أن يحمل معه في السفينة جميع أهله وأقاربه، باستثناء اثنين منهم كَفَرا بالله، وهما: زوجته وأحد أبنائه، كما أمره الله تعالى أن يحمل معه في السفينة المؤمنين من غير أقاربه، وهم قليلون.

أعدَّ نوح عليه السلام الفُلك، وقال للذين آمنوا: اركبوا فيها متيمنين بذكر اسم الله تعالى وقت سيرها ووقت وقوفها.

ثم سارت السفينة بعد أن علا الماء وسط موج بلغ من الضخامة والعلو الجبال[١]، قال الله تعالى: ﴿ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ قُلۡنَا ٱحۡمِلۡ فِيهَا مِن كُلّٖ زَوۡجَيۡنِ ٱثۡنَيۡنِ وَأَهۡلَكَ إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيۡهِ ٱلۡقَوۡلُ وَمَنۡ ءَامَنَۚ وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٞ ﴿٤٠﴾ وَقَالَ ٱرۡكَبُواْ فِيهَا بِسۡمِ ٱللَّهِ مَجۡرِىٰهَا وَمُرۡسَىٰهَآۚ إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴿٤١﴾ ﴾ [هود: ٤٠، ٤١].

نوح عليه السلام والطوفان:

عندما أكمَل نوح عليه السلام بناء السفينة؛ نادى قومه وقال لهم: كل من كان يؤمن بالله يلتحق بنا قبل فوات الأوان، فإن الله مازال يقبل توبتكم، وإذا جاء الطوفان فلا ينجو منه إلا مَن كان معي، ومع ذلك كانوا يستهزئون به. وهنا اقترب الوعد الحق، وجاء أمر الله، وفارَ التَّنُّور، وفتح الله أبواب السماء بماءٍ منهمر، وفَجَّر الأرض عيوناً؛ فاجتمع ماء السماء وماء الأرض؛ ليحصل جرَّاء ذلك الطوفان العظيم الذي قدَّره الله سبحانه لهلاك الكافرين، وارتفعت السفينة فوق الماء، وعلا الموج وغطَّى الأرض.

وغرقت امرأة نوح، لم تركب مع المؤمنين في السفينة، ظنَّت أنَّ بيتها يحميها من الماء، لكن لم يعصمها ذلك من أمر الله.

نجا نوح عليه السلام ومَن معه من المؤمنين جميعهم، ووقاهم الله شرَّ ذلك الطوفان، وغرق الكافرون الساخرون وأهلكهم الله عز وجل[٢].

---

(١) «البدء والتاريخ»، البلخي. (بتصرف).
(٢) «البداية والنهاية»، ابن كثير. (بتصرف).

قال تعالى: ﴿ فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾ فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾ تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا جَزَآءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴿١٤﴾ ﴾ [القمر: ١٠ ـ ١٤].

ابن نوح مع الكافرين:

عندما بدأت السفينة رحلتها، رأى نوح عليه السلام ابنه كنعان لم يركب في السفينة.

فقال له: يا بني، اسمع نصح أبيك وآمِن بالله، وتعالى فاركب معنا في السفينة؛ لتسلم من الغرق ولا تكن مع هؤلاء الكافرين؛ حتى لا تهلك معهم، ولكن ابن نوح لم يستجب لنداء أبيه، وأصرَّ على عصيانه وكفره، وقال لأبيه: سألجأ إلى جبل عالٍ لا يصل الماء إلى قمَّته، فأنجو من الغرق، فردَّ عليه أبوه قائلاً: ليس هناك أية قوة تحول بين أحد وبين الغرق الذي قدره الله جزاء للكافرين.

وصعد ابن نوح إلى قمة الجبل، ولكن لم يعصمه ذلك من أمر الله، وأُغرق وكان من جملة الهالكين.

قال تعالى: ﴿ وَهِىَ تَجْرِى بِهِمْ فِى مَوْجٍ كَٱلْجِبَالِ وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِى مَعْزِلٍ يَٰبُنَىَّ ٱرْكَب مَّعَنَا وَلَا تَكُن مَّعَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٤٢﴾ قَالَ سَـَٔاوِىٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِى مِنَ ٱلْمَآءِ ۚ قَالَ لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ ۚ وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ ﴿٤٣﴾ ﴾ [هود: ٤٢، ٤٣].

وهنا جلس نوح عليه السلام يدعو الله لينجي ابنه من الغرق، فقال: ﴿ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾ ﴾ [هود: ٤٥].

فردَّ الله عليه بأنه ليس من أهله، وعاتبه سبحانه في أن يسأله ما ليس له به علم، فاعتذر نوح عن ذلك، وطلب المغفرة والرحمة من الله سبحانه.

واستوت السفينة على جبل الجودي من (ديار بكر)، وخرج مَن في السفينة، وبارك الله فيهم فكثروا ومَلَؤوا الأرض، وقال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ذُرِّيَّتَهُ هُمُ الْبَاقِينَ ﴿٧٧﴾﴾ [الصافات: ٧٧].

نوح عليه السلام عبداً شكوراً:

كان نوح عليه السلام دائم الحمد لله شاكراً لأنعمه، فكان إذا أكل قال: «الحمد لله الذي أطعمني، ولو شاء لأجاعني».

وإذا شرب قال: «الحمد لله الذي سقاني، ولو شاء لأظمأني».

وإذا اكتسى قال: «الحمد لله الذي كساني، ولو شاء لأعراني».

وإذا احتذى قال: «الحمد لله الذي حذاني، ولو شاء لأحفاني».

وإذا قضى حاجته قال: «الحمد لله الذي أخرج مني الأذى، ولو شاء لحبسه في».

وكان عليه السلام يحمد الله على طعامه، وفي كل أحواله، حقًّا ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴿٣﴾﴾ [الإسراء: ٣].

وصية نوح عليه السلام لابنه قبل موته:

لمَّا حضرت الوفاة نوح عليه السلام قال لابنه: «إني قاص عليك الوصية: آمرك باثنتين، وأنهاك عن اثنتين:

آمرك بـ لا إله إلا الله، فإن السموات السبع والأرضين السبع لو

وُضِعَت في كفَّة ووضعت لا إله إلا الله في كفَّة؛ لرجحت لا إله إلا الله، ولو أن السموات السبع والأرضين السبع كُنَّ في حلقة مبهمة، ختمتهن لا إله إلا الله، وسبحان الله وبحمده، فإن بها صلات كل شيء، وبها يرزق الخلق. وأنهاك عن: الشرك، والكبر»[1].

وتوفي نوح عليه السلام بعدما مكث في قومه ألف سنة إلا خمسين عاماً، وكان من أولاده (يافث)، ملأ المشرق من الذرية، و(حام) ملأ المغرب من النسل، و(سام) ملأ ما بين ذلك.

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: (٣/٣٥٨)، والبخاري في «الأدب المفرد»: (٥٤٧).

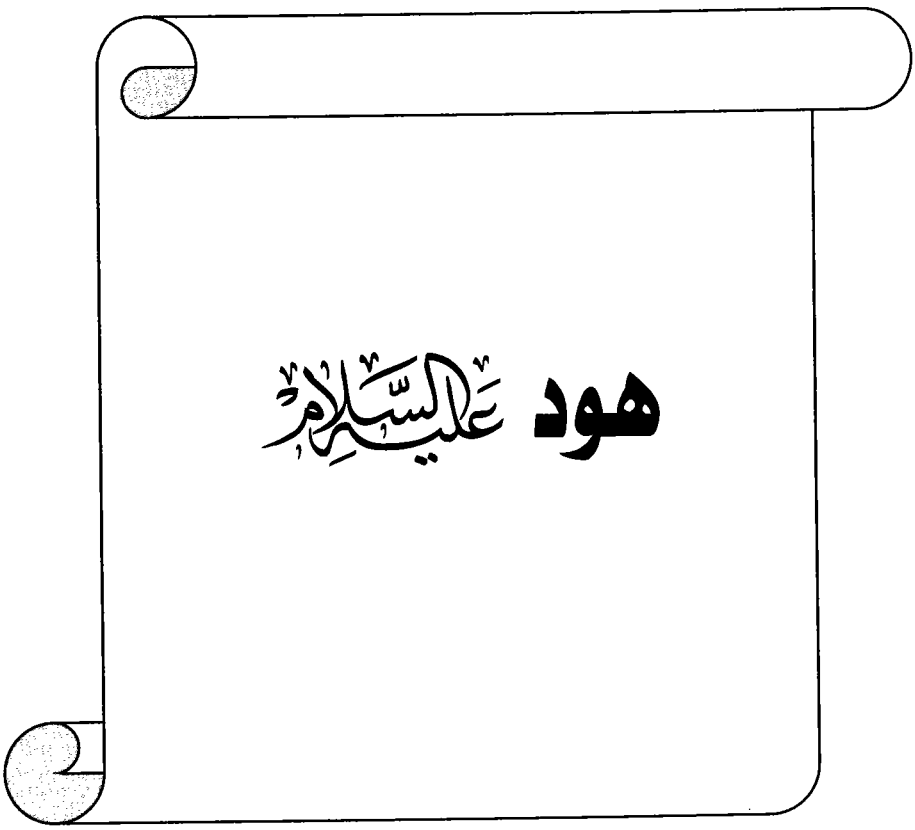
هود عليه السلام

هـود عليه السلام

هو هود بن شالخ بن أرفخشذ بن سام بن نوح عليه السلام.

وهود عليه السلام هو حفيد سام بن نوح، ومن نبوة نوح إلى نبوة هود، لم يبعث الله أنبياء.

وقد أرسل الله سبحانه هود؛ ليدعو قوم عاد إلى عبادة الواحد الحق، حيث كانوا يعبدون الأصنام.

وقوم عاد كانوا يسكنون الأحقاف ـ وهي جبال الرمل ـ وكانت باليمن بين عُمان وحضرموت، بأرض مطلة على البحر، يقال له الشجرة، واسم واديهم: مغيث.

مساكن عاد وآلهتهم:

كانوا كثيراً ما يسكنون الخيام ذوات الأعمدة الضخام، كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ۝٧ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ۝٨﴾ [الفجر: ٨ ـ ٩][1].

وقوم عاد هم أول من عبدوا الأصنام بعد الطوفان، وكانت أصنامهم ثلاثة: حمداً وصموداً وهرا، فبعث الله فيهم أخاهم هوداً عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وترك عبادة الأوثان.

---

(١) «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

هود عليه السلام يدعو قومه:

دعا هود عليه السلام قومه إلى توحيد الله، وكانوا يعبدون الأوثان، ثم ذكَّرهم بنعم الله عليهم، وكيف أنه زادهم في الخلق بسطة، فمنحهم القوة الجسدية التي لا تمنح لأحد غيرهم، وجعلهم خلفاء من بعد نوح عليه السلام، وبوَّأهم الأرض التي تدر عليهم الخير وتخرج لهم الزرع الذي يعيشون منه.

قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ أَخَا عَادٍ إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ [الأحقاف: ٢١].

وظل هود عليه السلام يدعو قومه محاولاً إقناعهم بالرجوع إلى طريق الحق، وينهاهم عن الشرك والتجبُّر على العباد.

قال تعالى: ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَاءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ ۚ وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِن بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ وَزَادَكُمْ فِي الْخَلْقِ بَصْطَةً ۖ فَاذْكُرُوا آلَاءَ اللَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأعراف: ٦٩].

وأخبر هود عليه السلام قومه أن الأصنام التي يعبدونها هم الذين أعطوها أسماءها، وليس فيها معنى من معاني الألوهية، وأنه من عملهم وصنع أيديهم، فهي لم تخلقهم، ولا تملك لهم نفعاً ولا ضرًّا، وأنها لا حجة لهم في القول بأن هذه الأصنام عبدها آباؤهم، فليس من العقل في شيء أن يتبع الإنسان أباه إذا كان أبوه في ضلال وكان كافراً مشركاً.

قال تعالى: على لسان هود عليه السلام: ﴿أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ

سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓا۟ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧١]، ووعدهم عليه السلام بالخير الكثير، وأن الله سيرسل عليهم من السماء الماء مدراراً إن تابوا واستغفروا، فقال: ﴿وَيَٰقَوْمِ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا وَيَزِدْكُمْ قُوَّةً إِلَىٰ قُوَّتِكُمْ وَلَا تَتَوَلَّوْا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٥٢﴾﴾ [هود: ٥٢]، وبيَّن هود عليه السلام في دعوته حقيقة الموت والبعث، فأخبر قومه أن الموت ليس هو نهاية أمرهم، بل إنهم سوف يبعثون بعد الموت، وأنهم سوف يخرجون من قبورهم ويعودون إلى الحياة مرة أخرى، يخلقهم من جديد، كما خُلقوا أول مرة، ويحاسبون حسب أعمالهم التي ماتوا عليها، وأن هذا سيكون في اليوم الآخر الذي لا يوم بعده، وهو يوم الخلود، ولكن قوم عاد جحدوا وردُّوا قائلين: ﴿أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا وَمَا نَحْنُ لَهُۥ بِمُؤْمِنِينَ ﴿٣٨﴾﴾ [المؤمنون: ٢٣ ـ ٣٨][1].

موقف قومه من دعوته:

قابل الملأ من قومه، وهم الأشراف والسادة، دعوة هود عليه السلام بالإنكار والجحود، ورموه بالكذب والضلال والجنون.

وقالوا له: إنك لم تأتنا بحجة واضحة على صحة ما تدعونا إليه، وما نحن بتاركي عبادة آلهتنا، وما نحن لك بمصدقين.

---

(١) «تاريخ الأنبياء والرسل»، محمد وصفي. (بتصرف).

بل لقد بلغ من كفرهم أن رجلاً منهم اسمه (حَمّار) مات له أولاد فكفر كفراً عظيماً وتمادى في غيّه وضلاله، فلا يمر عليه أحد بأرضه إلا دعاه إلى الكفر، فإن أجاب إلى الكفر تركه وإن امتنع عن الكفر قتله[1].

ثم إن عاداً ضجروا بما يدعوهم إليه هود عليه السلام ونفروا من كثرة نصحه لهم، ولم يتركوا عبادة آلهتهم ليعبدوا الله وحده، بل تحدُّوه أن ينفذ فيهم وعيده وأن يقع عليهم العذاب والغضب من الله.

فأجابهم هود عليه السلام قائلاً: أُشهد الله على صدق ما أقول، وأشهدكم أني بريء من آلهتكم وأوثانكم.

ثم قال لهم: لابد أن يقع عليكم غضب الله، فانتظروا عذابه، إني معكم من المنتظرين.

قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ ٱللَّهَ وَحْدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا ۖ فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٧٠﴾ قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ ۖ أَتُجَٰدِلُونَنِى فِىٓ أَسْمَآءٍ سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم مَّا نَزَّلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ فَٱنتَظِرُوٓاْ إِنِّى مَعَكُم مِّنَ ٱلْمُنتَظِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ [الأعراف: ٧٠، ٧١].

هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين:

لجأ هود عليه السلام إلى ربه طالباً نصره وعونه قائلاً: ﴿رَبِّ ٱنصُرْنِى بِمَا كَذَّبُونِ ﴿٣٩﴾﴾ [المؤمنون: ٣٩].

---

(١) «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام»، جواد علي.

فاستجاب الله عز وجل دعاءه وقال: ﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَّيُصْبِحُنَّ نَٰدِمِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [المؤمنون: ٤٠].

وكان هذا إنذاراً عاجلاً من القوي العزيز بأنَّ العذاب الذي لم يتوقعوه وطالما استعجلوه قد قرب، وأنه بما أعدّه لهم من شر وبلاء يرونه رأي العين، فيندمون حين لا ينفع الندم، ولا يملكون كشف الضر عنهم[1].

ثم جاء الوعد الحق، وكان أول ما ابتدأهم من العذاب أن مُنع عنهم المطر ثلاثة أعوام؛ حتى أجهدهم الأمر وأصيبوا بقحط شديد.

وكانوا يتطلعون إلى السماء كل صباح ومساء آملين أن ينزل عليهم المطر ولكن دون جدوى، فأسرع جماعة منهم إلى الكعبة على رأسهم رجل اسمه (القيس) ورجل اسمه (مرصد بن سعد)، وكان لهم أخوال يحكمون مكة من العماليق أولاد (عمليق بن لاوث بن سام بن نوح).

فنزلوا عندهم فأكرموا وفادتهم وجاءوا لهم بالطعام والشراب ومجالس الطرب.

وظلوا شهراً يأكلون ويشربون دون أن يذهبوا إلى الكعبة، وتعجَّب (معاوية بن بكر) كبير العماليق من حالهم، وقال في نفسه: هؤلاء الجماعة جاءوا لينقذوا قومهم من الجدب والقحط، ولكنهم نسوا ما جاءوا من أجله ولم يذهبوا إلى الكعبة، وفكَّر معاوية بن بكر كيف يلفت انتباههم لكي يذهبوا إلى الكعبة، وفي نفس الوقت لا يشعرهم أنه ضاق بهم ذرعاً.

---

(١) «تاريخ الأنبياء»، محمد الطيب النجار. (بتصرف).

فكتب شعراً وأمر مغنيتين من عنده أن تغنيهم به، فقال:

ألا يـــا قيـــل ويحـــك قـــم فهينـــم
لعـــل الله يصبحنـــا غمـــامـــاً
فيسقـــي قـــوم عـــاد إن عـــادا
قـــد أمســـوا لا يبينـــون الكـــلامـــا

ثم أكمل الأبيات بأن قوم عاد أصابهم الجدب حتى فقدوا القدرة على الكلام، فظلت المغنيتان ترددان هذه الأبيات حتى تنبّه القوم لما جاءوا له فانطلقوا إلى الكعبة وجلسوا يبتهلون ويدعون أن ينزل المطر على أرض عاد.

فسمعوا هاتفاً يقول: اختر لقومك... هناك سحابة سوداء وسحابة حمراء وسحابة بيضاء، فأي سحابة تريدونها أن تذهب لقومكم؟ فاختاروا الصحابة السوداء اعتقاداً منهم أنها مادامت سوداء داكنة فلابد أن تكون مليئة بالمطر.

وعادوا إلى قومهم وأخبروهم بما حدث، واختيارهم للسحابة السوداء، فلمَّا رأوا السحابة السوداء قادمة عليهم استبشروا وقالوا: جاءنا المطر، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾ [الأحقاف: ٢٤].

حينئذٍ ردَّ الله سبحانه وتعالى عليهم: ﴿بَلْ هُوَ مَا اسْتَعْجَلْتُم بِهِ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا لَا يُرَىٰ إِلَّا مَسَاكِنُهُمْ كَذَٰلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [الأحقاف: ٢٤، ٢٥][1].

---

(١) «قصص الأنبياء»، الشعراوي. (بتصرف).

قد سلَّط الله عليهم ريحاً عاصفة تتابعت سبع ليالٍ وثمانية أيامٍ فلم تبق منهم أحداً، بل تتبعتهم الرياح حتى كانت تدخل عليهم كهوف الجبال فتخرجهم من مكانهم وتهلكهم، وكانت تدمر عليهم بيوتهم المشيدة، فهلكوا جميعاً وتناثرت جثثهم على الأرض، فلم يبق منهم أحداً، وعن حالهم يقول المولى سبحانه وتعالى: ﴿وَأَمَّا عَادٌ فَأُهْلِكُوا بِرِيحٍ صَرْصَرٍ عَاتِيَةٍ ۝٦ سَخَّرَهَا عَلَيْهِمْ سَبْعَ لَيَالٍ وَثَمَانِيَةَ أَيَّامٍ حُسُومًا فَتَرَى الْقَوْمَ فِيهَا صَرْعَىٰ كَأَنَّهُمْ أَعْجَازُ نَخْلٍ خَاوِيَةٍ ۝٧﴾ [الحاقة: ٦ ـ ٨].

أما هود والذين آمنوا معه، فإنه سمع عليه السلام حين رأى السحاب هاتفاً يقول له: اخرج من هذا المكان فهذا السحاب فيه العذاب.

فأخذ جماعة المؤمنين وانطلق إلى مكة وعاش هناك إلى أن لقي الله عز وجل.

ونجَّى الله هوداً ومن معه من المؤمنين، ونصرهم في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

* * *

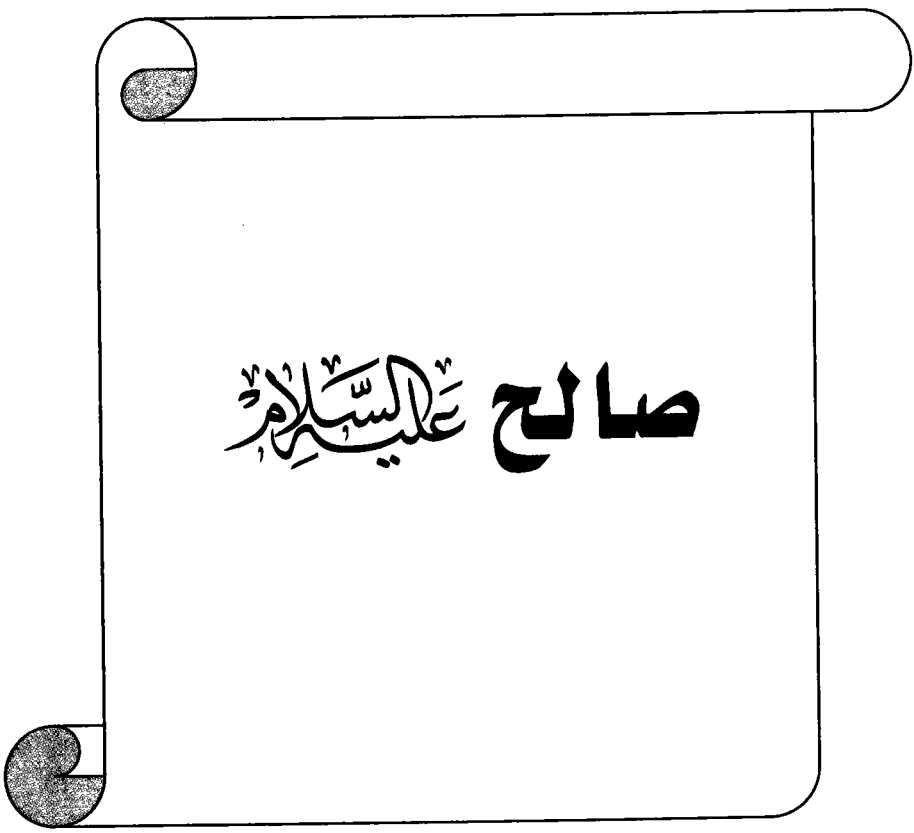
صالح عليه السلام

صالـح عليه السلام

هو نبي الله صالح بن عبيد بن أسف ويمتد نسبه إلى سام بن نوح، نشأ صالح عليه السلام في قبيلة ثمود، وهي القبيلة التي سميت باسم الجد الأكبر لهم وهو الجد الخامس لصالح عليه السلام وتوجد هذه القبيلة بين الحجاز والشام، وهي قبيلة عربية مشهورة، وكانوا بعد قوم عاد، وكانوا يعبدون الأصنام مثلهم؛ فبعث الله لهم رجلاً منهم هو صالح عليه السلام وكانت دعوته بعد دعوة هود عليه السلام [١].

مساكن ثمود وآلهتهم:

كانت مساكن ثمود بالحِجر، وهو مكان بين الحجاز والشام، ومدائن صالح ظاهرة حتى الآن، ويعرف الآن بـ(فج الناقة)، وكانت مساكنهم في مناطق جبلية، ويوجد في ديار ثمود بئر يسمى (بئر ثمود).

ولمَّا نزل رسول الله ﷺ بالناس على تبوك نزل بالحجر عند بيوت ثمود، فاستسقى الناس من الآبار التي كانت تشرب منها ثمود، فعجنوا منه ونصبوا لها القدور.

فأمرهم النبي ﷺ فأهرقوا القدور، وأطعموا العجين للإبل، ثم ذهب بهم حتى نزل على البئر التي كانت تشرب منه الناقة، ونهاهم أن

---

(١) «البداية والنهاية»، ابن كثير. (بتصرف).

يدخلوا على القوم الذين عُذِّبوا، وقال ﷺ: «**إني أخشى أن يصيبكم مثل ما أصابهم، فلا تدخلوا عليهم**»(١).

وقد كانت ثمود تتعبد لأصنام كثيرة منها: ود، وشمس، ومناف، ومناة، والسلات... وغيرها.

دعوة صالح عليه السلام إلى قومه:

اختار الله سبحانه صالحاً عليه السلام لأداء رسالته، واصطفاه لتبليغ الدعوة إلى قومه، فأرشدهم إلى عبادة الله وحده وترك الأصنام، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا فَٱسْتَغْفِرُوهُ ثُمَّ تُوبُوٓاْ إِلَيْهِ إِنَّ رَبِّى قَرِيبٌ مُّجِيبٌ ﴿٦١﴾﴾ [هود: ٦١].

وأخبر صالح عليه السلام قومه أنهم سيبعثون بعد الموت وفناء الحياة الدنيا، وأن الله تعالى سوف يبعث مَن في القبور، وسيحاسبهم على كفرهم وعصيانهم وعدم اتباع رسلهم، وعتوِّهم عن أمر ربهم، وأنهم سيتوقفون للحساب، فيجازون بحسب ما قدموا في حياتهم الدنيا، وأن الحياة الآخرة صدق، وأنها الحياة الحقيقية الدائمة، إما في النعيم وإما في الجحيم، فردَّ عليه الملأ من قومه قائلين: ﴿مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يَأْكُلُ مِمَّا تَأْكُلُونَ مِنْهُ وَيَشْرَبُ مِمَّا تَشْرَبُونَ ﴿٣٣﴾ وَلَئِنْ أَطَعْتُم بَشَرًا مِّثْلَكُمْ إِنَّكُمْ إِذًا لَّخَٰسِرُونَ ﴿٣٤﴾ أَيَعِدُكُمْ أَنَّكُمْ إِذَا مِتُّمْ وَكُنتُمْ تُرَابًا وَعِظَٰمًا أَنَّكُم مُّخْرَجُونَ ﴿٣٥﴾ هَيْهَاتَ هَيْهَاتَ لِمَا تُوعَدُونَ ﴿٣٦﴾ إِنْ هِىَ إِلَّا حَيَاتُنَا ٱلدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ ﴿٣٧﴾﴾ [المؤمنون: ٣٣ ـ ٣٧].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: (٢/١١٧).

ثم قال لهم عليه السلام : هل تظنون أن الله سيترككم فيما أنتم تتمتعون به من هذا النعيم، آمنين على أنفسكم من حلول عذاب الله بكم، فتنعمون بالزروع والبساتين والنخيل، وتنحتون من الجبال بيوتاً لتسكنوا فيها، ثم لا تشكرون الله على هذه النعم الكثيرة؟

﴿ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٥٠﴾ وَلَا تُطِيعُوا أَمْرَ الْمُسْرِفِينَ ﴿١٥١﴾ الَّذِينَ يُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿١٥٢﴾ ﴾ [الشعراء: ١٥٠ ـ ١٥٢].

ناقة صالح عليه السلام :

مرَّت الأيام بصالح عليه السلام وهو يدعو قومه، وفي ذات يوم وجدهم مجتمعين في ناديهم، فجاءهم عليه السلام فدعاهم إلى الله وحذَّرهم غضبه وعقابه إن ظلوا على كفرهم.

فسألوه إن كان نبيًّا أن يأتيهم بآية من الله، تؤكد صدق ما جاء به مِن نبوة، وحددوا الآية أن تكون ناقة عظيمة، واقترحوا بأن تخرج لهم من صخرة صماء عينوها بأنفسهم منفردة في ناحية الحِجر.

وأخذ عليهم صالح عليه السلام العهود والمواثيق إن أجابهم الله تعالى إلى سؤالهم وطلبهم بأن يؤمنوا بالله ويعبدوه ويتبعوا صالحاً عليه السلام [1]، وهنا قام صالح عليه السلام يصلّي لله عز وجل ويدعوه، فاستجاب الله له وتتحرك الصخرة وتتصدَّع، وتخرج منها ناقة عظيمة يتحرك جنينها بين جنبيها.

جاءت الناقة كما سألوا، وأول مَن آمن منهم سيدهم (جندب بن

---

(١) «صفوة التفاسير»، محمد علي الصابوني. (بتصرف).

عمرو) ومن كان معه على أمره، وصدَّهم عن الإيمان (ذؤاب بن عمرو بن لبيد) و(الحباب) صاحب أوثانهم.

وصف ناقة صالح عليه السلام:

كانت الناقة خلقاً هائلاً ومنظراً رائعاً، إذا مرَّت بأنعامهم نفرت منها، وجعل الله لها شرباً في يوم معلوم، وجعل لهم شرباً في يوم غيره، وأمرهم صالح عليه السلام ألاَّ يمسُّوها بسوء، فلا تُعَذَّب ولا تُطرد ولا تُركب ولا تُذبح، وأوعدهم بالعذاب إن هم اعتدوا عليها بسوء، وأن سلامتهم مقرونة بسلامتها.

قال تعالى على لسان صالح: ﴿هَٰذِهِۦ نَاقَةٌ لَّهَا شِرْبٌ وَلَكُمْ شِرْبُ يَوْمٍ مَّعْلُومٍ ﴿١٥٥﴾ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوٓءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابُ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الشعراء: ١٥٥، ١٥٦].

قتل الناقة:

كان سبب قتل الناقة أن امرأة من قوم صالح يقال لها (عنيزة بنت غنم) وتُكنى أم عثمان، وكانت عجوزاً كافرة، وكانت من أشد الناس عداوة لصالح عليه السلام، وكانت لها بنات حسان ومال كثير، وكان زوجها (ذؤاب بن عمرو) أحد رؤساء ثمود، وامرأة أخرى يقال لها (صدقة بنت زهير)، وكانت ذات حسب ومال وجمال، وكانت تحت رجل مسلم من ثمود ففارقته.

دعت (عنيزة بنت غنم) (قدار بن سالف) وكان رجل أحمر قصيراً، وقالت له: أعطيك أي بناتي شئت على أن تعقر الناقة، فأجابها، ودعت (صدقة بنت زهير) رجلاً يقال له (الحباب) فعرضت عليه نفسها إن هو عقر الناقة؛ فأبى عليها، فدعت ابن عم لها يقال له

(مصداع بن مهرج) فأجابها إلى ذلك.

فعند ذلك انطلق (قدار بن سالف) و(مصدع بن مهرج) فأتبعهما سبعة نفر فصاروا تسعة رهط، قال تعالى: ﴿وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [النمل: ٤٨].

وكانوا رؤساء في قومهم، فاستمالوا القبيلة الكافرة بكاملها، فطاوعتهم على ذلك.

وانطلقوا يرصدون الناقة حين انتهت من شرب الماء حيث كَمَنَ لها (قدار بن سالف) خلف صخرة على طريقها، وكمن لها (مصداع بن مهرج) خلف صخرة أخرى على طريقها، ومرَّت الناقة على (مصداع) فرماها بسهم فأصابها في ساقها، ثم أسرع (قدار بن سالف) فشد عليها بالسيف، فكشف عن عرقوبها، فخرَّت الناقة ساقطة على الأرض، فنحرها[1].

قال تعالى: ﴿إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا ﴿١٢﴾ فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقْيَىٰهَا ﴿١٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمْ فَسَوَّىٰهَا ﴿١٤﴾ وَلَا يَخَافُ عُقْبَٰهَا ﴿١٥﴾﴾ [الشمس: ١٢ ـ ١٥].

وقال رسول الله ﷺ لعلي بن أبي طالب رضي الله عنه: «**ألا أحدثكما بأشقى الناس، رجلين؟**» قلنا: بلى يا رسول الله، قال ﷺ: «**أُحَيْمَر ثمود الذي عقر الناقة، والذي يضربك يا علي**»[2].

---

(١) «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (١٤١)، وأحمد في «مسنده»: (٤/ ٢٦٣).

هلاك ثمود:

بعد أن عقر الناقة أشقى أهل الأرض (قدار بن سالف)، بلغ الخبر صالحاً عليه السلام، فلمَّا رأى الناقة بكى وقال لهم: ﴿تَمَتَّعُوا۟ فِى دَارِكُمْ ثَلَٰثَةَ أَيَّامٍ ۖ ذَٰلِكَ وَعْدٌ غَيْرُ مَكْذُوبٍ ﴿٦٥﴾﴾ [هود: ٦٥].

وكان قتلهم الناقة يوم الأربعاء، فلمَّا أمسى أولئك التسعة رهط عزموا على قتل صالح عليه السلام، فلمَّا عزموا على ذلك جاءوا من الليل ليقتلوه، فأرسل الله سبحانه عليهم حجارة، فقتلتهم قبل قومهم.

وأصبح ثمود يوم الخميس وهو اليوم الأول من أيام النظرة ووجوههم مصفرة كما وعدهم صالح عليه السلام.

وأصبحوا في اليوم الثاني وهو يوم الجمعة ووجوههم محمرة.

وأصبحوا في اليوم الثالث وهو يوم السبت ووجوههم مسودة.

فلمَّا كان صبيحة يوم الأحد (اليوم الموعود) تأهبوا وقعدوا ينتظرون ماذا يحل بهم من العذاب، وكيف يأتيهم العذاب.

وأشرقت الشمس، جاءتهم صيحة من السماء، ورجفة شديدة من أسفل منهم، ففاضت الأرواح، وزهقت النفوس في ساعة واحدة[1].

ولم يبق من ذرية ثمود أحد سوى صالح عليه السلام ومن تبعه ممن آمن معه رضي الله عنهم.

ونجَّى الله رسوله ومن آمن معه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ نُنَجِّى رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ ۚ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾ [يونس: ١٠٣].

---

(١) «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

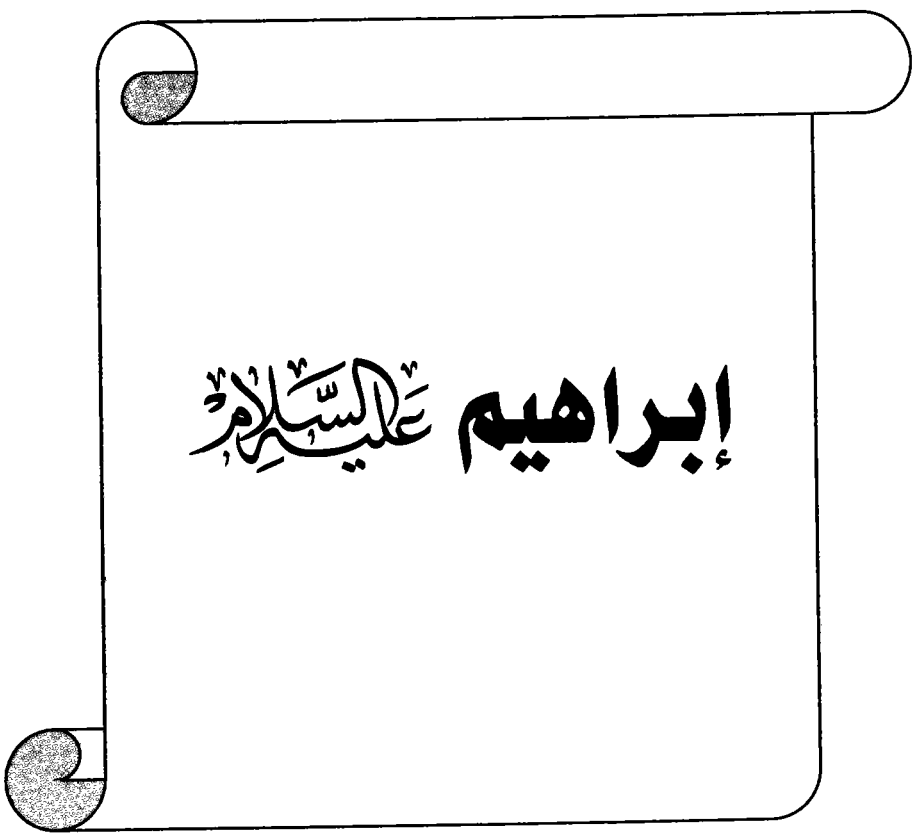
إبراهيم عليه السلام

إبراهيم عليه السلام

هو إبراهيم خليل الله، ابن تارح بن ناحور، يمتد نسبه إلى سام بن نوح عليه السلام.

وهو عليه السلام ثاني الأنبياء، ومن أولي العزم من الرسل، وبعد صالح لم يُبْعَث نبي حتى بُعِثَ إبراهيم عليه السلام.

وُلِدَ إبراهيم عليه السلام بأرض بابل (بين دجلة والفرات)، وكان أبوه وقومه يعبدون الأصنام والأوثان، ويسجدون للكواكب، فبعث الله إليهم إمام الحنفاء إبراهيم عليه السلام، فدعاهم إلى وجوب إخلاص العبادة لله وحده.

دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه:

كان والد إبراهيم في مقدمة عابدي الأصنام، بل كان ممن ينحتها ويبيعها.

فأراد إبراهيم عليه السلام أن يدعو والده إلى عبادة الله الواحد الأحد وترك عبادة الأصنام.

فقال له: يا أبت، لِمَ تعبد هذه الأصنام والأوثان التي لا تسمع دعاء عابدها، ولا تبصر مكانه، فكيف تغني عنه شيئاً أو تفعل به خيراً من رزق أو نصر، أو غير ذلك.

ثم قال له: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٣].

ولكنَّ أباه ردَّ عليه قائلاً: يا للعجب، أمُعْرِض أنت عن عبادة الأصنام يا إبراهيم؟ لئن لم ترجع عمَّا أنت عليه لأرجمنَّك بالحجارة، فقال له إبراهيم عليه السلام: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكَ ۖ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ بِى حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: ٤٧].

هذا وقد استغفر إبراهيم لأبيه كما وعده، ولكن قبل يأسه من إيمانه، أما بعد أن تبيَّن له أنه عدو لله لا يريد أن يترك عبادة الأصنام فقد تبرَّأ منه.

قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ ٱسْتِغْفَارُ إِبْرَٰهِيمَ لِأَبِيهِ إِلَّا عَن مَّوْعِدَةٍ وَعَدَهَآ إِيَّاهُ فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُۥٓ أَنَّهُۥ عَدُوٌّ لِّلَّهِ تَبَرَّأَ مِنْهُ ۚ إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَأَوَّٰهٌ حَلِيمٌ ﴿١١٤﴾﴾ [التوبة: ١١٤][1].

إبراهيم عليه السلام والأصنام:

كان من عادة قوم إبراهيم عليه السلام أن يقيموا عيداً لهم في كل عام يقضون أيامه خارج المدينة، وكانوا يضعون الأطعمة الشهية الكثيرة في بيوت العبادة لتباركها آلهتهم، حتى إذا رجعوا من عيدهم أكلوا فرحين.

وهنا انتهز إبراهيم عليه السلام فرصة غيابهم ليحطم الأصنام التي كانوا يعبدها قومه، فأقسم على تحطيمها؛ حتى يثبت لقومه أنها لا تضر ولا تنفع ولا تستطيع إلحاق الأذى بمن يصيبها بضرر.

لمَّا اقترب وقت العيد، قال أبوه: يا بنيّ لو خرجت معنا إلى عيدنا

---

(١) «قصص الأنبياء»، ابن كثير. (بتصرف).

لأعجبك ديننا، فخرج معهم، فلمّا كان ببعض الطريق ألقى إبراهيم عليه السلام نفسه إلى الأرض وقال: إني سقيم، فجعلوا يمرون عليه وهو صريع فيقول لهم: إني سقيم.

فلما جاز عامتهم وبقي ضعفاؤهم قال لهم: ﴿وَتَاللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَامَكُمْ بَعْدَ أَنْ تُوَلُّوا مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: ٥٧].

ثم قام إبراهيم عليه السلام متوجهاً إلى بيت الآلهة وبيده فأس، وكان بعضها إلى جانب بعض، يتصدرها كبيرها، ورأى أمامها ما تركه القوم قرباناً لها من الطعام والشراب لتأكله، في زعمهم.

فخاطب إبراهيم عليه السلام الأصنام ساخراً: ألا تأكلون؟!

فلمَّا لم يجبه أحد، قال: ما لكم لا تنطقون؟

فانهال عليهم بالفأس، وجعل يكسرهن ويحطمهن، وجعلها قطعاً صغيرة، حتى إذا لم يبق إلا الصنم الكبير علَّق الفأس في عنقه، ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَاذًا إِلَّا كَبِيرًا لَهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [الأنبياء: ٥٨]؛ ليرجعوا إليه ويسألوه عمَّا وقع لآلهتهم، فلا يجيبهم؛ فيظهر لهم بطلان عبادة الأصنام.

ترك إبراهيم عليه السلام أكبر الأصنام، وكان من ذهب، وكان عدد الأصنام اثنين وسبعين صنماً، بعضها من ذهب وبعضها من فضة وبعضها من نحاس وبعضها من خشب.

ولمَّا رجع القوم من عيدهم ودخلوا إلى معبدهم، فوجئوا بآلهتهم أنقاضاً متفرقة، وأشلاءً ممزَّقة، إلا الصنم الكبير منهم، فوجدوه على حاله.

حينئذٍ تملَّكهم الفزع والعجب وهم يصيحون: ما هذا البلاء الكبير؟! وما هذه المصيبة العظيمة؟! ومَن الذي فعل هذا بآلهتنا؟! إنه إذاً لمن الظالمين، فإنه لابد أن يذوق وبال أمره وعاقبة مكره.

قال قائل منهم: سمعنا فتىً يقال له إبراهيم يذكرهم بالسوء، ويحتقر عبادتنا لهم، لابد أن يكون هو الذي اجترأ وفعل هذه الفعلة المنكرة بآلهتنا.

جيء بإبراهيم عليه السلام، فسأله الحكام: ﴿ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء: ٦٢].

فردَّ عليهم إبراهيم عليه السلام قائلاً: الذي حطم الأصنام هو كبيرهم، وأن الشاهد على فعله بقية الأصنام، ﴿فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: ٦٣].

فقد غضب الصنم الكبير من أن تعبدوا هذه الأصنام الصغيرة، وهو أكبرهم منها، فكسرها.

فقال بعضهم لبعض: أنتم الظالمون بعبادة معبودات لا تستطيع النطق ولا تستطيع الدفاع عن نفسها.

ولكنهم رجعوا إلى جهلهم وعنادهم، وعادوا إلى مجادلة إبراهيم قائلين: إنك تعلم أن هذه الأصنام لا تقدر أن تنطق فكيف تطلب منَّا أن نسألها؟

فقال لهم إبراهيم عليه السلام: ﴿أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: ٦٦، ٦٧][1].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي. (بتصرف).

إبراهيم عليه السلام والنار:

اتفق الملك وشعبه على إدانة إبراهيم عليه السلام وقرّروا الانتقام لآلهتهم، فقالوا: ﴿حَرِّقُوهُ وَانصُرُوٓاْ ءَالِهَتَكُمۡ إِن كُنتُمۡ فَٰعِلِينَ﴾ [الأنبياء: ٦٨].

وبدأوا بجمع الحطب ليقيموا عليه ما قرّروه، فجمعوا حطباً كثيراً جدًّا، حتى إنَّ المرأة إذا مرضت تنذر إن عوفيت أن تحمل حطباً لحرق إبراهيم، ثم جعلوه في حفرة من الأرض، وأضرموها ناراً، فكان لها شرر عظيم ولهب مرتفع لم توقد نار قط مثلها، حتى إنَّ الطير إذا مرَّت من جنباتها احترقت، ثم جاءوا بإبراهيم عليه السلام وهو مقيَّد بالحبال، وقذفوا به من مسافة بعيدة.

فلمَّا ألقوه قال: «**حسبي الله ونعم الوكيل**».

وهنا ينزل سيد الملائكة جبريل عليه السلام من السماء.

فقال: يا إبراهيم، ألكَ حاجة؟

فقال إبراهيم: أمَّا إليك، فلا.

فقال جبريل: فاسأل ربّك.

فقال إبراهيم: حسبي من سؤالي علمُه بحالي.

ثم دعا إبراهيم عليه السلام ربه فقال: يا الله، يا واحد، يا أحد، يا صمد، يا من لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوًا أحد، نجّني من النار برحمتك؛ فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى النار: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: ٦٩][1].

---

(١) «الأنبياء حياتهم وقصصهم»، العاملي. (بتصرف).

أقام إبراهيم عليه السلام في النار سبعة أيام لم يقدر أحد أن يقرب منها، ثم جاؤوا فإذا هو قائم يصلي، وكان يقول: ما كنت أياماً قط أنعم مني في الأيام التي كنت فيها في النار.

الذي حاج إبراهيم في ربّه:

كان النمرود بن كنعان بن كدش، ملكاً على عهد إبراهيم عليه السلام، وكان يدّعي الألوهية، وكان أحد ملوك الدنيا.

فبلغته دعوة إبراهيم عليه السلام التي تقوم على عبادة الله وحده، فبعث الملك في طلبه ودار بينهما هذا الحوار:

سأل الملك إبراهيم عليه السلام عن صفات ربه الذي يدعو إلى عبادته؟

فأجابه: بأن ربه هو الذي يحيي ويميت.

قال الملك: أنا أُحيي وأُميت.

قال إبراهيم: وكيف ذلك؟!

قال الملك: آخذ رجلين قد استحقا القتل، فأقتل أحدهما فأكون قد أمَتُّه، وأعفو عن الآخر فأكون قد أحييتُه.

قال إبراهيم: فإن الله يأتي بالشمس من المشرق، فإن كنت كما زعمت من أنك تحيي وتميت فأتِ بهذه الشمس من المغرب.

فلم يجد الملك كلاماً يجيب إبراهيم عليه السلام به، بل انقطع وسكت وبهت، وكان من الظالمين.

قال تعالى: ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِى حَآجَّ إِبْرَٰهِـۧمَ فِى رَبِّهِۦٓ أَنْ ءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّىَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا۠ أُحْىِۦ وَأُمِيتُ ۖ قَالَ

﴿إِبْرَٰهِـۧمُ فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٥٨﴾﴾ [البقرة: ٢٥٨][1].

إبراهيم عليه السلام وسارة:

كان إبراهيم عليه السلام في بداية حياته ببابل بالعراق، وتزوج سارة وهي قريبته، وكانت قد آمنت برسالته، وكذلك آمن له لوط ابن أخيه، وكانت سارة عليها السلام عاقراً لا تلد، وكانت قد رُزقت حظًّا كبيراً من الجمال وحُسن الهيئة، وكانت عليها السلام صاحبة ماشية كثيرة، وأرض واسعة، وقد وهبت ما كانت تملكه لزوجها إبراهيم عليه السلام؛ ليقوم بإصلاحه وتنميته.

سارة عليها السلام والمحنة:

هاجر إبراهيم عليه السلام وزوجته نحو مصر وبصحبته زوجه سارة، ولما وصلا مصر علم إبراهيم عليه السلام أَنَّ جبَّار مصر يطمع في النساء، فخاف إبراهيم عليه السلام على زوجه سارة، فقال لها: إن هذا سألني عنك، فأخبرته إنّك أختي، فلا تكذبيني عنده، فإنه ليس في الأرض مسلم غيري وغيرك، وإنك أختي في كتاب الله.

وفي مصر، لَمَحَ أحد أعوان حاكمها سارة، فهب مسرعاً ودخل على الملك وقال له: يا سيدي قدمت امرأة إلى مصر لا ينبغي أن تكون إلا لك، فقال له الملك: اذهب وأحضرها.

فانطلق الرجل حتى إذا أتى سيدنا إبراهيم وزوجه ساره قال له: إنَّ

---

(١) «صفوة التفاسير»، محمد علي الصابوني. (بتصرف).

الملك أمرني بأن آخذ هذه المرأة إليه.

وحلَّت سارة قصر الملك وكان قلبها موصولاً بالله ساكناً وقوراً، وكان يملأ قلبها يقين أنَّها في رعاية رب العالمين.

فلمَّا دخل عليها الملك قالت سارة: اللهم إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرسولك، وأحصنت فرجي إلا على زوجي فلا تُسلِّط عليَّ الكافر. فلمَّا اقترب منها نزلت به رهبة زلزلته وغشيه رهق شديد وشُلت يده، توسل الجبار إلى سارة قائلاً: أيتها المرأة الصالحة ادعي ربّك أن يطلقني ولا أضرك، ولا أعود لما تكرهين.

توجهت سارة إلى ربها، ودعت الله أن يطلق يد هذا الظالم الجبار، فأُطلق، ولكن الشيطان سوّل له أن يمد يده ثانية إلى سارة زوج خليل الرحمن، فلمَّا اقترب منها شُلَّت يده بقوَّة.

عندئذٍ قال لسارة: ادعي إلهك الذي تعبدين أن يطلقني، ولا أعود، فدعت الله، فأطلقه، ثم كرر ذلك مرةً ثالثة.

وهنا نظر إليها نظرة رجاءٍ واستعطاف، وقال في خشوع: ادعي إلهك أن يطلقني ولن أعود أبداً.

ولمَّا استوثقت منه سارة، ورأت صدقه دعت الله أن يطلق يده فاستجاب الله دعاءها وأطلق يده.

وفي لحظة خشوع ورجاء قال الملك لسارة: يا هذه، ما أطوع ربك لك حين دعوته عليَّ!!

فقالت له بيقين الإيمان: وأنت يا هذا، إن أطعته أطاعك. ثم دعا الذي جاء بسارة، وقال له: أخرجها عني، فإنّك لم تأتني بإنسانة، إنما

أتيتني بشيطانة، ثم وهبها جارية اسمها هاجر.

وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام من وقت ذُهب بسارة إلى الملك قام يصلي لله عز وجل، ويسأله أن يدفع عن أهله، وأن يرد بأس هذا الذي أراد بأهله سوء، فعصم الله سارة وصانها لعصمة عبده ونبيّه وخليله إبراهيم عليه السلام [١].

زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر:

عاد سيدنا إبراهيم عليه السلام من مصر إلى فلسطين، وعادت معه سارة وفي صحبتها هاجر المصرية تخدمها، وتخدم زوجها إبراهيم عليه السلام، واستقروا جميعهم في بيت المقدس، وتمضي الأيام والسنون، وأصبحت سارة عجوزاً قد وهن العظم منها، هنا فكرت سارة أن تزوج هاجر بإبراهيم عليه السلام.

فقالت لإبراهيم: يا خليل الرحمن، هذه هاجر، أهبها لك، عسى أن يرزقنا الله منها ذرية.

وافق إبراهيم عليه السلام الزواج من هاجر، وحملت فولدت غلاماً سوياً زكياً أسموه إسماعيل.

فرحت سارة بهذا الغلام الوسيم، وقد ألقى الله محبته في قلبها، فهو ابن زوجها إبراهيم وابن جاريتها هاجر، ثم توجهت إلى ربها شاكرة حامدة، وقالت: الحمد لله الذي وهب لنا إسماعيل [٢].

---

(١) «تاريخ مدينة دمشق»، ابن عساكر. (بتصرف).
(٢) «البداية والنهاية»، ابن كثير. (بتصرف).

سارة ورُسُل الله:

كان لوط عليه السلام ابن أخي إبراهيم عليه السلام يدعو قومه إلى عبادة الله عز وجل، ويحذرهم غضب الله.

وعكف لوط يدعوهم إلى الرشاد، وألا يتبعوا شهواتهم، فاتخذوا دعوته هزوا، ولم يزدهم دعاؤه إلا فراراً، وأنذرهم فما زادهم إلا نفوراً وإعراضاً، ولمَّا ضاقوا به قالوا له مستهزئين: ﴿ ٱئْتِنَا بِعَذَابِ ٱللَّهِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٩﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

ولما يئس لوط عليه السلام من هدايتهم؛ لجأ إلى ربه وقال: ﴿ رَبِّ ٱنصُرْنِي عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ [العنكبوت: ٣٠].

وكان ذلك في سدوم قرب الأردن، أمَّا في بيت المقدس فقد كان إبراهيم وسارة وهاجر يشكرون ربّهم الذي وهب لهم إسماعيل، وكان سيدنا إبراهيم عليه السلام ينتظر من يأتي عليه من الضيوف ليحسن نزله، وكان عليه السلام يلقب بأبي الضيفان لكرمه.

وذات يوم أقدم رجال نحو خيمة إبراهيم عليه السلام، ففرح بهم فرحاً شديداً، وكذلك زوجه سارة سُرَّت بهم سروراً عظيماً، دنا الرجال من الخيمة وكانوا ثلاثة، وعندما اقتربوا من إبراهيم قالوا: سلاماً.

قال إبراهيم عليه السلام: سلام.

ثم نظر إبراهيم عليه السلام إلى ضيوفه، فرأى ضيوفاً لم يُضف مثلهم حُسناً وجمالاً، كانت وجوههم تشع بالنور، فأجلسهم إبراهيم، وأعد لهم مُتكأً، وطلب من سارة أن تعد لهم الطعام.

قَدَّمَ إبراهيم عليه السلام إلى ضيوفه عجلاً سميناً مشويًّا، وكان العجل

شهياً يسرُّ الناظرين، ويمتع الآكلين، ثم جلس ليأكل معهم، وفي ناحية الخيمة قامت سارة تخدم الضيوف، فلم يُقبل أحد من هؤلاء الضيوف، ولم تمتد يد واحد منهم إلى اللحم.

فلمَّا رأى إبراهيم أيديهم لا تصلُ إلى العجل نَكِرَهم وأوجس منهم خيفة، ثم قال لهم: ﴿إِنَّا مِنكُمْ وَجِلُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الحجر: ٥٢].

عندئذٍ كشف الضيوف عن حقيقتهم وقالوا: نحن ملائكة الله مررنا عليك، ثم طمأنوه وبشَّروه وقالوا: ﴿لَا تَخَفْ وَبَشَّرُوهُ بِغُلَامٍ عَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ [الذاريات: ٢٨].

كانت البشارة بإسحاق من زوجه العقيم سارة، ثم أخبروه أنهم أُرسِلوا إلى قوم مجرمين، قوم لوط؛ حتى يرسلوا عليهم حجارة من طين، ﴿مُسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ ﴿٣٤﴾﴾ [الذاريات: ٣٤].

سمعت سارة البشرىٰ من الملائكة الكرام، فتعجبت وقالت: عجوز عقيم!!

ثم قالت: ﴿قَالَتْ يَا وَيْلَتَىٰ أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَٰذَا بَعْلِي شَيْخًا إِنَّ هَٰذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ ﴿٧٢﴾﴾ [هود: ٧٢].

فقالت الملائكة: ﴿أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ [هود: ٧٣][1].

هجرة إسماعيل عليه السلام بابنه إسماعيل إلى مكة المكرمة:

عاشت هاجر في بداية ولادتها أياماً سعيدة، وهي قريرة العين

---

(١) «تفسير الخازن»، الخازن، و«تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

بطفلها، وبدأت تتفاخر وتعتز بهذا الولد، مما أثار الغيرة في نفس سارة، واشتدت هذه الغيرة يوماً بعد يوم، فصارت تضيق بها وبولدها، حينئذٍ طلبت سارة من إبراهيم عليه السلام أن يغيّب هاجر عنها، وناشدته بالله أن يخرجها من عندها.

وعرفت هاجر ذلك؛ فأسلمت وجهها لله رب العالمين، ورأت بعين بصيرتها أن الله لن يضيعها.

أوحى الله عزَّ وجلَّ إلى إبراهيم عليه السلام أن خُذ هاجر وابنها إسماعيل، واخرج إلى الأرض المباركة (مكة المكرمة).

أخذ إبراهيم عليه السلام هاجر ومعها ابنها إسماعيل، ونزل بوادٍ غير ذي زرع، لا ماء ولا شجر، ولا ظل ولا حياة، لم يكن بالوادي أحد من البشر، أنزل إبراهيم عليه السلام هاجر وطفلها الرضيع قرب بيت الله المحرم، وترك لهما وعاءً فيه تمر، وسقاءً فيه ماء، ثم ذهب منطلقاً إلى بيت المقدس، وتبعته هاجر.

فقالت: يا إبراهيم، أين تذهب وتتركنا في مثل هذا الوادي الذي ليس فيه إنسٌ ولا شيء؟!

لم يلتفت إبراهيم عليه السلام إليها امتثالاً لأمر الله.

كررت هاجر قولها مراراً: أين تتركنا يا إبراهيم؟!

لكن إبراهيم عليه السلام لم يُكلمها أبداً.

عاد نور الله سبحانه إلى قلب هاجر، وكان يقينها بالله أقوى من كل شيء، فقالت له: آلله أَمَرَكَ بهذا؟

قال إبراهيم عليه السلام: نعم، ربي أمرني بهذا.

وقفت هاجر وقالت في ثقة المؤمن المطمئن: إذن لا يضيّعنا الله.

ذهب عن هاجر الروع، ونزل في قلبها أمنٌ وسلام.

وقالت لزوجها: إذن لا يضيّعنا الله، فامض يا إبراهيم لِمَا أمرك به الله.

انطلق إبراهيم عليه السلام واستقبل بوجهه البيت ثم دعا ربَّه فقال: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ ٣٧﴾ [إبراهيم: ٣٧][1].

هاجر وبئر زمزم:

ترك إبراهيم عليه السلام زوجه هاجر وابنه إسماعيل، وعاد ليكمل رسالة النبوّة التي أمره الله بإبلاغها للعالمين.

جلست هاجر ترضع إسماعيل وأخذت تمدُّ عينها إلى ما حولها... السماء فوقها... الجبالُ من حولها، سَكَنَ من حولها كل شيء.

وراحت تأكل من جراب التمر، وتشرب من سقاء الماء، ونفد الماء؛ فأحست بالعطش، وعطش ابنها.

نظرت هاجر إلى ابنها وهو يتلوَّى من العطش، فراحت تمشي مسرعة تبحث عن الماء، حتى وصلت جبل الصفا، فصعدت عليه فلم تجد شيئاً ولم تر أحداً، ثم أتت جبل المروة فوقفت عليه ونظرت لترى

---

(١) «فتح الباري بشرح صحيح البخاري»، ابن حجر العسقلاني. (بتصرف).

أحداً، لكنها لم تَرَ أحداً.

وراحت هاجر تسعى بين الصفا والمروة سبع مرات، وهي تتلهفُ على رؤية أحد لعلّه ينقذ ابنها من الموت عطشاً.

ولمَّا اقتربت هاجر من جبل المروة سمعت صوتاً فتلفتت فإذا هي ترى إسماعيل يفحص الأرض بقدميه، فنبع الماء من تحتها، طارت هاجر فرحاً، واستبشرت، وجعلت تغرف من الماء تسقي ولدها وتروي نفسها[١].

قال رسول الله ﷺ: «**يرحم الله أمّ إسماعيل، لو تركت زمزم، لكانت زمزم عيناً معيناً**»[٢].

قبيلة جُرهم وهاجر:

ولمّا تفجَّر ماء زمزم لزمت الطير الوادي حين رأت الماء.

فقال بنو جرهم ـ وكانوا يسكنون بوادٍ قريب من مكة ـ: ما لزمت الطير الوادي إلا وفيه ماء، لعهدُنا بهذا الوادي وما فيه ماء! وأرسلوا واردهم ليرى الخبر.

انطلق الوارد، فنظر عن كثب فرأى الماء، وإذا بهاجر عند نبع زمزم، وتقدم رسول جرهم إلى هاجر وقال لها: أتأذنين لنا أن ننزل عندك؟

قالت: نعم، ولكن لا حقَّ لكم في الماء.

---

(١) «أخبار مكة»، الأزرقي، و«دلائل النبوة»، البيهقي. (بتصرف).
(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٣٦٤).

قال: نعم، قَبِلْنا.

وجاءت قبيلة جرهم برجالها ونسائها وأطفالها وأنعامها، وتحلَّقوا حول الماء، ومنذ ذلك اليوم دبَّت الحياة هناك، فكانوا معها حتى شبَّ إسماعيل وماتت هاجر، فتزوج إسماعيل منهم، ثم تعلَّم اللغة العربية منهم هو وأولاده.

الذبيح إسماعيل:

شبَّ إسماعيل عليه السلام، وأطاق السعي والعمل، وقد بلغ من العمر بضعة عشر عاماً.

وذات يوم نام إبراهيم عليه السلام، فرأى في المنام أنه يذبح إسماعيل، قال رسول الله ﷺ: «**رؤيا الأنبياء وحي**»(١).

عرض إبراهيم عليه السلام رؤياه على إسماعيل، فقال له: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ فَٱنظُرْ مَاذَا تَرَىٰ﴾ [الصافات: ١٠٢].

لم يرفض إسماعيل عليه السلام ذلك الأمر الربَّاني العظيم، بل لم يتردد، وإنَّما قال مطيعاً لله ولرسوله: ﴿يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٠٢﴾﴾ [الصافات: ١٠٢].

وهنا أثنى الله سبحانه وتعالى على صدق إسماعيل، فقال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ فِي ٱلْكِتَٰبِ إِسْمَٰعِيلَ إِنَّهُۥ كَانَ صَادِقَ ٱلْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولًا نَّبِيًّا﴾ [مريم: ٥٤].

في تلك اللحظات التي كان فيها إبراهيم يمتثل لأمر ربه، كان إبليس اللعين يقوم بالوسوسة لهاجر.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (١٣٨).

جاء إبليس إلى هاجر في صورة رجل، وقال لها: هل تدرين أين ذهب إبراهيم بابنك؟

قالت: ذهب به ليحتطب من هذا الشِّعب.

قال: لا والله، ما ذهب به إلا ليذبحه.

قالت: هو أرحم به وأشد حبًّا له من ذلك.

قال: إنَّه يزعم أن الله أمره بذلك.

فقالت له: إن كان ربّه أمره بذلك فحقًّا عليه أن يطيع ربَّه، وحاول إبليس كذلك أن يتعرض لإبراهيم وإسماعيل عليهما السلام ولكنه رجع بغيظه، ولم يُصب من آل إبراهيم شيئاً مما أراد.

هنا أسلم الابن البار نفسه لأبيه امتثالاً لأمر ربه.

وقال: يا أبت، اشدد رباطي حتى لا أضطرب، واكفف عني ثيابك حتى لا ينتضح عليها دمي فتراه أمي فتحزن، وإذا أتيت أمي فأقرئها مني السلام.

ثم فعل إبراهيم عليه السلام ما طلب منه ابنه، وأقبل عليه يُقبِّله وعيناه تفيضان من الحزن والدموع.

ثم إنه وضع السكين على حلقه فلم تعمل السكين شيئاً.

فقال له إسماعيل: يا أبت، كبني على وجهي حتى لا تنظر إلى وجهي فيرق قلبك فتحول بينك وبين أمر الله.

ففعل إبراهيم ذلك، ثم وضع السكين على قفاه، حينئذٍ سمع النداء يقول: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ ١٠٤ قَدۡ صَدَّقۡتَ ٱلرُّءۡيَآۚ إِنَّا كَذَٰلِكَ نَجۡزِي ٱلۡمُحۡسِنِينَ ١٠٥﴾

﴿إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْبَلَٰٓؤُا۟ ٱلْمُبِينُ ﴿١٠٦﴾ وَفَدَيْنَٰهُ بِذِبْحٍ عَظِيمٍ﴾ [الصافات: ١٠٤ ـ ١٠٧][1].

إبراهيم عليه السلام يزور ابنه إسماعيل:

تزوج إسماعيل عليه السلام من بني جُرهم وجاءه أبوه عليه السلام ليزوره فلم يجده.

فسأل امرأته عنه فقالت: خرج يبتغي لنا رزقاً.

ثم سألها إبراهيم عليه السلام عن عيشتهم وهيئتهم.

فقالت: نحن بشرٌ، نحن في ضيق وشدّة، وشكت إليه.

قال: فإذا جاء زوجك اقرئي عليه السلام، وقولي له يغيّر عتبة بابه.

وجاء إسماعيل فقال لامرأته: هل جاءكم من أحد؟

قالت: نعم، جاءنا شيخ صفته كذا وكذا، فسَألَنا عنك فأخبرته، وسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أنَّا في جهد وشدة.

قال: هل أوصاك بشيء؟

قالت: نعم، أمرني أن أقرأ عليك السلام، ويقول لكَ غيّر عتبة بابك!

قال إسماعيل: ذاك أبي وقد أمرني أن أفارقك، فالحقي بأهلك، فطلقها وتزوج منهم أخرى.

ولبث عنهم إبراهيم ما شاء، ثم أتاهم بعد، فلم يجده.

فدخل على امرأته، فسأل عنه.

---

(١) «تفسير البغوي»، البغوي. (بتصرف).

فقالت: خرج يبتغي لنا.

قال إبراهيم عليه السلام: كيف أنتم؟ وسألها عن عيشتهم وهيئتهم.

فقالت: نحن بخير وسعة، وأثنت على الله.

فقال: ما طعامكم؟

قالت: اللحم.

قال: ما شرابكم؟

قالت: الماء.

قال إبراهيم عليه السلام: اللهم بارك لهم في اللحم والماء.

فقال لها: هل عندك ضيافة؟

قالت: نعم، وجاءت له باللبن واللحم، فدعا لهما بالبركة.

ثم قال: إذا جاء زوجك، فأقرئي عليه السلام، ومريه يثبِّت عتبة بابه.

فلمَّا جاء إسماعيل عليه السلام قال: هل أتاكم من أحد؟

فقالت: نعم، أتانا شيخ حسن الهيئة، وأثنت عليه، فسألني عنك، فأخبرته، فسألني كيف عيشنا؟ فأخبرته أننا بخير.

قال: أوصاك بشيء؟

قالت: نعم، هو يقرأ عليك السلام، ويأمرك أن تثبت عتبة بابك.

قال: ذاك أبي، وأنت العتبة، أمرني أن أمسكك[1].

---

(١) «صحيح قصص الأنبياء»، ابن كثير. (بتصرف).

بناء البيت الحرام:

أمر الله سبحانه وتعالى خليله إبراهيم عليه السلام أن يبني لله بيتاً يحجُّ إليه الناس من كلِّ فجٍّ عميق، وقد هداه الله إلى مكانه وحدَّده له.

حينئذٍ قال إبراهيم عليه السلام لابنه إسماعيل: إن الله أمرني أن أبني له بيتاً.

قال إسماعيل: فأطع ربك.

فقال إبراهيم: وقد أمرك الله أن تعينني على بنائه.

قال: إذاً أفعل.

فجعل إسماعيل يأتي بالحجارة وإبراهيم يبني، حتى إذا ارتفع البناء جاء بحجر فوضعه لأبيه، فقام عليه وهو يبني وإسماعيل يناوله.

هذا الحجر هو مقام إبراهيم:

ثم قال إبراهيم عليه السلام لإسماعيل: ائتني بحجر حسن أضعه على الركن فيكون للناس علماً، فأخبره جبريل بالحجر الأسود فأخذه ووضعه في موضعه.

وهكذا تعاون إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام حتى رفعا قواعد البيت وأتمَّا بناءه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَٰهِـۧمُ ٱلْقَوَاعِدَ مِنَ ٱلْبَيْتِ وَإِسْمَٰعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّآ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾﴾ [البقرة: ١٢٧].

ثم أمر الله سبحانه إبراهيم عليه السلام بأن يؤذِّن في الناس بالحج حيث قال تعالى: ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِّيَشْهَدُوا۟ مَنَٰفِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ فِى

أَيَّامٍ مَّعْلُومَٰتٍ عَلَىٰ مَا رَزَقَهُم مِّنۢ بَهِيمَةِ ٱلْأَنْعَٰمِ﴾ [الحج: ٢٧، ٢٨].

فأذَّن إبراهيم عليه السلام بالحج، ولبَّى الناس نداءه، وأصبح البيت الحرام منذ ذلك الحين مثابةً للناس وأمناً[١].

قال رسول الله ﷺ: «**إن إبراهيم حرَّم مكة ودعا لها، وحرَّمت المدينة كما حرَّم إبراهيم مكة، ودعوت لها في مدها وصاعها مثل ما دعا إبراهيم عليه السلام لمكة**»[٢].

وفاة إبراهيم عليه السلام:

لمَّا حضرت الوفاة إبراهيم عليه السلام كان له من العمر مائة وخمس وسبعين سنة.

وحين مات دفنه ابناه إسماعيل وإسحاق عند قبره سارة عليها السلام في مزرعة حيرون (البلد المعروف بالخليل اليوم).

* * *

(١) «الكامل في التاريخ»، ابن الأثير. (بتصرف).
(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٢١٢٩)، وأخرجه مسلم في «صحيحه»: (١٣٦٠).

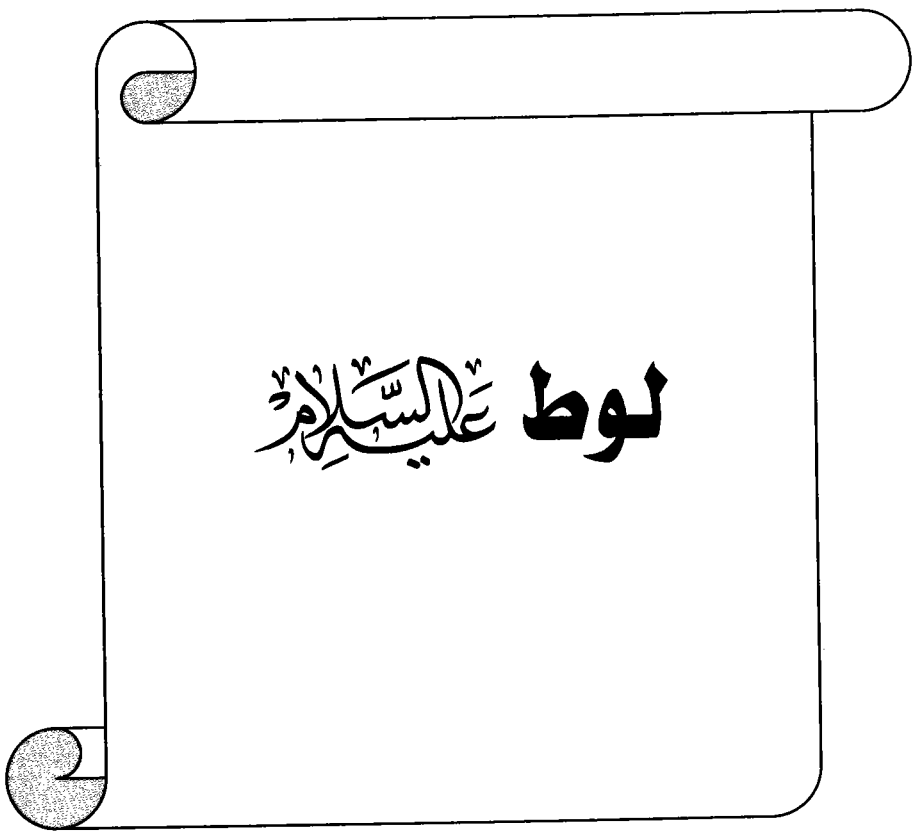
لوط عليه السلام

لـوط عليه السلام

هو عليه السلام لوط بن هاران بن آزر، وهو ابن أخي إبراهيم الخليل عليه السلام.

وهو أول من صدَّق بإبراهيم لما جعلت النار عليه برداً وسلاماً، وهاجر معه إلى بلاد الشام.

قال تعالى: ﴿ ۞ فَـَٔامَنَ لَهُۥ لُوطٌ وَقَالَ إِنِّي مُهَاجِرٌ إِلَىٰ رَبِّيٓ ۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٢٦﴾ ﴾ [العنكبوت: ٢٦].

ولوط عليه السلام من أنبياء الله الذين أرسلهم إلى أقوامهم ليخرجوهم من ظلمات الفاحشة إلى نور الأخلاق الفاضلة.

فساد قوم لوط:

كان أهل مدينة سدوم بالأردن من أفجر الناس وأكفرهم، وكانوا ذوي أخلاق فاسدة ونوايا سيئة، لا يتعففون عن معصية ولا يتناهون عن منكر فعلوه، وكانوا يقطعون الطريق، ويخونون الرفيق، وكانوا قد ابتدعوا من المنكرات ما لم يسبقهم إليه أحد من خلق الله، وذلك أنهم كانوا يأتون الذُّكران من العالمين شهوة من دون النساء، يستعلنون بذلك ولا يتسترون.

قال الوليد بن عبدالملك: لولا أن الله تعالى قصَّ علينا خبر قوم لوط ما ظننت أن ذكراً يعلو ذكراً.

لوط عليه السلام يدعو قومه:

دعا لوط عليه السلام قومه إلى الإيمان، وخوّفهم عذابَ الله وحثَّهم على ترك ما هم عليه من المعاصي والمنكرات، فقال لهم: ﴿إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١٦٢﴾ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿١٦٣﴾ وَمَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٤﴾ أَتَأْتُونَ الذُّكْرَانَ مِنَ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٥﴾ وَتَذَرُونَ مَا خَلَقَ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ ۚ بَلْ أَنْتُمْ قَوْمٌ عَادُونَ ﴿١٦٦﴾﴾ [الشعراء: ١٦٢ ـ ١٦٦].

ولكن قومه لم يستجيبوا لدعاء نبيهم لوط عليه السلام، بل هددوه قائلين: ﴿لَئِنْ لَمْ تَنْتَهِ يَا لُوطُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمُخْرَجِينَ ﴿١٦٧﴾﴾ [الشعراء: ١٦٧].

ومرَّت السنون ولوط عليه السلام يدعوهم إلى الهداية، وتأبى قلوبهم ذلك.

وكان لوط عليه السلام يقول لهم بأنهم يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام، والنَّار مثوىً لهم، فما كان يزيدهم ذلك إلا كفوراً وفجوراً وفُحشاً[1].

خيانة امرأة لوط عليه السلام:

كانت امرأة لوط تعرف أن قومها قد غمرهم الكفر والفساد، مع ذلك كانت عوناً وعيناً لهم على زوجها، فكانت تفشي سره وتعاديه في دينه، وكانت تدلُّ قومه على أضيافه بطريقة لئيمة، وذلك كان إذا نزل الضيف عنده بالليل، أوقدت النار إذا لم تستطع إخبارهم، وأما إذا نزل الضيف بالنهار ولم تستطع الخروج لتخبرهم بالضيف دخنت ليعلم

---

(١) «مروج الذهب»، المسعودي. (بتصرف).

قومه أنَّه نزل به ضيف إذا رأوا الدخان، فيأتون إلى بيت لوط عليه السلام ليسخروا ويهزءوا بضيوفه[١].

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا وَقِيلَ ٱدْخُلَا ٱلنَّارَ مَعَ ٱلدَّٰخِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [التحريم: ١٠].

إبراهيم عليه السلام يجادل في قوم لوط:

كان الملائكة الكِرام وهم: جبريل وميكائيل وإسرافيل، قد جاءوا إبراهيم عليه السلام، وبشَّروه بإسحاق، ثم أخبروه أنّهم جاءوا ليهلكوا أهل قرية سدوم الذين ظلموا أنفسهم، فقالوا له: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ﴾ [العنكبوت: ٣١].

ولكن إبراهيم عليه السلام أخذ يجادل في قوم لوط، فقد كان يرجو أن ينيبوا إلى ربهم ويسلموا له.

قالت الملائكة لإبراهيم: ﴿إِنَّا مُهْلِكُوٓا۟ أَهْلِ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ۖ إِنَّ أَهْلَهَا كَانُوا۟ ظَٰلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [العنكبوت: ٣١].

قال إبراهيم: أرأيتم إن كان فيها خمسون من المسلمين؟

قالوا: وإن كان فيهم خمسون لن نعذبهم.

فقال إبراهيم: وإن كان فيهم أربعون؟

قالوا: وأربعون.

قال إبراهيم: وإذا كان فيهم ثلاثون؟!

---

(١) «التفسير الكبير»، الرازي، و«تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

قالوا: وإن كان فيهم ثلاثون فلن نعذبهم.

فقال إبراهيم عليه السلام: وإذا وجد فيهم عشرون مسلماً؟!

فقالت الملائكة: وعشرون يا إبراهيم، لن نعذبهم.

قال: وعشرةٌ من المسلمين؟

قالوا: وإن كانوا عشرة لن يهلكوا.

هنا قال إبراهيم عليه السلام: ما من قوم لا يكون فيهم عشرة من المسلمين ليس فيهم خير.

وراح رسل الله يؤكدون لخليل الرحمن أن قوم لوط ليس فيهم عشرة من المؤمنين.

جاء الأمر الإلهي يرد على مجادلة إبراهيم عليه السلام قائلاً: ﴿يَٰٓإِبۡرَٰهِيمُ أَعۡرِضۡ عَنۡ هَٰذَآۖ إِنَّهُۥ قَدۡ جَآءَ أَمۡرُ رَبِّكَۖ وَإِنَّهُمۡ ءَاتِيهِمۡ عَذَابٌ غَيۡرُ مَرۡدُودٖ ٧٦﴾ [هود: ٧٦].

الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام:

تركت الملائكة إبراهيم عليه السلام، وهم قاصدون قوم لوط بأرض سدوم، وأقبلوا في صورة شبّانٍ حسان، ولما بلغوا قرية لوط، خشي لوط عليه السلام إن لم يضيفهم أن يضيفهم غيره، وحسبهم بشراً من الناس، وخاف من عاقبة الأمر، فهو يعرف فسق قومه، أخذ لوط عليه السلام ضيوفه وكان يمشي معهم وهو خائف يترقب فسأله ضيوفه عمّا يريبه.

أجاب: أشهد أن أهل هذه القرية شرّ قرية في الأرض عملاً، أشهد أنهم أهل سوء وفسادٍ وخبث.

وصل لوط عليه السلام وضيوفه إلى بيته، ولم يكن هناك في القرية من يعلم بقدوم هؤلاء غير لوط وامرأته وابنتيه، وكان اسمهما: (ريثا ورغوثا).

رأت امرأة لوط هؤلاء الضيوف، فجُنَّ جُنونها، ماذا تفعل لتخبر قومها؟!

أشعلت امرأة لوط ناراً ليعلم أهل القرية بخبر الضيوف، ثم تسلّلت إلى قومها في ناديهم.

فقالت لهم: إني رأيتُ رجالاً لم أرَ أحسن منهم وجوهاً، وهم عند لوط الآن.

ثم انتقلت إلى آخرين، وقالت لهم: إن لوطاً قد أضاف الليلة فتيةً ما رؤي مثلهم جمالاً، ولا أطيب رائحة، فأسرعوا قبل أن يرتحلوا.

جاء قومه يهرعون إليه يركبهم شيطان الفجور، فعرف لوط عليه السلام ما يريد هؤلاء الفجار.

وقف القوم على باب لوط فقالوا: يا لوط أولم ننهك عن استقبال الضيوف؟! ألا تعلم ما نريد؟!

فقال لهم لوط: ﴿هَٰٓؤُلَآءِ بَنَاتِيٓ هُنَّ أَطۡهَرُ﴾ [هود: ٧٨].

فأجابوه قائلين: ﴿لَقَدۡ عَلِمۡتَ مَا لَنَا فِي بَنَاتِكَ مِنۡ حَقّٖ وَإِنَّكَ لَتَعۡلَمُ مَا نُرِيدُ ٧٩﴾ [هود: ٧٩].

هنا أراد قوم لوط أن يقتحموا البيت ويدخلوا لضيوفه، ولوط عليه السلام يمانع قومه الدخول إلى بيته.

وفي تلك اللحظة أفهمت الملائكة لوط عليه السلام أنهم رُسُل الله،

فقالوا له: ﴿يَٰلُوطُ إِنَّا رُسُلُ رَبِّكَ لَن يَصِلُوٓاْ إِلَيْكَ﴾ [هود: ٨١].

حينئذٍ هدأت نفس لوط عليه السلام واطمأن على ضيوفه[١].

هلاك قوم لوط عليه السلام:

جاءت الأوامر الإلهية من الله عز وجل بأن يسري لوط بأهله في آخر الليل، وذكرته الملائكة بامرأته الكافرة الظالمة بأنّه سيصيبها ما أصاب قومها، فلا تَسْرِ بها. لقد أسرفت وتجاوزت فحقَّ عليها القول.

قال تعالى للوط عليه السلام: ﴿فَأَسْرِ بِأَهْلِكَ بِقِطْعٍ مِّنَ ٱلَّيْلِ وَلَا يَلْتَفِتْ مِنكُمْ أَحَدٌ إِلَّا ٱمْرَأَتَكَ ۖ إِنَّهُۥ مُصِيبُهَا مَآ أَصَابَهُمْ ۚ إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ ۚ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ ﴿٨١﴾﴾ [هود: ٨١].

سار لوط عليه السلام وابنتاه في السحر، وما أن ابتعد عن القرية قليلاً أرسل الله عز وجل جنوده لينفّذوا المهمة التي أُوكلت إليهم.

هنا نشر جبريل عليه السلام جناحه فانتسف بها أرضهم بما فيها من قصورها ودوابها وشجرها وجميع ما فيها، فضمها في جناحه، ثم صعد بها إلى السماء الدنيا حتى سمع سكان السماء أصوات الناس والكلاب، وكانوا أربعة آلاف ألف، ثم قلبها فأرسلها إلى الأرض منكوسة، فجعل عاليها سافلها، ثم أتبعها حجارة من سجيل[٢].

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَ أَمْرُنَا جَعَلْنَا عَٰلِيَهَا سَافِلَهَا وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهَا حِجَارَةً مِّن سِجِّيلٍ مَّنضُودٍ ﴿٨٢﴾ مُّسَوَّمَةً عِندَ رَبِّكَ ۖ وَمَا هِىَ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ بِبَعِيدٍ ﴿٨٣﴾﴾ [هود: ٨٢، ٨٣].

---

(١) «البداية والنهاية»، ابن كثير. (بتصرف).

(٢) «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

وجعل الله مكان تلك البلاد بحيرة منتنة لا ينتفع بمائها، ولا بما حولها من الأرض، لرداءتها وهي التي تعرف الآن بالبحر الميت أو بحيرة لوط، وهي أخفض منطقة على سطح الأرض.

وفاة لوط عليه السلام:

مكث لوط عليه السلام في مدينة الخليل عند عمه إبراهيم عليه السلام، وتوفي عليه السلام فيها، ودفن في قرية تسمى (كفر البريك) بجوار مسجد الخليل عليه السلام.

* * *

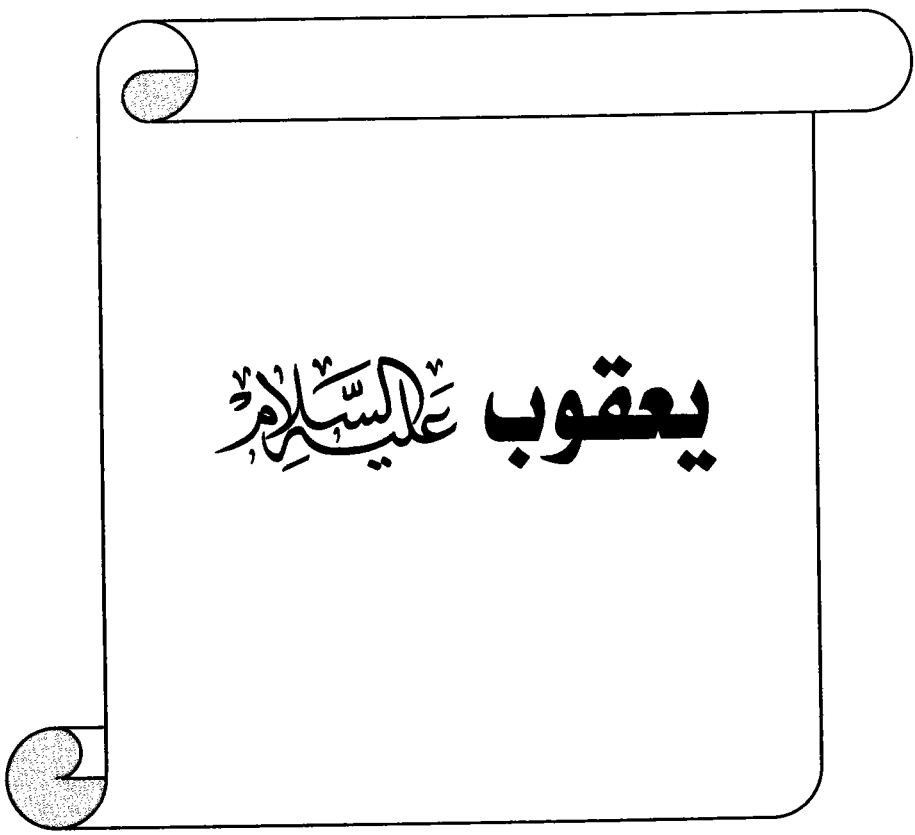
يعقوب عليه السلام

يعقــوب عليه السلام

هو يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

وُلِد عليه السلام في أرض الكنعانيين (فلسطين)، وترعرع في كنف أبيه إسحاق.

وأمه هي رفقة بنت بتوئيل تزوجها إسحاق وعمره أربعون سنة، وكانت عاقراً، فدعا الله لها، فحملت، فولدت غلامين توأمين، أولهما اسمه عيصو، وهو الذي تسميه العرب العيص، وهو والد الروم، والثاني يعقوب عليه السلام، وهو إسرائيل الذي ينتسب إليه بنو إسرائيل.

زواج يعقوب عليه السلام من ابنتا خاله:

خرج يعقوب عليه السلام من فلسطين، وقدم على خاله (لابان) بأرض حاران في العراق، وأقام عنده يخدمه نظير تزويجه بابنته (راحيل)، ولكن خاله زف إليه ابنته الكبرى (ليئه).

فلما أصبح كلمه في ذلك وقال له: إنما خطبت إليك راحيل، وكانت أحسنهما وأجملهما.

فقال له خاله: ليس من سنتنا أن تزفّ الصغرى قبل الكبرى، فإن أحببت أختها فاعمل سبع سنين أخرى وأزوّجكها.

فعمل يعقوب عليه السلام سبع سنين، فتزوج من راحيل، وأدخلها عليه مع أختها، وكان ذلك جائزاً في هذا الوقت.

فوهب لليئه بنته الكبرى جارية اسمها (زلفا)، ووهب لبنته الصغرى راحيل جارية اسمها (بلهه).

ثم وهبت كل واحدة منهما بعد ذلك جاريتها ليعقوب عليه السلام، وبذلك صار ليعقوب عليه السلام أربع زوجات رُزق منهم باثني عشر ولداً[١].

أولاد يعقوب عليه السلام:

كان ليعقوب عليه السلام من الأولاد اثنا عشر ولداً ذكراً.

فمن زوجته ليئة رُزق: روأبين، وشمعون، ولاوي، ويهوذا، ويساكر، وزبولون.

ومن زوجته راحيل رُزق: يوسف، وبنيامين.

ومن زوجته بلهه رُزق: دان، ونفتالي.

ومن زوجته زُلفا رُزق: جاد، وأشير.

وقد أصبح كل واحد من أولاد يعقوب عليه السلام أباً لسبط (قبيلة) من أسباط بني إسرائيل.

فجميع بني إسرائيل انحدروا وتناسلوا من أولاد يعقوب عليه السلام، وقد ظهرت في هذه الأسباط النبوة على الشكل التالي:

سبط لاوي بن يعقوب ظهرت فيهم النبوة في: (موسى، وهارون، وإلياس، واليسع، وشعيب).

وسبط يهوذا ظهرت فيهم النبوة في: (داود، وسليمان، وزكريا، ويحيى، وعيسى).

وسبط بنيامين ظهرت فيهم النبوة في: (يونس).

ولقد كان يعقوب عليه السلام ينادي بالتوحيد كآبائه إبراهيم وإسماعيل وإسحاق، وجاء ذلك في قوله تعالى: ﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ

---

(١) «قصص الأنبياء»، حسن أيوب. (بتصرف).

حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾ [البقرة: ١٣٣].

وفاة يعقوب عليه السلام:

أقام يعقوب عليه السلام بمصر بعد قدوم أهله وأولاده أربعاً وعشرين سنة في أحسن حال وأرغد عيش وأتم راحة، وكان قد ردَّ الله عليه بصرة، بعد أن اجتمع بعد طول غياب وشدة حزن وألم على ولده (يوسف).

ولما حضرته الوفاة جمع بنيه وقال لهم: ﴿مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٣﴾﴾.

ثم قال لهم: ﴿يَٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٣٢﴾﴾.

ثم أوحى إلى يوسف عليه السلام أن يحمل جسده إلى الأرض المقدسة؛ حتى يدفنه عند أبيه إسحاق وجده إبراهيم عليهما السلام، ففعل ذلك ونقله إلى بيت المقدس في تابوت، وخرج معه يوسف في جنده وإخوته وعظماء مصر، ودفنه عند إسحاق في المغارة بجبرون (مدينة الخليل)، صلوات ربي وسلامه عليهم أجمعين، ووافق ذلك يوم وفاة أخيه العيص فدفنا في يوم واحد وكان عمرهم جميعاً مائة وسبعة وأربعين سنة؛ لأنهما ولدا في بطن واحدة ودفنا في قبرٍ واحد[1].

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك»، الطبري. (بتصرف).

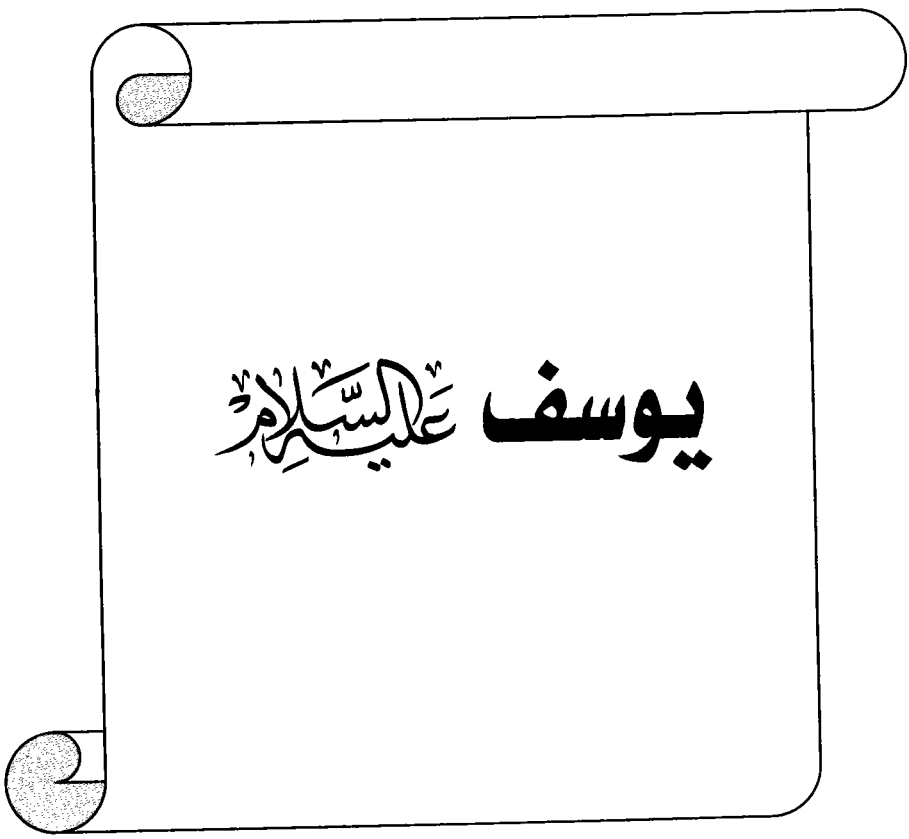
يوسف عليه السلام

يوسف عليه السلام

هو يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام.

وهو الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم؛ لقول رسول الله ﷺ: «**الكريم بن الكريم بن الكريم بن الكريم، يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم عليه السلام**»(١).

وسئل رسول الله ﷺ عن أكرم الناس؟ فقال: «**يوسف نبي الله ابن نبي الله ابن نبي الله ابن خليل الله**»(٢).

وكان يوسف عليه السلام الابن الثاني عشر ليعقوب، فكان أصغرهم سناً، وأجملهم طلعة.

نشأ يوسف عليه السلام في حضن أبيه يعقوب عليه السلام، وكان أبوه يختصه بحب عميق وحنان كبير، ويؤثره على بنيه جميعاً؛ لما يرى فيه من صدق ومميزات لا تتوفر في سائر إخوته.

ولم يستطع يعقوب عليه السلام أن يخفي حبه العميق ليوسف عن إخوته الآخرين، فغاظهم ذلك، وملأ قلوبهم بالحقد على أخيهم والحسد له.

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٣٩٠).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٣٠٣)، ومسلم في «صحيحه»: (٢٣٧٨).

رؤيا يوسف عليه السلام :

لقد رأى يوسف عليه السلام في المنام كأن أحد عشر كوكباً والشمس والقمر قد مثلوا في حضرته، وسجدوا له خاضعين، فأسرع إلى أبيه يقص عليه هذه الرؤيا العجيبة، ففرح يعقوب بولده، وعرف ما تشير إليه هذه الرؤيا من النعمة الكبرى لابنه، وهي نعمة العلم والحكمة والإيمان، وأنه سيكون له شأن عند الله وعند الناس، ولكنه خاف عليه من حسد إخوته، فأوصاه أن لا يقصص على إخوته رؤياه حتى لا يثير حقدهم عليه[1].

وإلى ذلك يشير الله عز وجل بقوله: ﴿ إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤ قَالَ يَٰبُنَيَّ لَا تَقْصُصْ رُءْيَاكَ عَلَىٰٓ إِخْوَتِكَ فَيَكِيدُوا۟ لَكَ كَيْدًا ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوٌّ مُّبِينٌ ۝٥ وَكَذَٰلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ وَعَلَىٰٓ ءَالِ يَعْقُوبَ كَمَآ أَتَمَّهَا عَلَىٰٓ أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ ۚ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ۝٦ ۞ لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ ﴾ [يوسف: ٤ ـ ٧].

يوسف عليه السلام وإخوته:

رأى أبناء يعقوب من إيثار أبيهم ومحبته ليوسف وأخيه الشقيق بنيامين ما لم يكن لواحد منهم، وهم حسب زعمهم عصبة قوية تقدم من الخير والمنفعة لأبيها أكثر منهما.

فأخذوا يعدون أنفسهم لعمل يشفي صدورهم العليلة، وقلوبهم

---

(١) «تاريخ الأنبياء»، محمد الطيب النجار. (بتصرف).

الحاقدة، فالبعض يرى قتله والتخلص منه، والبعض الآخر يرى إبعاده عن موطنه إلى بلد بعيد لا يستطيع الرجوع منها إلى أهله.

ثم انتهوا أخيراً إلى رأي يتحقق فيه غرضهم وهو إلقاؤه في بئر لا يستطيع الخروج منه، فهو إمّا أن يموت قبل أن ينقذه أحد، وإمّا أن يلتقطه بعض السيَّارة فيأسروه ليبيعوه.

وهنا يجسِّد الله سبحانه وتعالى ما كان يفكر فيه إخوة يوسف فيقول: ﴿إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٨﴾ ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ﴿٩﴾ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾﴾ [يوسف: ٨ ـ ١٠].

ذهبوا إلى أبيهم وراحوا يحتالون لأخذ يوسف معهم، فقالوا له: ﴿يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾ أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾﴾ [يوسف: ١١، ١٢]، فأجابهم والدهم بأنه يحزنه أن يبتعد عن يوسف لتعلق قلبه به، ويخاف إذا أمنهم عليه أن يأكله الذئب وهم في غفلة عنه.

فأقسموا لأبيهم بأنه لن يحصل له ما يكره ولئن أكله الذئب وهم جماعة كثيرة يكون في ذلك عار عليهم وخسران مبين.

وهكذا أخذوا يحتالون على أبيهم، ويتوسلون إليه، فوافقهم على ما يريدون وسلم إليهم أخاهم، وزودهم بنصائحه، تاركاً الأمر كله لله وحده يفعل بهم جميعاً ما يشاء.

يوسف عليه السلام في البئر:

أذن يعقوب عليه السلام لأولاده باصطحاب يوسف معهم، وسولت لهم نفوسهم الخبيثة الإقدام على جريمتهم المنكرة، فنفذوا مؤامرتهم ووضعوه على صخرة في قعر البئر حتى لا يستطيع الخروج وحده، وحينئذٍ قذف الله في قلب يوسف بأنه سيخلصه مما هو فيه، وسيأتي يوم يخبر فيه إخوته بما فعلوه به وهم ماثلون أمامه يحتاجون له يعرفهم ولا يعرفونه، فقال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾ [يوسف: ١٥].

رجع إخوة يوسف في المساء يظهرون الحزن ويرفعون أصواتهم بالبكاء، فقالوا: ﴿يَٰٓأَبَانَآ إِنَّا ذَهَبْنَا نَسْتَبِقُ وَتَرَكْنَا يُوسُفَ عِندَ مَتَٰعِنَا فَأَكَلَهُ ٱلذِّئْبُ ۖ وَمَآ أَنتَ بِمُؤْمِنٍ لَّنَا وَلَوْ كُنَّا صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾ [يوسف: ١٧].

ثم أبرزوا لأبيهم قميص يوسف وقد تلوث بالدم، ولكن عند معاينته تبين له كذبهم، وأن هذا الدم ليس من ولده لعدم تمزق القميص، فقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾﴾ [يوسف: ١٨].

واستدلَّ يعقوب على كذبهم بصحة القميص، وقال لهم: متى كان هذا الذئب رحيماً، يأكل يوسف ولا يخرق قميصه[١].

يوسف عليه السلام في بيت عزيز مصر:

ساق الله سبحانه وتعالى الفرج إلى يوسف عليه السلام من أيسر

---

(١) «فتح البيان». بتصرف.

طريق، حيث جاءت قافلة تقصد مصر، وأرادت أن تستقي، فأرسلوا أحدهم ليأتي لهم بالماء من البئر، فلمّا أدلى دلوه تعلق به يوسف حتى خرج من البئر.

وتجمعت القافلة لترى هذا الغلام الجميل، ففرحوا به، وقالوا: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾ [يوسف: ١٩].

وحينما وصلوا إلى مصر، باعوه بدراهم قليلة للتخلص معه خشية أن يدركهم أحد فينتزعوه منهم، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: ٢٠].

وكان الذي اشتراه وزير الملك ويسمى العزيز، فأرسله إلى بيته وأوصى امرأته (زليخا) به خيراً، وقال لها: ﴿أَكۡرِمِي مَثۡوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوۡ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدٗاۚ﴾ [يوسف: ٢١].

امرأة العزيز تراود يوسف عليه السلام:

مرت الأيام بيوسف عليه السلام وهو في بيت العزيز يعيش في نعمة، وجو آمن مملوء بالرحمة والحنان.

حتى جاء دور الشيطان ونزغاته، فتعرضت له امرأة العزيز، وأخذت تغريه بنفسها، ليبادلها الحب، فعرضت عليه محاسنها ومفاتنها، وتغلق الأبواب، وتخلو إلى يوسف، وتناديه بصوت الفتنة الملحة قائلة: ﴿هَيۡتَ لَكَۚ﴾.

وفي هذا الوقت العصيب يتجلى إيمان يوسف، فيبدد كل ما صنع الشيطان، ويضيء له طريق النجاة، حيث يرد عليها قائلاً: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِۖ إِنَّهُۥ رَبِّيٓ أَحۡسَنَ مَثۡوَايَۖ إِنَّهُۥ لَا يُفۡلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ٢٣﴾ [يوسف: ٢٣].

أسرع يوسف إلى الباب هرباً يريد الإفلات منها، وأسرعت وراءه فأدركته قبل أن يخرج، وجذبت قميصه من الخلف لتمنعه من الخروج فتمزّق في يدها، واستطاع أن يفلت منها ويصل إلى الباب وهي تعدو وراءه حتى فتح الباب، فكانت المفاجأة المذهلة، حيث وجدا سيدها وزوجها وراء الباب.

حينئذٍ افترت على يوسف بالكذب، واتهمته بأنه كان يريد بها السوء، وقالت على الفور لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾ [يوسف: ٢٥].

فكان لابدَّ ليوسف عليه السلام بعد هذا البهتان العظيم أن يدفع الشر عن نفسه، وهو البريء الذي سما بإيمانه إلى أعلى درجات الطهر والعفاف، والوفي الذي عرف واجبه نحو سيده، فحفظ عرضه ولم يدنس شرفه، ومن أجل ذلك دفع التهمة عن نفسه قائلاً: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾ [يوسف: ٢٦]، ودبَّرت الحيلة للإيقاع بي، ومزَّقت قميصي وأنا أفرّ منها.

هنا دهش العزيز لما رآه وتحيَّر في أمره.

هل يصدق يوسف ويكذب امرأته، وهي التي لم يعرف عنها قبل ذلك إلا العفَّة والوفاء، والتي عاشت معه سنوات طويلة وكانت موضع ثقته وتقديره؟

أو يصدق امرأته ويكذب يوسف، وهو الذي لم يجرب عليه خيانة، أو يرَ منه انحرافاً يخدش الطهر والعفاف؟

لقد أراد الله أن يظهر الحق بشهادة شاهد من أهلها كان قد حضر

في صحبة زوجها، وكانت له فراسة صادقة، فقال: ﴿إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: ٢٦، ٢٧].

فكشف العزيز عن القميص فعرف الحقيقة، واتضحت له براءة يوسف، وهذا بيَّنه الله سبحانه وتعالى في قوله: ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: ٢٨].

ثم طلب العزيز من زوجته أن تستغفر إلى الله من هذا الذنب العظيم الذي فعلته، والخطيئة التي ارتكبتها قائلاً: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِى لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: ٢٩][1].

مكر النسوة ودهاء امرأة العزيز:

شاع بين نساء المدينة أن ﴿ٱمْرَأَتُ ٱلْعَزِيزِ تُرَٰوِدُ فَتَىٰهَا عَن نَّفْسِهِۦ قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا﴾ [يوسف: ٣٠] وأنها من أجل ذلك في ضلال مبين؛ لأنها قد لوَّثت شرفها وشرف زوجها، وعرَّضت كرامتها وكرامته للدمار.

وصل إلى سمع امرأة العزيز اغتياب هؤلاء النسوة لها وسوء كلامهن، فقررت أن تريهن يوسف ليلتمسن العذر لها من شغفها به، فاستضافتهن يوماً، وهيَّأت لهن مكاناً يجلسن فيه.

وبعد أن استقرَّ المقام بالمدعوَّات، أمرت جواريها بإعداد الطعام، وأحضرت إليهن من الفواكه ما يحتاج إلى القطع بالسكين، وأعطت لكل واحدة منهن سكيناً لتقطيع تلك الفواكه.

---

(١) «البداية والنهاية»، ابن كثير. (بتصرف).

ثم قالت ليوسف: اخرج عليهن، فخرج يوسف ومرَّ عليهن، فاهتزت نفوسهن إكباراً لما رأين في يوسف من جمال رائع، وزاغت أبصارهن، فغفلت عما يمسكنه من السكاكين، فقطعن أيديهن بدلاً من تقطيع الفواكه، دون وعي أو شعور، وقُلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾﴾ [يوسف: ٣١].

وهنا تعترف امرأة العزيز بما وقع منها وقالت: ﴿فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ ۖ وَلَقَدْ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ فَٱسْتَعْصَمَ ۖ وَلَئِن لَّمْ يَفْعَلْ مَآ ءَامُرُهُۥ لَيُسْجَنَنَّ وَلَيَكُونًا مِّنَ ٱلصَّٰغِرِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [يوسف: ٣٢].

وفي هذا الوقت المشتعل بالفتنة لجأ يوسف عليه السلام إلى الله مستعيناً بقوته، راجياً منه وحده العون على التخلُّص مما يحيط به، فقال: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ ۖ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [يوسف: ٣٣].

فاستجاب الله عز وجل له فصرف عنه المعصية إنه هو السميع البصير[1].

قال تعالى: ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: ٣٤].

يوسف عليه السلام في السجن:

انتشر خبر امرأة العزيز مع يوسف في أرجاء المدينة، رأى العزيز أنه لا يخلصهم من العار ولا يكف ألسنة السوء عنهم إلا زج يوسف في

---

(١) «تفسير المراغي»، أحمد المراغي، «تفسير القاسمي»، القاسمي. (بتصرف).

السجن لإلصاق التهمة به، وهو البريء الذي لم يقترف ذنباً، ولم يرتكب خطيئة.

ولقد كان هذا السجن ابتلاءً جديداً ليوسف، تذوَّق فيه جمال الصبر، فازدادت روحه صفاءً وسموًّا بعيداً عن غدر الناس وخيانتهم ومكرهم، وازداد إلى الله قرباً.

يوسف يدعو الله في السجن:

دخل يوسف عليه السلام السجن وكان معه في السجن فتيان، أحدهما كان رئيس السقائين لدى الملك واسمه (نبو)، وكان الآخر رئيس الخبازين واسمه (ملحب)، وقد عرفا أن يوسف شاب كريم عفيف، وأنّه عنده علم عظيم، فكان موضع سرّهما واطمئنا إليه، وكان كلاهما قد رأى في نومه رؤيا.

فقد رأى رئيس السقائين في المنام أنه يعصر العنب في كأس سيده، وسيده يشرب من هذا العصير.

ورأى رئيس الخبازين أنه يحمل فوق رأسه خبزاً، وأن الطير تأكل من هذا الذي يحمله.

طلب هذان الفتيان من يوسف تفسير هذين الحلمين، وذلك بعد أن لمسا فيه العلم بتفسير الرؤى، وما اتصف به من التُّقى والإحسان، هنا اغتنم يوسف عليه السلام فرصة إعجاب السجناء به واحترامهم له، فأخذ يدعوهم إلى دين الله الواحد مبيناً بطلان الإشراك بالله، وأخذ يقول لهما: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجۡنِ ءَأَرۡبَابٞ مُّتَفَرِّقُونَ خَيۡرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلۡوَٰحِدُ ٱلۡقَهَّارُ ﴿٣٩﴾ مَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسۡمَآءٗ سَمَّيۡتُمُوهَآ أَنتُمۡ وَءَابَآؤُكُم مَّآ

أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ ۚ إِنِ ٱلْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ ۚ أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٠﴾ [يوسف: ٣٩، ٤٠].

ثم أجابهم بما ألهمه الله، مبشراً أولهما وهو الساقي بأنه سيعود إلى قصر الملك، ويتولى رئاسة السقائين كما كان، وأما الآخر وهو الخباز فإنه سيحكم عليه الملك بالقتل، وسيصلب، وتأتي الطير لتأكل من رأسه.

قال تعالى على لسان يوسف عليه السلام: ﴿ يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا ۖ وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦ ۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ ﴿٤١﴾ [يوسف: ٤١].

وحينما بشر يوسف رئيس السقائين بما ينتظر ورجوعه إلى قصر الملك تحققت البشرى، فصدر الأمر بإطلاقه من السجن، ورجوعه إلى عمله في قصر الملك، قال له يوسف: ﴿ ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ فَلَبِثَ فِى ٱلسِّجْنِ بِضْعَ سِنِينَ ﴿٤٢﴾ [يوسف: ٤٢][1].

رؤيا الملك:

بعد تلك السنين التي قضاها يوسف في السجن، أراد الله سبحانه وتعالى الفرج ليوسف وأن يخرجه من السجن.

فقد رأى الملك وهو (الريان بن الوليد) الذي كان العزيز وزيراً له، رأى في منامه سبع بقرات سمان قد طلعت من النهر، وأخذت ترتفع في روضة إلى جواره، ثم رأى سبع بقرات أخرى هزيلة، قد خرجت

(١) «قصص الأنبياء»، عبدالوهاب النجار. (بتصرف).

من النهر وأكلت البقرات السمينة، ورأى أيضاً سبع سنابل خضراء حسنة طالعة في ساق واحد، قد ظهرت بعدها سبع سنابل يابسة أخذت تلتهمها حتى أتت عليها.

فلمَّا أصبح الملك دعا مَن في مملكته مِن العلماء والمفكرين، وطلب منهم تأويل هذه الرؤيا، فأجابوه قائلين: ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [يوسف: ٤٤].

خروج يوسف عليه السلام من السجن:

في الوقت الذي ضاق فيه صدر الملك بمن حوله، تذكَّر رئيس السقائين يوسف وتذكَّر رؤياه التي أوَّلها له، وتذكَّر قول يوسف له وهو خارج من السجن: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾.

فأخبر الملك بهذا الواقع الذي رآه، وحدَّثه عن يوسف حديث الإعجاب، وبيَّن له أنه لا يستطيع أحد من تأويل هذه الرؤيا إلا يوسف عليه السلام وحده.

اشتدَّ فرح الملك، وأرسل هذا الساقي إلى السجن ليلتقي بيوسف ويقص عليه رؤيا الملك قائلاً: ﴿يُوسُفُ أَيُّهَا ٱلصِّدِّيقُ أَفْتِنَا فِى سَبْعِ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعِ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ لَّعَلِّىٓ أَرْجِعُ إِلَى ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَعْلَمُونَ ﴿٤٦﴾﴾ [يوسف: ٤٦].

فأجابه يوسف عليه السلام بما علَّمه الله، وبيَّن له أن مصر سوف تمر بفترتين إحداهما مخصبة والأخرى مجدبة.

فأمَّا الفترة المخصبة فتستمر سبع سنوات متوالية، وفيها تجود الأرض بأطيب الغلات وأوفر الثمرات.

وأمَّا الفترة الثانية فتأتي بعدها وتستمر سبع سنوات متوالية كذلك، وفيه تجدب الأرض لقلة الماء، فتشح الأقوات، ويُهدد الناس بالموت والفناء، ثم يعود الخير والرخاء بعد هذا البلاء.

ثمَّ طلب إليه أن يبلغ الملك ما يجب أن يقوموا به في مواجهة هذا البلاء، وهو أن يدَّخروا من أيام الرخاء لأيام الشقاء، وأن يخزنوا القمح في سنابله حرصاً على بقائه وصلاحه، حتى إذا جاءت سنوات الجدب وجدوا في مخازنهم ما يغنيهم ويسد حاجتهم إلى أن يعود الخصب من جديد.

نقل رئيس السقاة تفسير الرؤيا إلى الملك، فأعجب بهذا التأويل، وطلب أن يحضروا إليه يوسف ليراه، وقال ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: ٥٤]، ولكن يوسف أبىٰ أن يخرج من السجن دون أن يبرأ نفسه مما أصابها من البهتان الكاذب الذي أدَّى إلى دخوله السجن ظلماً.

لمَّا علم الملك بذلك أسرع بإعادة التحقيق من جديد، وسمع كل النسوة اللاتي قطَّعن أيديهن، وما قالته امرأة العزيز أمامهن، وكيف اعترفت بكيدها ليوسف، فقلن: ﴿حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾ [يوسف: ٥١] واعترفت امرأة العزيز بذنبه، وقالت: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَٰوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٥١﴾ ذَٰلِكَ لِيَعْلَمَ أَنِّى لَمْ أَخُنْهُ بِٱلْغَيْبِ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى كَيْدَ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٢﴾ وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّىٓ إِنَّ رَبِّى غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ [يوسف: ٥١ ـ ٥٣].

لمَّا ظهر الحق أحب الملك يوسف وقرَّبه إليه، وطلب منه أن يختار المنصب الذي يريده ويتمناه.

فاختار يوسف بإلهام من الله أن يكون أميناً على بيت المال.

ووافق الملك على تعيينه فرحاً به، مطمئناً إلى ما ينتظر من الخير للبلاد على يديه.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى ۖ فَلَمَّا كَلَّمَهُۥ قَالَ إِنَّكَ ٱلْيَوْمَ لَدَيْنَا مَكِينٌ أَمِينٌ ﴿٥٤﴾ قَالَ ٱجْعَلْنِى عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ ۖ إِنِّى حَفِيظٌ عَلِيمٌ ﴿٥٥﴾ وَكَذَٰلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِى ٱلْأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَآءُ ۖ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَآءُ ۖ وَلَا نُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾﴾ [يوسف: ٥٤ ـ ٥٦].

ثم إنّ الملك الريان بن الوليد زوّج يوسف زليخا امرأة سيّده، فلمَّا دخل بها قال: أليس هذا خيراً مما كنت تريدين؟

فقالت: أيها الصدِّيق لا تلمني، فإني كنتُ امرأة حسناء جميلة، في ملك ودنيا، وكان زوجي لا يأتي النساء، وكنت كما جعلك الله في حسنك، فغلبتني نفسي وشهوتي. ووجدها بكراً، فولدت له ولدين، هما: إفرائيم، ومنشا، رضي الله عنها[١].

يوسف عليه السلام وزيراً على خزائن مصر:

وافق الملك على تولية يوسف خزائن مصر وبيت المال، فجعل له السلطة على جميع أرض مصر وخيراتها، وألبسه خاتمه، وألبسه الحرير، وطوّقه الذهب، وكان يوسف حينئذٍ في الثلاثين من عمره، واستوثق ليوسف مُلْكُ مصر، وعمل فيهم بالعدل؛ فأحبه الناس[٢].

---

(١) «الكامل في التاريخ»، ابن الأثير. (بتصرف).
(٢) «البداية والنهاية»، ابن كثير. (بتصرف).

إخوة يوسف في مصر:

مرَّت السبع سنوات المخصبة، وأعدَّ يوسف عدَّته فيها واتخذ الخزائن، وخزن الغلات، ثم جاءت السبع المجدبة، واشتد الجدب والجوع في جميع أنحاء الأرض، وصلت الأخبار في أنحاء البلاد أن خزائن مصر تمتلئ من الخيرات.

وقد أصاب يعقوب وأولاده ما أصاب غيرهم من ضيق شديد في العيش، وسمع بوجود الخير والرزق في مصر.

فأرسل يعقوب عليه السلام أولاده جميعاً عدا بنيامين ـ وهو الشقيق الوحيد ليوسف ـ وطلب منهم أن يتجهوا إلى مصر ومعهم الدواب اللازمة لحمل ما يحتاجون إليه من الطعام، وأعطاهم الثمن الذي يشترون به حوائجهم.

فقدموا إلى مصر، ودخلوا على أخيهم يوسف في قصره، فعرفهم بملامحهم وكلامهم، أما هم فلم يعرفوه.

أنزل يوسف إخوته ضيوفاً عليه، ثم استدرجهم في الحديث ليعرف كل شيء عن أحوالهم، فذكروا له أنهم أبناء يعقوب نبي الله، وأن لهم أخوين من أم أخرى، قد ضاع أحدهما، وبقي الآخر عند أبيه لا يفارقه.

فطالبهم بإحضار هذا الأخ الذي تركوه، وأخبرهم أنه يريد بذلك أن يتأكد من صدق قولهم.

وأراد يوسف أن يستوثق من رجوعهم إليه، فأعطاهم ما يحتاجون من القمح والشعير، وكال لهم كيلاً زائداً عن حقّهم، وأعطاهم زاداً

للطريق، وأخذ منهم الثمن، ثم أمر برد هذا الثمن إليهم دون أن يعلموا بذلك، فوضع هذا المال سرًّا في أوعيتهم، حتى إذا رجعوا إلى بلدهم وفتحوا أمتعتهم، وجدوا أن ثمن بضاعتهم قد رد إليهم، صمموا على الرجوع إليه إثباتاً لأمانتهم وحُسن معاملتهم، وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾ وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ أَلَا تَرَوْنَ أَنِّي أُوفِي الْكَيْلَ وَأَنَا خَيْرُ الْمُنزِلِينَ ﴿٥٩﴾ فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِي وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾ قَالُوا سَنُرَاوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَاعِلُونَ ﴿٦١﴾ وَقَالَ لِفِتْيَانِهِ اجْعَلُوا بِضَاعَتَهُمْ فِي رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَا إِذَا انقَلَبُوا إِلَىٰ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: ٥٨ ـ ٦٢].

بين إخوة يوسف وأبيهم:

لمَّا رجع إخوة يوسف إلى أبيهم قصّوا عليه ما جرى لهم مع وزير المال، وما لقوا منه من حفاوة وإكرام، وكيف أنه أنذرهم بمنع الكيل لهم إذا عادوا ثانية إلى مصر ولم يكن معهم أخوهم بنيامين.

فطلبوا من أبيهم أن يسمح لهم بأخذ بنيامين معهم في المرة الثانية، وأخذوا يستعطفونه ويتوسلون إليه ويقسمون الأيمان أن يحفظوا أخاهم ويحيطوه بكل عناية ورعاية.

حينئذٍ تسربت المخاوف إلى نفس أبيهم، وذكرهم بموقفهم من أخيهم يوسف، وقال لهم: ﴿قَالَ هَلْ آمَنُكُمْ عَلَيْهِ إِلَّا كَمَا أَمِنتُكُمْ عَلَىٰ أَخِيهِ مِن قَبْلُ﴾ [يوسف: ٦٤].

ولم يجد يعقوب عليه السلام بدًّا من التسليم بما طلبه أبناؤه، ومن أجل ذلك لجأ إلى الله طالباً منه أن يحفظ أخاهم ويرعاه، وأن يتولاه

برحمته حتى لا يصاب فيه كما أصيب من قبل في أخيه، فقال عليه السلام: ﴿فَٱللَّهُ خَيْرٌ حَٰفِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٦٤﴾﴾ [يوسف: ٦٤].

ولمَّا فتحوا أمتعتهم وجدوا بضاعتهم التي حملوها ليشتروا بها قد رُدَّت إليهم، وعثروا عليه بين أمتعتهم، فازداد حرصهم على الرجوع ليثبتوا أمام العزيز حسن نيَّتهم وصدق أمانتهم، وقد صوَّر الله سبحانه وتعالى حال إخوة يوسف مع أبيهم فقال تعالى: ﴿وَلَمَّا فَتَحُوا۟ مَتَٰعَهُمْ وَجَدُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ رُدَّتْ إِلَيْهِمْ ۖ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا نَبْغِى ۖ هَٰذِهِۦ بِضَٰعَتُنَا رُدَّتْ إِلَيْنَا ۖ وَنَمِيرُ أَهْلَنَا وَنَحْفَظُ أَخَانَا وَنَزْدَادُ كَيْلَ بَعِيرٍ ۖ ذَٰلِكَ كَيْلٌ يَسِيرٌ ﴿٦٥﴾ قَالَ لَنْ أُرْسِلَهُۥ مَعَكُمْ حَتَّىٰ تُؤْتُونِ مَوْثِقًا مِّنَ ٱللَّهِ لَتَأْتُنَّنِى بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يُحَاطَ بِكُمْ ۖ فَلَمَّآ ءَاتَوْهُ مَوْثِقَهُمْ قَالَ ٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٦٦﴾﴾ [يوسف: ٦٥، ٦٦][1].

وصية يعقوب عليه السلام لبنيه:

اشترط يعقوب عليه السلام على أولاده حين أرسل بنيامين معهم أن يعاهدوا الله أن يعيدوه إليه ولا يمنعهم عن رده مانع إلا أن يهلكوا أو يحيط بهم عدو يغلبهم عليه، فاستجابوا له وأقسموا بالله على المحافظة عليه.

هنا اطمأن يعقوب إلى عهد أبنائه ثم جمعهم وطلب منهم ألا يدخلوا مصر من باب واحد حتى لا يلفتوا الأنظار إليهم وخوفاً عليهم من الإصابة بالحسد، وفي ذلك يقول سبحانه: ﴿وَقَالَ يَٰبَنِىَّ لَا تَدْخُلُوا۟ مِنۢ بَابٍ وَٰحِدٍ وَٱدْخُلُوا۟ مِنْ أَبْوَٰبٍ مُّتَفَرِّقَةٍ ۖ وَمَآ أُغْنِى عَنكُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۖ إِنِ ٱلْحُكْمُ

---

(١) «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

﴿إِلَّا لِلَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَعَلَيْهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُتَوَكِّلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [يوسف: ٦٧][1].

يوسف الصدّيق وأخوه بنيامين:

عاد إخوة يوسف إلى مصر مرة أخرى ومعهم أخوهم بنيامين، فاستضافهم، ثم انفرد بأخيه في عزلة عن باقي إخوته فضمه إليه، وغمره بالعطف والحنان، وأخبره بحقيقة أمره التي لا تزال خافية عليهم، وطلب منه أن يكتمها عن إخوته حيث قال: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف: ٦٩].

ثم أظهر يوسف رغبته لأخيه في استبقائه عنده كتمهيد لإحضار والديه إلى مصر.

وقد ألهم الله يوسف بحيلة لاستبقاء أخيه إلى جواره، فقد أمر العمال أن يضعوا الإناء الذي يشرب فيه الملك، وكان من ذهب، في رحل أخيه دون أن يشعر أحد بذلك.

فلما انطلقوا من مصر بما يحملون من القمح والشعير التي أعطاها لهم يوسف، نادى المنادي عليهم ليتهمهم بالسرقة والخيانة.

فأقبلوا على هذا المنادي مذهولين، وأعلنوا براءتهم من هذا الاتهام الكاذب.

فقال أعوان يوسف: فماذا يكون جزاء مَن ثبت عليه السرقة منكم؟

فأجابوهم: إن جزاء السارق أن يؤخذ رقيقاً، ويؤخذ عند الملك يحبسه أو يعذبه أو يحكم فيه بما يشاء.

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي. (بتصرف).

حينئذٍ بدأ أعوان يوسف بتفتيش أوعيتهم قبل وعاء أخيه، ثم انتهوا إلى بنيامين فوجدوا الصواع في وعائه.

هنا خيّم الحزن على إخوته، إذ وقع ما كانوا يخشونه، وتساءلوا فيما بينهم: ماذا سيقولون لأبيهم إذا ما رجعوا إليه دون أخيهم؟

ولقد صور القرآن هذه الحيلة التي صنعها يوسف لاستبقاء أخيه لديه، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِى رَحْلِ أَخِيهِ ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَـٰرِقُونَ ﴿٧٠﴾ قَالُوا۟ وَأَقْبَلُوا۟ عَلَيْهِم مَّاذَا تَفْقِدُونَ ﴿٧١﴾ قَالُوا۟ نَفْقِدُ صُوَاعَ ٱلْمَلِكِ وَلِمَن جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ ﴿٧٢﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ لَقَدْ عَلِمْتُم مَّا جِئْنَا لِنُفْسِدَ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا كُنَّا سَـٰرِقِينَ ﴿٧٣﴾ قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَـٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾ فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ كَذَٰلِكَ كِدْنَا لِيُوسُفَ مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِى دِينِ ٱلْمَلِكِ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ نَرْفَعُ دَرَجَـٰتٍ مَّن نَّشَآءُ وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ ﴿٧٦﴾﴾ [يوسف: ٧٠ـ٧٦].

وابيضت عيناه من الحزن:

لمَّا رأى إخوة يوسف إصرار العزيز على استبقاء أخيهم بنيامين، أخذوا يتوسلون إليه كي يأخذ أحدهم مكانه؛ إشفاقاً على والدهم يعقوب عليه السلام الذي وصَّاهم خيراً بأخيهم، ومن أجل ذلك قالوا في توسل: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ إِنَّ لَهُۥٓ أَبًا شَيْخًا كَبِيرًا فَخُذْ أَحَدَنَا مَكَانَهُۥٓ إِنَّا نَرَىٰكَ مِنَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٧٨﴾﴾ [يوسف: ٧٨].

ولكن الملك رفض وقال لهم: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ أَن نَّأْخُذَ إِلَّا مَن وَجَدْنَا

مَتَـٰعَنَا عِندَهُۥٓ إِنَّآ إِذًا لَّظَـٰلِمُونَ ﴿٧٩﴾﴾ [يوسف: ٧٩].

حينئذٍ قال كبيرهم، وهو (روأبين): ألا تذكرون وصيَّته إليكم، والميثاق الذي أخذه عليكم بالحفاظ على أخيكم؟ ثم أقسم بألا يبرح مصر حتى يتلقى أمراً من أبيه بالرجوع، وقال لإخوته: ﴿ٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَبِيكُمْ فَقُولُوا۟ يَـٰٓأَبَانَآ إِنَّ ٱبْنَكَ سَرَقَ وَمَا شَهِدْنَآ إِلَّا بِمَا عَلِمْنَا وَمَا كُنَّا لِلْغَيْبِ حَـٰفِظِينَ ﴿٨١﴾ وَسْـَٔلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [يوسف: ٨١، ٨٢].

ورجع إخوة يوسف إلى أبيهم وأخبروه ما حدث.

فقال لهم: ﴿بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: ٨٣].

ثم انصرف يعقوب عن أبنائه، وأسلم نفسه إلى الأسى والحسرة، وضاقت نفسه، ولم يجد ملجأ من الله إلا إليه، فشكا إليه ضعف قوَّته وقلة حيلته، وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَـٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾ قَالُوا۟ تَٱللَّهِ تَفْتَؤُا۟ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّىٰ تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ ٱلْهَـٰلِكِينَ ﴿٨٥﴾ قَالَ إِنَّمَآ أَشْكُوا۟ بَثِّى وَحُزْنِىٓ إِلَى ٱللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٦﴾ يَـٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَا۟يْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَا۟يْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: ٨٤ ـ ٨٧][1].

---

(١) «تفسير روح المعاني»، الألوسي. (بتصرف).

يوسف عليه السلام يتعرف على إخوته:

استجاب أبناء يعقوب إلى رغبة أبيهم في الرجوع إلى مصر في محاولة أخيرة لاسترجاع أخيهم بنيامين.

ولما دخلوا على يوسف قالوا له: يا أيها العزيز، مسَّنا وأهلنا الجوع، وجئنا ببضاعة مزجاة (قليلة)، فأوفِ لنا الكيل وتصدق علينا، إن الله يجزي المتصدقين.

فقال لهم يوسف: هل نسيتم ما فعلتم بيوسف وأخيه إذ أنتم جاهلون، إذ فرقتم بينهما من قبل؟

قالوا: ﴿أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُ﴾ [يوسف: ٩٠].

قال: ﴿أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِى قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآ ۖ إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: ٩٠].

قالوا: ﴿تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: ٩١].

قال لهم يوسف: ﴿لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَ ۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْ ۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾ [يوسف: ٩٢].

قميص يوسف عليه السلام:

اشتاق يوسف إلى لقاء يعقوب عليه السلام، فأمر إخوته أن يذهبوا بقميصه إلى أبيهم، فقال لهم: ﴿ٱذْهَبُوا۟ بِقَمِيصِى هَٰذَا فَأَلْقُوهُ عَلَىٰ وَجْهِ أَبِى يَأْتِ بَصِيرًا وَأْتُونِى بِأَهْلِكُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٣﴾﴾ [يوسف: ٩٣].

والقميص الذي أرسله يوسف عليه السلام إلى أبيه هو قميص جاء به جبريل من الجنة، وألبسه إبراهيم عليه السلام حينما ألقوه في النار، ثم

ورثه إبراهيم لإسحاق، وورثه إسحاق ليعقوب، ثم أخذه من بعدهم يوسف عليه السلام (١).

أوحى الله سبحانه وتعالى إلى يوسف عليه السلام بأن يلقي القميص على وجه أبيه ليرجع إليه بصره.

وكان الذي حمل القميص يهوذا بن يعقوب، قال ليوسف: أنا الذي حملت إليه قميصك بدم كذب، فأحزنته، فأنا الآن أحمل قميصك لأسرّهُ وليعود إليه بصره.

فلمَّا اقترب إخوة يوسف من أبيهم، ويهوذا يحمل قميص يوسف، قال أبوهم: ﴿إِنِّي لَأَجِدُ رِيحَ يُوسُفَ لَوْلَا أَن تُفَنِّدُونِ ﴿٩٤﴾﴾ [يوسف: ٩٤].

ثم جاءوه وألقوا على وجهه القميص فارتدَّ بصيراً.

فقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيَ أَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٩٦﴾﴾ [يوسف: ٩٦](٢).

تحقيق رؤيا يوسف عليه السلام:

أمر يعقوب عليه السلام أولاده بالتجهيز للسفر إلى مصر للقاء يوسف عليه السلام، فتجهزوا وكان عددهم سبعين شخصاً.

ولمَّا علم يوسف بمقدمهم، ذهب ومعه أعيان القوم لاستقبالهم عند حدود مصر.

وصلت أسرة يعقوب إلى مصر، فرأوا يوسف في استقبالهم، فلما

---

(١) هذه الرواية لا تعتمد على سند صحيح من القرآن أو السنة أو السند الصحيح، ولكن ذكرها بعض الرواة.

(٢) «تفسير الماوردي، النكت العيون»، الماوردي. (بتصرف).

دخلوا عليه أشرق وجهه بالسرور، وقام مسرعاً إلى أبويه يحتضنهما، ويضمهما إليه.

ويرفعهما إلى العرش الذي يجلس عليه؛ تكريماً لهما.

فدمعت العيون بُشراً، واهتزَّت القلوب فرحاً، وخرَّ الجميع ليوسف ساجدين سجود شكر وحمد، لا عبادة وتقديس.

وحينما رأى يوسف هذا المشهد من أبويه وإخوته قال: ﴿يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأۡوِيلُ رُءۡيَايَ مِن قَبۡلُ قَدۡ جَعَلَهَا رَبِّي حَقّٗاۖ﴾ [يوسف: ١٠٠].

وفاة يوسف عليه السلام:

لمَّا حضرت يوسف عليه السلام الوفاة أوصى بأن يخرج من مصر ويدفن عند آبائه يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام.

ثم مات عليه السلام ووضعوه في تابوت ودفنوه بمصر حتى أخرجه معه موسى عليه السلام فدفنه عند آبائه في مغارة حبرون بجوار يعقوب وإسحاق وإبراهيم عليهم السلام أجمعين[1].

يقول مبارك بن فضالة عن الحسن: ألقي يوسف في الجب وهو ابن سبع عشر سنة، وغاب عن أبيه ثمانين سنة، وعاش بعد ذلك ثلاثاً وعشرين سنة، ومات وهو ابن مائة وعشرين سنة، عليه وعلى نبينا محمد ﷺ أفضل الصلاة والسلام.

* * *

(١) «البداية والنهاية»، ابن كثير.

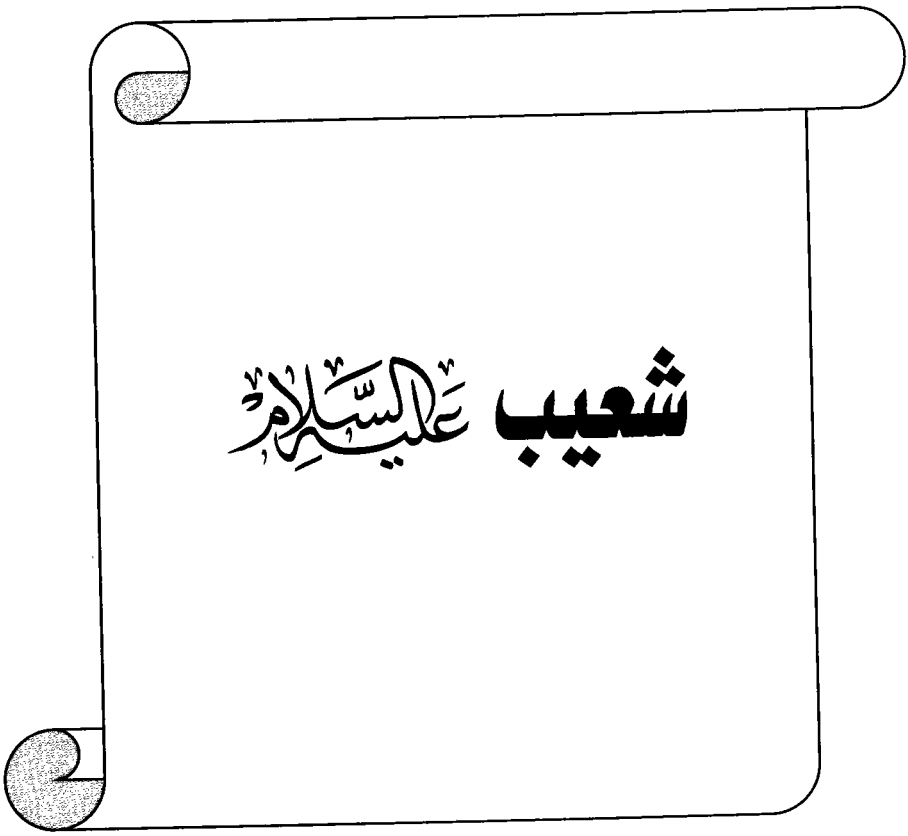
شعيب عليه السلام

شعيب عليه السلام

هو نبي الله شعيب بن ميكيل بن يشجر بن لاوي بن يعقوب عليه السلام، وهو أحد أربعة أنبياء عرب هم: هود، وصالح، وشعيب، ومحمد ﷺ.

وهو عليه السلام خطيب الأنبياء لفصاحته وبلاغته وقوّة حجته في دعوة قومه إلى الإيمان برسالته.

نشأ شعيب عليه السلام في أرض مَدْيَن، وهي قرية تقع في أرض معان بأطراف الشام مما يلي الحجاز قريباً من بحيرة لوط.

وهم عرب ينتمون إلى مدين بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

دعوة شعيب عليه السلام لقومه:

كان أهل مدين لا يؤمنون بالله، وكانوا يعبدون الأيكة (وهي شجرة من الأيك، حولها غيضة ملتفة بها)، وكانوا يبخسون المكيال والميزان إذا باعوا، وكان الله سبحانه وتعالى وسع عليهم في الرزق، وبسط لهم في العيش استدراجاً منه لهم مع كفرهم به.

فكان إذا جاءهم البائع بالطعام أخذوا بكيل زائد، واستفوا بغاية ما يقدرون عليه وظلموا، وإن جاءهم مشترٍ للطعام باعوه بكيل ناقص، وشحّحوا له بغاية ما يقدرون.

فبعث الله سبحانه وتعالى فيهم رجلاً هو نبي الله شعيب عليه السلام، فدعاهم إلى عبادة الله وتوحيده، وأمرهم بالعدل، وحذرهم عاقبة

الظلم، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ قَدْ جَآءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِى ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾﴾ [الأعراف: ٨٥].

كما نهاهم شعيب عليه السلام عن قطع الطريق، إذ كانوا يأخذون العشور من أموال المارة، فيقطعون الطريق عليهم، وكانوا يقطعون على الناس طريق الهدى والخير، حيث يفتنون الناس عن دينهم ويصدون المؤمنين عن إيمانهم، ويشيعون الفساد والانحراف بين الناس، فقال لهم شعيب: ﴿وَلَا تَقْعُدُواْ بِكُلِّ صِرَٰطٍ تُوعِدُونَ وَتَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ مَنْ ءَامَنَ بِهِۦ وَتَبْغُونَهَا عِوَجًا وَٱذْكُرُوٓاْ إِذْ كُنتُمْ قَلِيلًا فَكَثَّرَكُمْ وَٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأعراف: ٨٦][1].

وعن عبدالله بن عمر رضي الله عنهما: أقبل علينا رسول الله ﷺ فقال: «**يا معشر المهاجرين! خمس إذا ابتليتم بهن، وأعوذ بالله أن تدركوهن، لم تظهر الفاحشة في قوم قط، حتى يعلنوا بها، إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا، ولم ينقصوا المكيال والميزان، إلا أخذوا بالسنين ـ أي بالقحط ـ وشدة المؤنة، وجور السلطان عليهم. . .**» الحديث[2].

---

(١) «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي. (بتصرف).

(٢) أخرجه ابن ماجه في «سننه»: (٤٠١٩)، وحسَّنه الألباني في «صحيح ابن ماجه»: (٣٢٤٦).

موقف قومه من دعوته:

استهزأ قوم مدين بكلام شعيب عليه السلام، واستخفوا بصلاته وعبادته، فقالوا له: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ [هود: ٨٧].

فأجابهم شعيب متلطفاً معهم: ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ أَرَءَيْتُمْ إِن كُنتُ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّى وَرَزَقَنِى مِنْهُ رِزْقًا حَسَنًا ۚ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَىٰ مَآ أَنْهَىٰكُمْ عَنْهُ ۚ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا ٱلْإِصْلَٰحَ مَا ٱسْتَطَعْتُ ۚ وَمَا تَوْفِيقِىٓ إِلَّا بِٱللَّهِ ۚ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ ﴿٨٨﴾﴾ [هود: ٨٨].

وقد ضرب لهم الأمثلة بما أصاب الأمم التي سبقتهم حينما عصوا رسلهم واتبعوا كل شيطان مريد، فقال لهم: ﴿وَيَٰقَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِىٓ أَن يُصِيبَكُم مِّثْلُ مَآ أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَٰلِحٍ ۚ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِّنكُم بِبَعِيدٍ ﴿٨٩﴾﴾ [هود: ٨٩].

ثم بيَّن لهم شعيب عليه السلام أن رحمة الله واسعة، وأنه يقبل التوبة من عباده، ويبسط يده بالمودة للناس إذا تابوا إليه، فقال لهم: ﴿وَٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ ثُمَّ تُوبُوٓا۟ إِلَيْهِ ۚ إِنَّ رَبِّى رَحِيمٌ وَدُودٌ ﴿٩٠﴾﴾ [التوبة: ٩٠].

وكان موقف قومه منه أن هدّدوه وتوعَّدوه بأنهم سيخرجوه هو ومن آمن معه من قريتهم، فقال له أكابر قومه من الذين استكبروا: ﴿لَنُخْرِجَنَّكَ يَٰشُعَيْبُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَكَ مِن قَرْيَتِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۚ﴾ [الأعراف: ٨٨].

فردَّ عليهم مستنكراً لما يقولون: ﴿قَدِ ٱفْتَرَيْنَا عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا إِنْ عُدْنَا فِى مِلَّتِكُم بَعْدَ إِذْ نَجَّىٰنَا ٱللَّهُ مِنْهَا ۚ وَمَا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّعُودَ فِيهَآ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّنَا ۚ وَسِعَ

رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا عَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْنَا رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ قَوْمِنَا بِالْحَقِّ وَأَنْتَ خَيْرُ الْفَاتِحِينَ ﴿٨٩﴾﴾ [الأعراف: ٨٩].

وعاد قومه يهددونه بقتله رجماً بالحجارة، وأنه لا يمنعهم من ذلك الآن إلى مجاملة عشيرته، فقالوا له: ﴿يَا شُعَيْبُ مَا نَفْقَهُ كَثِيرًا مِمَّا تَقُولُ وَإِنَّا لَنَرَاكَ فِينَا ضَعِيفًا وَلَوْلَا رَهْطُكَ لَرَجَمْنَاكَ وَمَا أَنْتَ عَلَيْنَا بِعَزِيزٍ ﴿٩١﴾﴾ [هود: ٩١].

فيرد عليهم شعيب: أعشيرتي أعظم وأجل من الله الذي اتخذتموه وراء ظهوركم؟! إن ربي يعلم كل شيء ويجازي كل إنسان بعمله.

قال تعالى على لسان شعيب عليه السلام: ﴿أَرَهْطِي أَعَزُّ عَلَيْكُمْ مِنَ اللَّهِ وَاتَّخَذْتُمُوهُ وَرَاءَكُمْ ظِهْرِيًّا إِنَّ رَبِّي بِمَا تَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ [هود: ٩٢][1].

هلاك أهل مدين:

جاء الأمر الإلهي بهلاك أهل مدين (أصحاب الأيكة) نتيجة لما وقع منهم من ضلال وعناد، وإفساد وظلم للعباد.

فأصابهم حرٌّ شديد، وأسكن الله هبوب الهواء عنهم سبعة أيام، فكان لا ينفعهم مع ذلك ماء ولا ظل، فهربوا من محلتهم إلى البرية، فأظلَّتهم سحابة، فاجتمعوا تحتها ليستظلوا بظلها، فلمَّا تكاملوا تحتها أخذت ترميهم بالشرر والشهب، ثم رجفت الأرض، وجاءتهم صيحة من السماء فقضت عليهم أجمعين وأزهقت أرواحهم.

---

(١) «التفسير الكبير»، فخر الدين الرازي، «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

يصف لنا الله سبحانه وتعالى هلاكهم فيقول: ﴿فَأَخَذَهُمْ عَذَابُ يَوْمِ الظُّلَّةِ إِنَّهُ كَانَ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٨٩﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٩٠﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴿١٩١﴾﴾ [الشعراء: ١٨٩ ـ ١٩١][1].

ثم قسم شعيب أموال مدين بعد هلاكهم على المؤمنين الذين معه، ولم يزل بأرض مدين حتى رحل بعد ذلك إلى مكة ومات فيها، وقبره غربي الكعبة بين دار الندوة ودار ابن سهم.

* * *

(١) «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

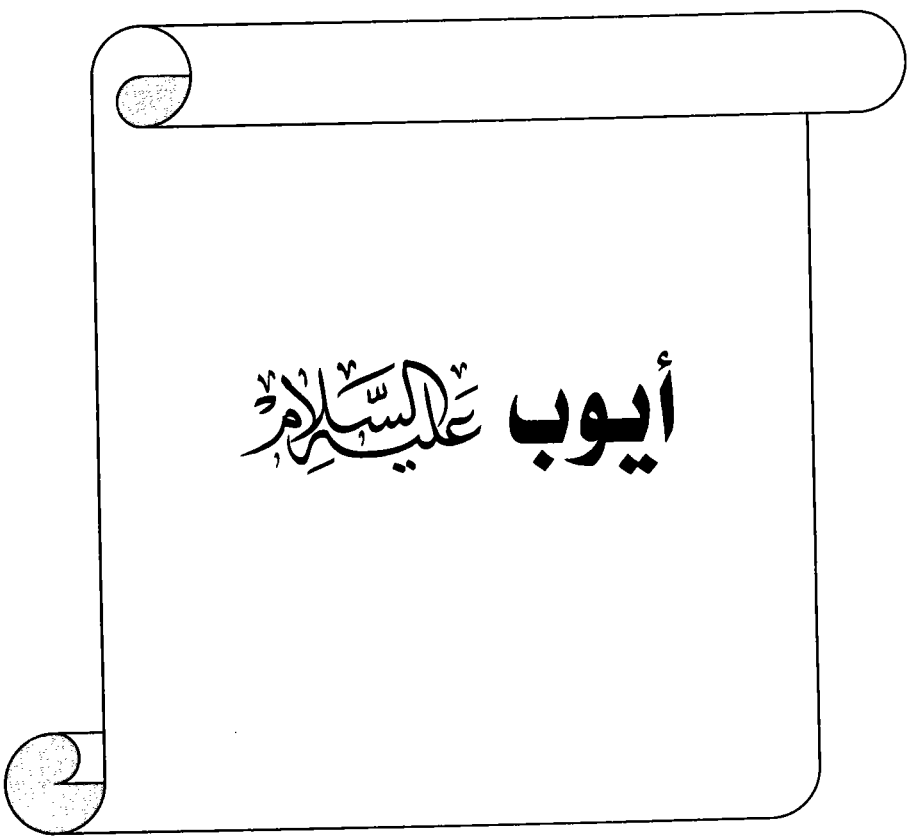
أيوب عليه السلام

أيـوب عليه السلام

هو نبي الله أيوب بن موسى بن زراح بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وهو النبي الكريم الذي أثنى الله عز وجل على صبره في محكم الكتاب وكرَّمه بقوله: ﴿إِنَّا وَجَدْنَاهُ صَابِرًا نِّعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤].

وهو من أنبياء الله الأطهار، ورسله المصطفين الأبرار.

وأمه بنت لوط عليه السلام، وكانت زوجته ليا بنت يعقوب عليه السلام، وقيل: هي رحمة بنت أفرائيم بن يوسف بن يعقوب عليه السلام.

بلاء أيوب عليه السلام:

كان أيوب عليه السلام عظيم التقوى رحيماً بالمساكين، يكفل الأرامل والأيتام، ويكرم الضيف، وكان يدعو قومه إلى عبادة الله وحده.

وقد أنعم الله سبحانه وتعالى على أيوب عليه السلام بالمال الكثير، والثروة الطائلة، وكان عليه السلام يملك المزارع والحدائق الكثيرة، وكانت له أموال من المواشي والأنعام يضيق بها الحصر.

كما منحه الله سبحانه نعمة الصحة والقوة، ووهبه زوجة صالحة حسنة الخَلق والخُلق، ثم شاء الله أن تتبدل الأوضاع، وتتغير الأحوال، فنقصت الأموال وماتت الأولاد، وزال الثراء الكبير الذي كان يعيش فيه أيوب، وهاجمه الفقر الشديد، والمرض الأليم، وابتلاه الله سبحانه في جسده بأنواع البلاء، ولم يبق منه عضو سليم سوى قلبه

ولسانه يذكر الله عز وجل بهما، ومع ذلك كان صابراً محتسباً، ذاكراً لله في ليله ونهاره، وطال مرضه، فانقطع عن الناس، ولم يبق أحد يحنو عليه سوى زوجته التي كانت ترعى له حقه وتعرف قديم إحسانه إليها، فكانت تتردد إليه فتصلح من شأنه وتعينه على قضاء حاجته، وتقوم بخدمته، وضعف حالها، وقل مالها حتى كانت تخدم الناس بالأجر لتطعمه وهي صابرة معه.

ولم يزد هذا كله أيوب عليه السلام إلا صبراً، وكان يقول كلما أصابته مصيبة: «اللهم أنت أخذت وأنت أعطيت».

كانت زوج أيوب عليه السلام تدرك أن الله عز وجل يمتحن عباده المقربين بما شاء لرفع درجاتهم عنده، وليجعلهم قدوة في الصبر على المكاره، والصبر على قضاء الله عز وجل.

وقد ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: «**أشد الناس بلاءً الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل**»(١).

وكان أيوب عليه السلام أشد الناس صبراً وتحمُّلاً للمكاره، وأحسنهم تسليماً واستسلاماً لأمر الله.

وفي يوم من الأيام تقدمت منه زوجه وقالت له: يا أيوب، إنّك رجل مجاب الدعوة، فادعو الله أن يشفيك، فقال: قد عشت سبعين سنة صحيحاً، فهل كثير لله أن أصبر له سبعين سنة وأنا مريض.

وقد بيَّن لنا رسول الله ﷺ قصة شفائِهِ فقال: «إن أيوب نبي الله لبث

---

(١) أخرجه الطبراني عن أخت حذيفة بن اليمان، وحسَّنه السيوطي.

في بلائه ثماني عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيدُ إلا رجلين من إخوانه كانا من أخصِّ إخوانه، كانا يغدوان إليه ويروحان.

فقال أحدهما لصاحبه: تَعلَمُ، والله لقد أذنب أيوب ذنباً ما أذنبه أحدٌ من العالمين.

فقال له صاحبه: وما ذاك؟

قال: منذ ثماني عشرة سنة لم يرحمه الله فيكشف ما به من بلاء.

فلمَّا راح إليه، لم يصبر الرجل حتى ذكر ذلك لأيوب.

فقال أيوب عليه السلام: لا أدري ما تقول، غير أنَّ الله يعلمُ أنّي كنتُ أَمُرُّ على الرَّجلين يتنازعان، فيذكران الله، فارجع إلى بيتي فأكفِّرُ عنهما كراهية أن يُذكرَ الله إلا في حقٍّ.

قال: وكان يخرج إلى حاجته، فإذا قضى حاجته، أمسكت امرأته بيده، فلمَّا كان ذات يوم، أبطأ عليها فأوحى الله إلى أيوب في مكانه ﴿ٱرۡكُضۡ بِرِجۡلِكَۖ هَٰذَا مُغۡتَسَلُۢ بَارِدٞ وَشَرَابٞ ۝٤٢﴾ [ص: ٤٢] فاستبطأته فبلغته فأقبل عليها قد أذهب الله به من البلاء فهو أحسن ما كان.

فلمَّا رأته قالت: أي بارك لله فيك، هل رأيت نبيَّ الله هذا المبتلى؟ والله ما رأيت أحداً كان أشبه به منك إذ كان صحيحاً.

قال: فإنِّي أنا هو.

وكان له أندران: أندر للقمح، وأندر للشعير، فبعث الله سحابتين، فلمَّا كانت أ حدهما على أندر القمح أفرغت فيه الذهب حتى فاضت، وأفرغت الأخرى على أندر الشعير الورِق (الفضة) حتى

فاضت بهم[١].

كان الدواء كما بيَّن لنا رسول الله ﷺ بسيطاً هيِّناً ليِّناً، أمر الله أيوب أن يضرب برجله الأرض، امتثل أيوب إلى أمر ربِّه ومسَّ الأرض فنبع منها الماء نقيًّا عذباً فراتاً سائغاً، فشرب منه فبرئ ما كان في بطنه من سقم، واغتسل فبرئ من ظاهره أتمّ براءة، فما كان يرسل الماء على عضو إلا ويعود في الحين أحسن ما كان قَبْلُ بإذن الله تعالى.

قال تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عَبْدَنَآ أَيُّوبَ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَسَّنِىَ ٱلشَّيْطَٰنُ بِنُصْبٍ وَعَذَابٍ ﴿٤١﴾ ٱرْكُضْ بِرِجْلِكَ هَٰذَا مُغْتَسَلٌۢ بَارِدٌ وَشَرَابٌ ﴿٤٢﴾ وَوَهَبْنَا لَهُۥٓ أَهْلَهُۥ وَمِثْلَهُم مَّعَهُمْ رَحْمَةً مِّنَّا وَذِكْرَىٰ لِأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٤٣﴾ وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَٱضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤١ ـ ٤٤].

اغتسل أيوب عليه السلام وشفي بأمر الله، وعندما وصلت إليه زوجه نظرت إليه فلم تعرفه بادئ الأمر، ولما أخبرها بما أكرمه الله، وبما مَنَّ عليه من الشفاء سجدت شكراً لله تعالى، ثم قالت: إنَّ ربّي على كل شيء قدير، وإنّه يحيي العظام وهي رميم[٢].

أيوب عليه السلام يتحلل من يمينه:

من إكرام الله عز وجل لزوج أيوب عليه السلام أنَّه رخص لعبده ورسوله أيوب رخصة تخصها، فقد ورد أن أيوب عليه السلام كان قد حلف وهو في مرضه ليضربنَّ امرأته مائة سوط؛ وذلك لأنها ذهبت في بعض

---

(١) أخرجه ابن حبان في «صحيحه»: (٨٨٨٢)، والهيثمي في «المجمع»: (٨٠٢).
(٢) «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي. (بتصرف).

المهام فأبطأت على أيوب فحلف ليضربنَّها.

فلمَّا عافاه الله عز وجل، أمره أن يأخذ حزمة صغيرةً من ريحان تبلغ مائة، فيجمعها كلها ويضربها به ضربةً واحدة برفق فتحلل بذلك من اليمين الذي أقسم به، قال له سبحانه: ﴿وَخُذْ بِيَدِكَ ضِغْثًا فَاضْرِب بِّهِۦ وَلَا تَحْنَثْ ۗ إِنَّا وَجَدْنَٰهُ صَابِرًا ۚ نِّعْمَ ٱلْعَبْدُ ۖ إِنَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿٤٤﴾﴾ [ص: ٤٤][1].

واستمر أيوب عليه السلام يدعو الناس إلى اتباع الطريق المستقيم، ولكن أكثر قومه كانوا من أهل الضلالة، وبما أنه كان مستعيناً بالصبر والشكر فقد تحمل عصيان قومه حتى مات عليه السلام، وكان له من العمر ثلاثاً وتسعين سنة.

* * *

(١) «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

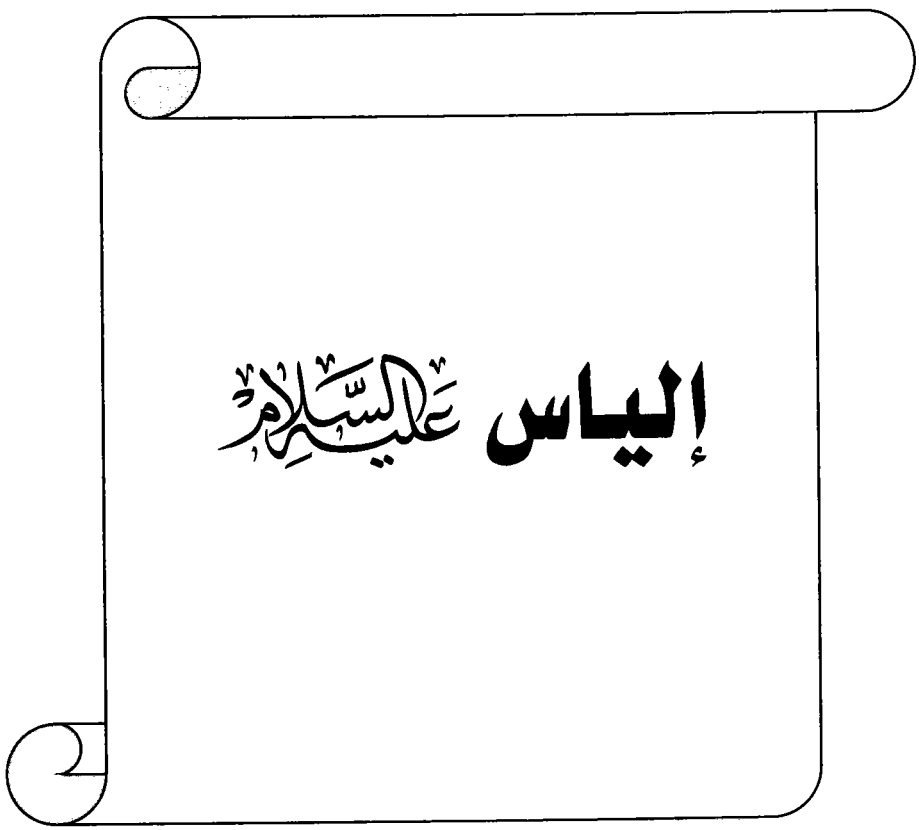
إلياس عليه السلام

إلياس عليه السلام

هو نبي الله إلياس بن ياسين بن فنحاص، يمتد نسبه إلى إبراهيم الخليل عليه السلام.

وهو عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل، أرسله الله إلى أهل بعلبك غربي دمشق، فدعاهم إلى عبادة الله عز وجل، وتَرْكِ عبادة صنم لهم كانوا يسمونه بعلاً.

قال تعالى: ﴿وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴿١٢٥﴾﴾ [الصافات: ١٢٣ ـ ١٢٥].

دعوته عليه السلام إلى قومه:

أرسل الله سبحانه وتعالى إلياس عليه السلام إلى أهل بعلبك فدعاهم إلى ترك عبادة الأصنام والاستمساك بعبادة الله وحده.

لم يستجب قومه ورفضوا رسالته، فدعا ربه فقال: اللهم إن بني إسرائيل قد أبَوا إلا الكفر بك والعبادة لغيرك، فغيّر ما لهم من نعمتك.

فأوحى الله عز وجل: إنّا جعلنا أمر أرزاقهم بيدك فأنت الذي تأمر في ذلك.

فقال إلياس: اللهم فأمسك عليهم المطر.

فحبس الله المطر عنهم ثلاث سنين، حتى هلكت الماشية والشجر وجهد الناس جهداً شديداً.

ولمّا دعا عليهم استخفى عن أعينهم، وكان يأتيه رزقه حيث كان،

فكان بنو إسرائيل كلما وجدوا ريح الخبز في دار قالوا: هنا إلياس فيطلبونه، وينال أهل المنزل منهم شرّ.

وقد أوى ذات مرة إلى بيت امرأة من بني إسرائيل، لها ابن يقال له (إليسع بن أخطوب) به مرض فآوته وأخفت أمره فدعا ربه لابنها فعافاه من الذي كان به.

واتبع إلياس وآمن به وصدّقه ولزمه، فكان يذهب معه حيثما ذهب، ثم إن إلياس عليه السلام قال لبني إسرائيل: إذا تركتم عبادة الأصنام دعوت الله أن يفرّج عنكم، فتركوا أصنامهم ومحدثاتهم، فدعا الله لهم؛ ففرّج عنهم وأنزل عليهم الغيث، فحييت بلادهم ولكن لم يرجعوا عما كانوا عليه ولم يستقيموا، فلمَّا رأى إلياس منهم، دعا ربه أن يقبضه إليه، فقبضه ورفعه.

ولمّا توفي إلياس عليه السلام أوحى الله تعالى إلى أحد الأنبياء واسمه (إليسع) عليه السلام ليقوم في بني إسرائيل، فيدعوهم إلى عبادة الله الواحد القهار[1].

* * *

(١) «تاريخ الرسل والملوك»، الطبري. (بتصرف).

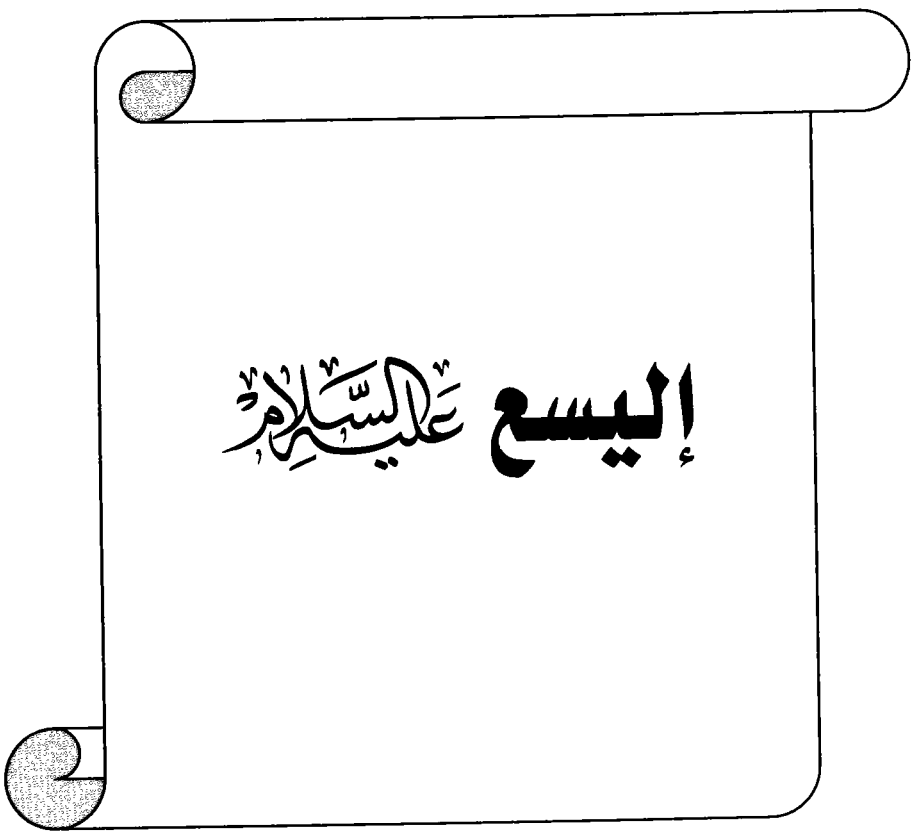
إليسع عليه السلام

إليسع عليه السلام

هو نبي الله إليسع بن أخطوب، ويمتد نسبه إلى يوسف بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وهو عليه السلام من أنبياء بني إسرائيل، ظهرت دعوته في مدينة تسمى (بانياس) إحدى مدن الشام.

دعوته عليه السلام إلى قومه:

قام إليسع عليه السلام بتبليغ الدعوة إلى قومه بعد انتقال إلياس عليه السلام إلى جوار الله عز وجل.

فقام يدعو إلى الله مستمسكاً بمنهاج نبيّ الله إلياس وشريعته، وقد كثرت في زمانه الأحداث والخطايا، وكثر الملوك الجبابرة، فقتلوا الأنبياء، وشرّدوا المؤمنين.

فوعظهم إليسع عليه السلام وخوّفهم من عذاب الله، ولكنهم لم يستجيبوا لدعوته.

ثم توفاه الله وسلط على بني إسرائيل من يسومهم سوء العذاب كما بيّن لنا الله عز وجل في كتابه العزيز الحكيم فقال تعالى: ﴿فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ وَكُفْرِهِم بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَقَتْلِهِمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلِهِمْ قُلُوبُنَا غُلْفٌۢ بَلْ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَيْهَا بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥٥﴾ وَبِكُفْرِهِمْ وَقَوْلِهِمْ عَلَىٰ مَرْيَمَ بُهْتَٰنًا عَظِيمًا ﴿١٥٦﴾﴾ [النساء: ١٥٥ ـ ١٥٦].

* * *

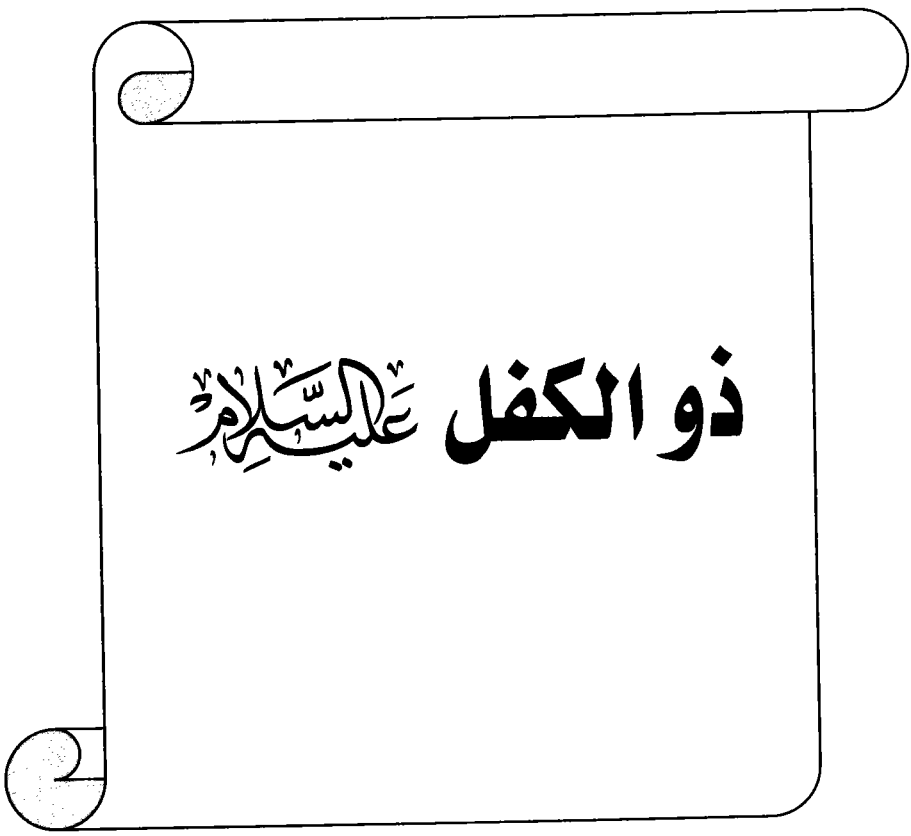
ذو الكفل عليه السلام

ذو الكفل عليه السلام

هو نبي الله ذو الكفل عليه السلام، وكان قد تكفَّل لبني قومه أن يكفيهم أمرهم ويقضي بينهم بالعدل، فسمي ذا الكفل.

قال تعالى: ﴿وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِدْرِيسَ وَذَا ٱلْكِفْلِ ۖ كُلٌّ مِّنَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٨٥﴾ وَأَدْخَلْنَٰهُمْ فِى رَحْمَتِنَآ ۖ إِنَّهُم مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٨٦﴾﴾ [الأنبياء: ٨٥ ـ ٨٦].

سبب تسميته بـ (ذي الكفل):

لمّا كبر إليسع عليه السلام قال: لو أني استخلفت رجلاً على الناس يعمل عليهم في حياتي، حيث أنظر كيف يعمل.

فجمع الناس فقال: مَن يتقبل مني بثلاث أستخلفه على الناس بعدي، يصوم النهار، ويقوم الليل، ولا يغضب.

فقام رجل من قومه، وقال: أنا.

فقال له إليسع عليه السلام: أنت تصوم النهار، وتقوم الليل، ولا تغضب؟

فقال: نعم، فرده ذلك اليوم.

ثم جلس مع الناس في اليوم الثاني وسألهم مثل اليوم الأول.

فسكت الناس، وقام ذلك الرجل فقال: أنا، فاستخلفه.

فاغتاظ إبليس مما حدث وجمع الشياطين وقال لهم: عليكم بفلان، فأعياهم ذلك، فقال لهم: دعوني وإياه، فأتاه في صورة شيخ كبير فقير يريد أن يغضبه، فأتاه حين أخذ مضجعه للقائلة، وكان لا ينام

الليل والنهار إلا تلك القائلة.

فدق الباب فقال: من هذا؟

قال: شيخ كبير مظلوم.

فقام ذو الكفل عليه السلام ففتح الباب فجعل يقص عليه.

فقال له إبليس: إن بيني وبين قومي خصومة، وإنهم ظلموني وفعلوا بي وفعلوا، وجعل يُطَوِّلُ عليه حتى حضر الرواح وذهبت القائلة، يريد أن يغضبه.

فقال ذو الكفل: إذا جلست بين الناس لأحكم بينهم فإني آخذ لك بحقك.

وجلس ذو الكفل في مجلسه يقضي بين الناس، وينتظره فلا يراه.

فلمّا رجع إلى القائلة أخذ مضجعه فدق الباب.

فقال: من هذا؟

فقال إبليس: الشيخ الكبير المظلوم.

ففتح له وقال له: ألم أقل لك إذا قعدت بين الناس فأتني؟

فقال له: إن بني قومي أخبث قوم، إذا عرفوا أنك قاعد قالوا: نعطيك حقك، وإذا قمت جحدوني.

قال له ذو الكفل: انطلق الآن، وإذا قعدت بين الناس فأتني.

فلما جلس ذو الكفل يقضي بين الناس، ونظر فلم يجد هذا الشيخ، ثم شق عليه النعاس فقال لبعض أهله: لا تدعن أحد يقرب هذا الباب حتى أنام، فإني قد شق عليّ النوم.

فلمّا كانت تلك الساعة جاء إبليس في صورة الشيخ الكبير

المظلوم فقال له الرجل: وراءك وراءك.

فقال: قد أتيته أمس وذكرت له أمري وهو ينتظرني.

فقال: لا والله، لقد أمرنا أن لا ندع أحد يقربه.

فلما أعياه نظر فرأى رجلاً داخل البيت فاقترب منه فإذا هو داخل البيت دون أن يفتح له الباب، ويدق على الباب من الداخل.

فاستيقظ ذو الكفل عليه السلام.

فقال: يا فلان، ألم آمرك أن لا تفتح لأحد.

قال: أما من قِبَلي والله لم أفتح له.

فقام ذو الكفل عليه السلام إلى الباب فإذا هو مغلق كما أغلقه، وإذا الرجل معه في البيت فعرفه.

فقال: أعدو الله؟

قال إبليس: نعم، أعييتني في كل شيء ففعلت كل ما ترى لأغضبك. فسماه الله ذا الكفل؛ لأنه تكفل بأمر فوفى به ولم يغضب[1].

* * *

(١) «تفسير الطبري»، الطبري. (بتصرف).

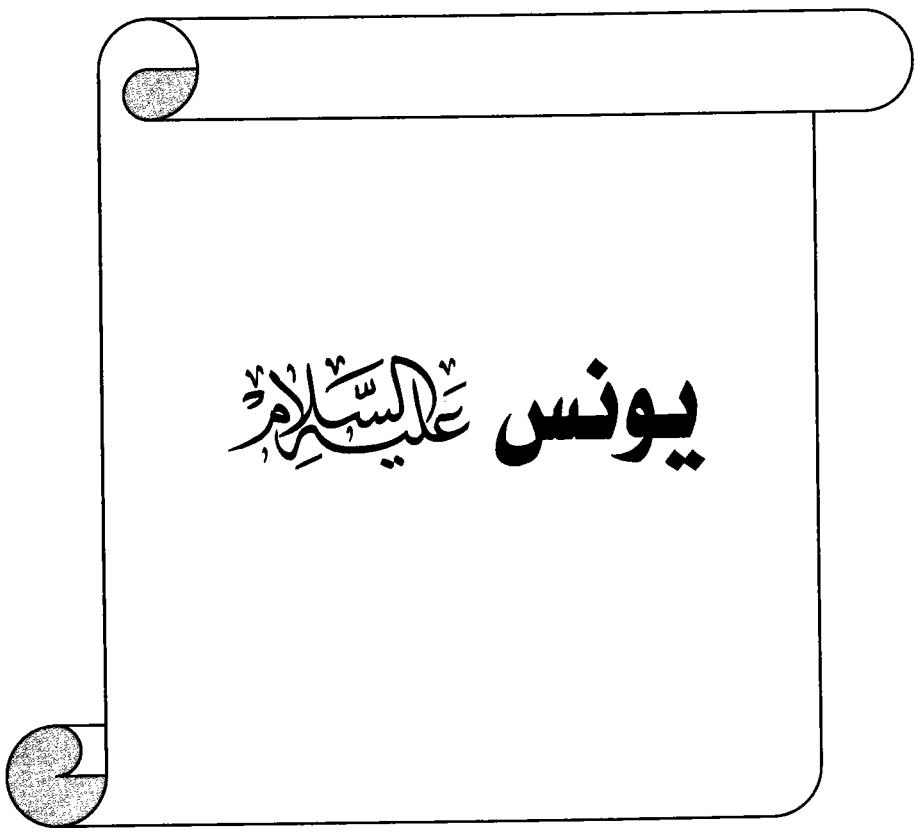
يونس عليه السلام

يونس عليه السلام

هو يونس بن متى نبي الله عليه السلام، بعثه الله سبحانه وتعالى إلى أهل نينوي من أرض الموصل بالعراق إلى مائة ألف أو يزيدون، وكان قومه يعبدون الأصنام، فبعثه إليهم بالنهي عن عبادتها والأمر بالتوبة إلى الله من كفرهم وتوحيده، فأقام على ذلك تسعة أعوام كاملة، ولكنهم أصموا آذانهم، واستغشوا ثيابهم، وأصروا على الباطل، واستكبروا حتى يئس من أمرهم.

يونس في بطن الحوت:

خرج يونس عليه السلام مغاضباً لقومه؛ لأن قومه لم يقبلوا منه، وهو رسول الله عز وجل، اتجه عليه السلام إلى شاطئ البحر وركب السفينة وسارت السفينة في عرض البحر، ولكن الله ألقى على ذلك البحر ريحاً عاصفة جعلت أمواجه تضطرب بشدة وتهدد السفينة بالغرق، ففزع الملاَّحون والركاب، وقالوا: إن فينا صاحب ذنب، فتشاوروا فيما بينهم على أن يقترعوا فمن وقعت عليه القرعة ألقوه من السفينة، فلمَّا اقترعوا وقعت القرعة على نبي الله يونس عليه السلام.

فقالوا: هذا رجل صالح ولا يعقل أن يكون مذنباً ولابدَّ أن القرعة أصابته مصادفة.

فأعادوا ثانية فوقعت عليه أيضاً، فاستعد ليخلع ثيابه ويلقي بنفسه، فأبوا عليه ذلك، فأعادوا القرعة ثالثة، ووقعت عليه أيضاً، فأُلقي في البحر فبعث الله حوتاً عظيماً فالتقمه، ويشير الله سبحانه

وتعالى إلى هذا الموقف فيقول سبحانه: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾﴾ [الصافات: ١٣٩ ـ ١٤٢].

وحينما رأى يونس نفسه مستقرًّا في بطن الحوت بين الظلمات أسرع مستغيثاً بربه: ﴿فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧].

نجاة يونس عليه السلام:

لمَّا التقم الحوت يونس عليه السلام، ألهم الله سبحانه وتعالى الحوت أن لا يصيبه بأذى.

وسمع يونس تسبيح الأسماك والحيتان ودواب البحر، فاتجه إلى تسبيح الله وتمجيده، لا يفتر من ذلك على مدى أربعين يوماً كاملة، ثم قذف به الحوت إلى العراء، ليعود إلى حياته، ويؤدي رسالته كما أمره الله سبحانه.

وفي ذلك يقول الله عز وجل: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبًا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقْدِرَ عَلَيْهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبْحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٨٧﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَنَجَّيْنَٰهُ مِنَ ٱلْغَمِّ ۚ وَكَذَٰلِكَ نُنجِي ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٨٨﴾﴾ [الأنبياء: ٨٧، ٨٨].

خرج يونس عليه السلام من بطن الحوت وهو مريض متعب، فأنبت الله عليه شجرة من يقطين (القرع) لتستره من حر الشمس، وليأكل من ثمرته، فظل في تلك الحالة فترة من الزمن، حتى استردَّ عافيته وذهب روعه، وسكنت نفسه.

ثم أمره الله أن يعود إلى قومه الذين فارقهم ليدعوهم إلى الإيمان، ذهب يونس عليه السلام إلى قومه فأدَّى الرسالة التي أمره الله بها، فصاروا من المهتدين.

قال تعالى: ﴿فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ [الصافات: ١٤٣ ـ ١٤٨][1].

توبة قوم يونس عليه السلام:

نزل الوحي على يونس عليه السلام أن أخبرهم أن العذاب مصبحهم بعد ثلاث ليال إذا لم يتوبوا ويرجعوا عن كفرهم وغيهم.

فأخبر قومه بذلك، وهم يعتقدون صدقه، فدبَّ الخوف إلى قلوبهم، فلما رأوه يحزم أمتعته ليخرج من بينهم، أدركوا أن الأمر جد ولا هزل فيه، فقذف الله في قلوبهم التوبة وندموا على ما كان منهم، وتطهروا وردوا المظالم، وتركوا المحرمات وخرجوا إلى الصحراء بأطفالهم، وأنعامهم ومواشيهم، وتضرعوا إلى الله، وبكى الرجال والنساء والبنون، فتاب الله عليهم وكشف عنهم العذاب، واختصهم الله سبحانه بالثناء دون غيرهم من أهل القرى، فقال سبحانه: ﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ [يونس: ٩٨].

---

(١) «صحيح قصص الأنبياء»، ابن كثير. (بتصرف).

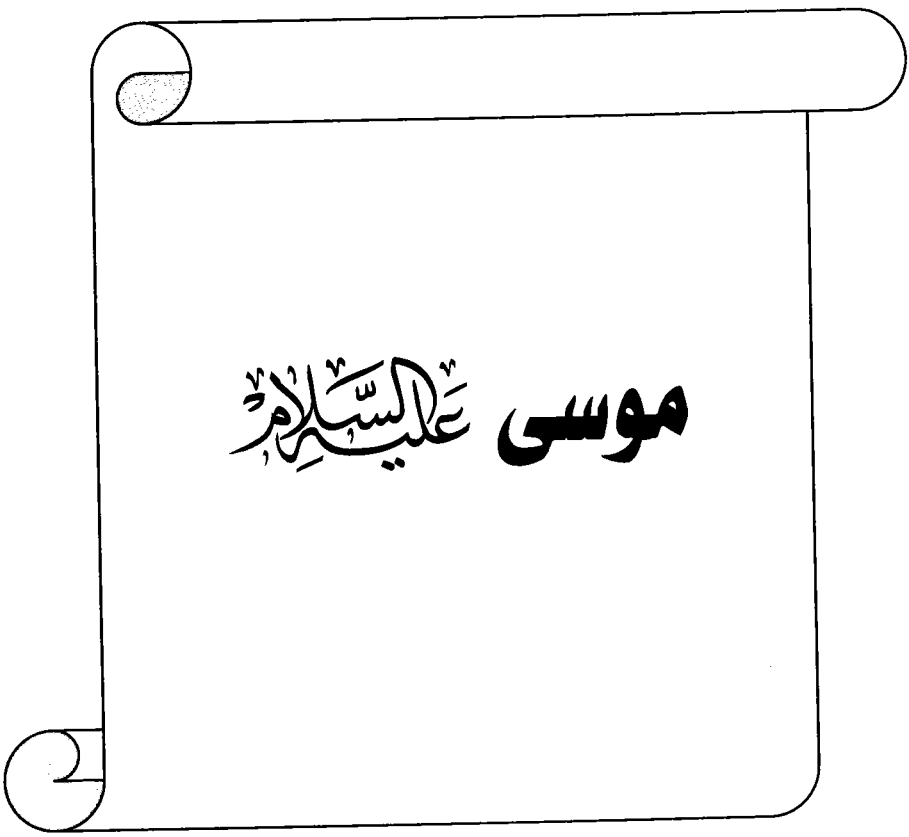
موسى عليه السلام

موسى عليه السلام

هو نبي الله موسى بن عمران بن قاهث بن عازر بن لاوي بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وهو عليه السلام ثالث أنبياء أولي العزم من الرسل بعد نوح وإبراهيم، وكان موسى عليه السلام من بني إسرائيل، يلقَّب بكليم الله.

وقد جاء بكتاب وشريعة سماوية، وكان يريد أن ينجي بني إسرائيل من محنتهم مع فرعون.

ولادته عليه السلام:

كان بنو إسرائيل يعيشون حياة المحنة، وبالرغم من كثرة عددهم إلا أن فرعون وكان اسمه (الوليد بن مصعب) حاكم مصر لم يقم لهم وزناً، لأنه كان من عبدة الأوثان، وبنو إسرائيل من سلالة الأنبياء، فكان يضيِّق عليهم ويكلفهم الأعمال الشاقة، شأنهم شأن العبيد والرقيق.

وفي يوم من الأيام، رأى فرعون في نومه كأن ناراً قد أقبلت من ناحية الشام، حتى اشتعلت على بيوت مصر فأحرقتها، وأحرقت المصريين، وتركت بني إسرائيل.

فدعا فرعون الكهنة والسحرة والمعبرين والمنجمين، فسألهم عن رؤياه، فقالوا: يولد في بني إسرائيل غلام يسلبك الملك، ويقلبك على سلطانك، ويخرجك أنت وقومك من أرضك، ويبدل دينك، وقد

أظلك زمانه الذي يولد فيه.

فأمر فرعون ببثّ العيون في كل مكان، ومن ذلك اليوم بأن يذبحوا كل مولود ذكر يولد في بني إسرائيل، وأن يُبْقُوا البنات.

ويصف الله سبحانه وتعالى جبروت وفساد فرعون فيقول تعالى: ﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ ﴿٤﴾﴾ [القصص: ٤].

وحينئذٍ تراكمت الهموم والأحزان على بني إسرائيل من أجل ما كان يصيبهم من ظلم وطغيان، فأسرع الموت إلى شيوخهم.

فدخل جماعة من المقربين إلى فرعون عليه، وقالوا: إن الموت قد وقع في مشايخ بني إسرائيل، وأنت تميت صغارهم، يوشك أن يقع عبء العمل علينا.

فأمر فرعون بذبح الولدان سنة وتركهم سنة، فولد هارون في السنة التي لا يذبح فيها أحد، فترك، وولد موسى في السنة التي يذبحون فيها، وقد حزنت أم موسى أشد الحزن لما قاربت وضع وليدها، فوضعته خفية دون علم أحد من أتباع فرعون.

وكان الله معه بعونه ورحمته، فألهمها أن ترضعه، وهداها إلى أن تتخذ له صندوقاً تضعه فيه، وتلقي به في النيل، فقال لها سبحانه وتعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٧].

موسى عليه السلام في بيت فرعون:

دعت أم موسى نجاراً من بني إسرائيل، فجعل لها تابوتاً،

ووضعت موسى داخله، وألقته في اليم، فلمَّا توارى عنها ندمت واشتد بها الندم، وتملكتها وساوس الشيطان، وقالت: لو ذبح عندي كان أحب إليَّ من أن ألقيه بيدي إلى حيتان البحر ودوابه.

ثم عصمها الله بعد ذلك من هذه الوساوس، واطمأنت نفسها، وانطلق الماء بموسى يرفعه الموج مرة ويخفضه أخرى، حتى أدخله بين الأشجار عند دار فرعون، في روضة هي مستقى جواري فرعون.

فخرجت جواري فرعون يغتسلن ويستقين، فوجدن التابوت، فأخذنه وظننَّ أن فيه مالاً، فحملنه على حالته حتى أدخلنه على آسية امرأة فرعون، فلمَّا فتحته رأت فيه الغلام، فألقى الله تعالى عليها محبة منه، فرحمته وأحبته حبًّا شديداً.

فلمَّا سمع فرعون بهذا الولد أمر بقتله، فتوسلت إليه زوجه آسية أن يترك هذا الغلام لتقر به أعينهما، وقالت له: ﴿قُرَّتُ عَيْنٍ لِّي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ۝٩﴾ [القصص: ٩].

ولم تزل آسية ترجو فرعون وتلح عليه في الرجاء حتى استجاب لها ووهبه إياها، فعاش في كنف فرعون وزوجه[١].

رجوع موسى عليه السلام إلى حضن أمه:

طلبت أم موسى من ابنتها مريم أن تتبع أثر موسى وتسمع أخباره من بعيد وهم لا يشعرون.

ورأت أخت موسى المراضع وهن يحاولن إرضاعه فلا يستطيعون

---

(١) «الكامل في التاريخ»، ابن الأثير. (بتصرف).

سبيلاً إلى ذلك.

فتقدمت إليهن مشفقة عليهن ناصحة لهن، ودلَّتهن على أمه فطلبوها فحضرت وهم لا يعلمون من أمرها شيئاً.

فلمَّا قرَّبته من ثديها أقبل على الرضاع بنفسٍ راضية.

ففرحت آسية واطمأنت، وطلبت من المرضعة أن تقيم معها في قصر الملك، ولكنها أصرت على أخذه معها في بيتها، واضطرت آسية أن توافق في النهاية.

ورجع الطفل إلى أمه وإخوته ينال من عطفهم وبرّهم بعيداً عن الخوف والفزع، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: ١٢، ١٣].

وبعد أن أتمت أم موسى رضاعته، أتت به إلى بيت فرعون، فعاش بين مظاهر الترف ومباهج الملك والسلطان.

موسى عليه السلام ينصر أحد الإسرائيليين:

شبَّ موسى عليه السلام في بيت فرعون، وكان قوي الحجم، وافر القوة، وفي ذات يوم دخل موسى مدينة مصر على حين غفلةٍ من أهلها، حيث كان النهار قد انتصف، وأُغلقت الأسواق من شدة الحر.

وبينما هو يمشي في ناحية المدينة إذ وجد رجلين يقتتلان ويتصارعان، أحدهما إسرائيلي، والآخر قبطي من قصر فرعون حاكم مصر، فلمَّا رأى الإسرائيلي موسى عليه السلام طلب منه أن يعينهُ على

القبطي، فتدخَّل موسى عليه السلام لينقذ الإسرائيلي من يد القبطي، فضربه بيده ضربة قوية فمات في الحال.

وقد حزن موسى بعد ذلك وأدرك الخطأ الذي وقع فيه، واستعاذ بالله من عمل ووساوس الشيطان، فقال: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ ﴿١٦﴾﴾ [القصص: ١٦].

أصبح موسى عليه السلام بمدينة مصر خائفاً من فرعون وجنوده أن يعلموا أن هذا القتيل الذي قُتل بالأمس إنما قتله موسى في نُصرة رجل من بني إسرائيل.

وبينما كان موسى عليه السلام يساوره الخوف، بَصُرَ بذلك الإسرائيلي الذي نصره بالأمس يستنصره اليوم على قبطي آخر، ويقول: انصرني يا موسى.

عندئذٍ ظهر الغضب في وجه موسى، وعنَّفَ الإسرائيلي على كثرة شرِّه ومخاصمته، وقال له: ﴿إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُّبِينٌ ﴿١٨﴾﴾ [القصص: ١٨].

وأقبل موسى نحوهما، فلمَّا لمح القبطي موسى وقد أراد أن يبطش به، قال له والخوف يملأ قلبه: ﴿يَا مُوسَىٰ أَتُرِيدُ أَن تَقْتُلَنِي كَمَا قَتَلْتَ نَفْسًا بِالْأَمْسِ إِن تُرِيدُ إِلَّا أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الْأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [القصص: ١٩].

ورُفع الخبر إلى فرعون، فعرف أنَّ قاتل ذلك الرجل هو موسى، فأرسل في طلبه، إلا أنَّ رجلاً ناصحاً سَبَقَ جنود فرعون، وسعى إلى موسى وأخبره إشفاقاً عليه من أن يناله فرعون أو جنوده بسوء، ونصحه بالخروج من مصر.

وبيَّن لنا الله سبحانه وتعالى في كتاب العزيز ما فعله هذا الرجل، فقال: ﴿وَجَآءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا ٱلْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ ٱلْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَٱخْرُجْ إِنِّى لَكَ مِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢٠﴾ فَخَرَجَ مِنْهَا خَآئِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِى مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢١﴾﴾ [القصص: ٢٠، ٢١][1].

موسى عليه السلام في مدين:

خرج موسى عليه السلام من مصر متوجهاً نحو مدين وحيداً، ولم يتزود لهذا السفر الطويل، وليس معه إلا الرحمة يرجوها من ربه قائلاً: ﴿عَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يَهْدِيَنِى سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿٢٢﴾﴾ [القصص: ٢٢].

وقد لقي موسى عليه السلام في هذه الرحلة كثيراً من الأهوال والمتاعب، وأنه لم يكن له طعام سوى ورق الشجر، وكان حافياً؛ فسقط جلد قدميه من شدة الحر.

ولمَّا ورد المكان الذي يستقي منه أهل مدين، جلس ليستريح من وعثاء السفر، فوجد الناس يسقون أنعامهم ومواشيهم، ولكنه وجد من دونهم فتاتين تهشان غنمهما لئلا تقترب من الماء.

عندئذٍ تقدم موسى عليه السلام من الفتاتين وسألهما: ما خطبُكُما؟ وما شأنكما؟ ولماذا تدفعان أغنامكما وتحبسانها عن الماء؟

قالتا: لا نستطيع أن نزاحم الرجال والرّعاة، ولهذا السبب فإننا نتأخر عن السَّقي.

قال موسى: ولِمَ ترعيان؟!

---

(١) «روح المعاني في تفسير القرآن»، الألوسي. (بتصرف).

قالتا: إن أبانا شيخ كبير لا يستطيع أن يأتي هو ليرعى ويسقي لضعفه، ولابد لنا من الانتظار حتى ينتهي هذا الزحام.

فقال لهما: سأسقي لكما إن أحببتما.

ونظر موسى عليه السلام فوجد أنَّ الرعاة قد وضعوا على فم البئر صخرة ثقيلة لا يقدرُ على رفعها إلاَّ بضعة رجال، فرفع موسى عليه السلام تلك الصخرة ثم سقى لهما غنمهما، وردَّ الصخرة كما كانت، وبعد أن سقى لهما، آوى إلى ظلِّ شجرة قريبة من بئر الماء، وكان يدعو الله سبحانه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ ﴿٢٤﴾﴾ [القصص: ٢٤].

ثم ذهب موسى عليه السلام يجلسُ تحت ظلِّ الشجرة، بينما عادت الفتاتان إلى أبيهما الشيخ، فعجب لتبكيرهما بالعودة على غير العادة التي ألفها منهما، وسألهما عن سبب هذا التبكير، فأخبرتاه بأمر الرجل الذي أكرمهما وسقى لهما.

وقالت له ابنته الصغرى، وكانت اسمها (صفورا): يبدو يا أبي أنَّ هذا الرجل الكريم آتٍ من مكان بعيد.

قال الأب لها: يا ابنتي، اذهبي إليه وادعيه وقولي له: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾ [القصص: ٢٥].

جاءت صفورا إلى موسى وهي مستحيية في مشيتها، وقالت له في أدب وحياء: ﴿إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا﴾[القصص: ٢٥].

استجاب موسى لدعوة الرجل الصالح، ومن ثم صحب صفورا إلى بيت أبيها، وقال لها: يا أمة الله كوني ورائي، ودليني على الطريق يميناً أو يساراً.

وحينما قدم موسى عليه السلام على أبيها، سلَّم عليه وأخبره بنسبه، وحكى له ما جرى في مصر، وأخبره بما وقع له من فرعون وملئه.

فقال له: ﴿لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [القصص: ٢٥].

زواج موسى عليه السلام:

وجد موسى عليه السلام كل الراحة والسعادة في منزل الشيخ الكريم، شهد فهدأت نفسه، واطمأن قلبه.

وكان موسى عليه السلام صادقاً أميناً، فأعجب به الشيخ وبنتاه، واتجهت نفوسهم إلى الإبقاء عليه في منزلهم فترة طويلة، وتحدثت إحدى البنتين بهذه الرغبة إلى أبيها، فقالت: ﴿يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: ٢٦].

وحينئذٍ سألها أبوها: وماذا تعرفين عن قوته وأمانته؟

فأخذت تحدث أباها كيف استطاع أن يسقي لها ولأختها، وكيف تعفف أن يمشي وراءها حتى لا يرى شيئاً من جسمها إذا عصفت الريح، فمشى أمامها، وطلب إليها أن تصف له الطريق.

تعلق قلب الشيخ الكبير بموسى عليه السلام، وأراد أن يزوجه إحدى ابنتيه، فقال له: يا موسى إني أريد أن أزوجك إحدى ابنتي هاتين، وفي نظير ذلك تقوم بمعاونتي على أعباء الحياة ثمانية أعوام، فإن أتممتها عشراً كان ذلك برًّا منك وفضلاً وكرماً، وسأكون لك إن شاء الله من الأوفياء المخلصين.

ويصور لنا القرآن الكريم ذلك، فيقول على لسان الشيخ: ﴿إِنِّي أُرِيدُ أَنْ أُنْكِحَكَ إِحْدَى ابْنَتَيَّ هَاتَيْنِ عَلَى أَنْ تَأْجُرَنِي ثَمَانِيَ حِجَجٍ فَإِنْ أَتْمَمْتَ

عَشْرًا فَمِنْ عِندِكَ ۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنْ أَشُقَّ عَلَيْكَ ۚ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٢٧﴾ قَالَ ذَٰلِكَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ ۖ أَيَّمَا ٱلْأَجَلَيْنِ قَضَيْتُ فَلَا عُدْوَٰنَ عَلَىَّ ۖ وَٱللَّهُ عَلَىٰ مَا نَقُولُ وَكِيلٌ ﴿٢٨﴾﴾ [القصص: ٢٧، ٢٨].

قال رسول الله ﷺ: «**سألت جبريل: أيّ الأجلين قضى موسى؟ قال: أكملُها وأتمُّهما**»(١).

قضاء موسى عليه السلام الأجل وخروجه من أرض مدين:

تزوج موسى عليه السلام من صنورا، ووفَّى للشيخ بما عاهده عليه، ومكث يعمل عنده، ووفَّى بأوفى الأجلين، وهو عشر سنين.

أمضى موسى عليه السلام عشر أعوام يرعى الغنم ويرعى الشيخ، ثم عزم بعد ذلك الخروج من مدين بعد أن أتم الأجل.

قال رسول الله ﷺ: «**ما بعث الله نبيًّا إلا رعى الغنم**»، فقال أصحابه: وأنت؟ فقال: «**نعم، كنتُ أرعاها على قراريط لأهل مكة**»(٢).

خرج موسى عليه السلام مع أهله متجهين إلى مصر، وبينما كان سائراً ومعه أهله ضلَّ الطريق.

ولكن هداية الله كانت تلاحقه، فتضيء له السبيل، ذلك بأنه لم يمكث إلا قليلاً حتى أبصر من الجهة التي تلي جبل الطور ناراً، وكان البرد شديداً، فحط رحاله، وقال لأهله: ﴿ٱمْكُثُوٓا۟ إِنِّىٓ ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّىٓ ءَاتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ﴾[القصص: ٢٩].

---

(١) «تاريخ الأمم والملوك»، الطبري. (بتصرف).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢/٤٠٨)، وصحَّحه الألباني في «السلسلة الصحيحة»: (١٨٨٠).

بدء نبوّة موسى عليه السلام :

انطلق موسى مسرعاً يتوكأ على عصاه باتجاه النَّار التي تراءت له على بُعد، فلما وصل إلى النار وجد الضياء في شجرة، ولم يجد أثراً لاشتعال النار، فرجع عنها وأوجس في نفسه خيفة.

ثم سمع النداء الذي آنسه وأذهب حيرته ووحشته، حيث كلَّمه ربه قائلاً سبحانه: ﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ فَٱخْلَعْ نَعْلَيْكَ ۖ إِنَّكَ بِٱلْوَادِ ٱلْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿١٢﴾﴾ [طه: ١٢].

ازدادت دهشة موسى عليه السلام فأراد الله أن يطمئن قلبه، فقال له سبحانه: ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنَا۠ فَٱعْبُدْنِى وَأَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ لِذِكْرِىٓ ﴿١٤﴾ إِنَّ ٱلسَّاعَةَ ءَاتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَىٰ كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا تَسْعَىٰ ﴿١٥﴾ فَلَا يَصُدَّنَّكَ عَنْهَا مَن لَّا يُؤْمِنُ بِهَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ فَتَرْدَىٰ ﴿١٦﴾﴾ [طه: ١٤ ـ ١٦].

فلمَّا سمع موسى عليه السلام كلام الله عز وجل؛ هدأت نفسه، واستأنس بالنداء.

ثم سأله الله سبحانه وتعالى ـ وهو أعلم ـ: ﴿وَمَا تِلْكَ بِيَمِينِكَ يَٰمُوسَىٰ ﴿١٧﴾﴾ [طه: ١٧].

فأجابه موسى: ﴿قَالَ هِىَ عَصَاىَ أَتَوَكَّؤُا۟ عَلَيْهَا وَأَهُشُّ بِهَا عَلَىٰ غَنَمِى وَلِىَ فِيهَا مَـَٔارِبُ أُخْرَىٰ ﴿١٨﴾﴾ [طه: ١٨].

فقال له سبحانه: ﴿أَلْقِهَا يَٰمُوسَىٰ ﴿١٩﴾﴾، فألقاها امتثالاً لأمر ربه.

لمَّا رمى موسى العصا تحوَّلت العصا التي يتوكأ عليها إلى ثعبان مبين، عندئذٍ احتل الخوف قلبه، ولكن جاءه النداء من الله سبحانه وتعالى مطمئناً: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّى لَا يَخَافُ لَدَىَّ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿١٠﴾﴾ [النمل: ١٠].

ثم توجه ربه بمعجزة أخرى يزداد بها يقيناً واطمئناناً بأن الله قد اختاره نبياً ورسولاً.

وذلك أن الله أمره قائلاً: ﴿ٱسْلُكْ يَدَكَ فِى جَيْبِكَ تَخْرُجْ بَيْضَآءَ مِنْ غَيْرِ سُوٓءٍ وَٱضْمُمْ إِلَيْكَ جَنَاحَكَ مِنَ ٱلرَّهْبِ﴾ [القصص: ٣٢].

وضع موسى عليه السلام يده في جيبه وأخرجها، فإذا هي بيضاء كالبدر في وسط السماء.

وفي تلك اللحظة جاء نداء من العلي الحكيم لموسى: ﴿فَذَٰنِكَ بُرْهَـٰنَانِ مِن رَّبِّكَ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَإِيْهِۦٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَـٰسِقِينَ ﴿٣٢﴾﴾ [القصص: ٣٢].

عرف موسى عليه السلام أنه أُمر بالرسالة من رب العالمين لفرعون وملئه، وما كان يقدر مدى الخطر الذي سيصيبه حينما يلتقي مع فرعون في كبريائه وسلطانه، وجبروته وطغيانه، فتوجَّه إلى الله سبحانه بهذا الرجاء وقال: ﴿رَبِّ إِنِّى قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَن يَقْتُلُونِ ﴿٣٣﴾ وَأَخِى هَـٰرُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّى لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِىَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِىٓ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ أَن يُكَذِّبُونِ ﴿٣٤﴾﴾ [القصص: ٣٣، ٣٤].

وهنا استجاب الله دعاءه ورجاءه، فقال الله سبحانه وتعالى لموسى عليه السلام: ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَـٰنًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا ۚ بِـَٔايَـٰتِنَآ أَنتُمَا وَمَنِ ٱتَّبَعَكُمَا ٱلْغَـٰلِبُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [القصص: ٣٥][1].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»، باب رعي الغنم على قراريط.

دعوة موسى وهارون عليهما السلام لفرعون:

أعدَّ الله موسى وهارون لرسالته وأمرهما أن يذهبا إلى فرعون، وقال لهما: ﴿كَلَّا فَاذْهَبَا بِآيَاتِنَا إِنَّا مَعَكُم مُّسْتَمِعُونَ ﴿١٥﴾ فَأْتِيَا فِرْعَوْنَ فَقُولَا إِنَّا رَسُولُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦﴾﴾ [الشعراء: ١٥، ١٦].

انطلقا موسى وهارون إلى باب فرعون ولم يؤذن لهما سنة، حتى قال البواب لفرعون: إن هنا إنساناً يزعم أنه رسول رب العالمين، فقال له: ائذن له، لعلنا نضحك منه ونسخر به.

فلمَّا دخلا عليه عرف موسى، فقال له: ﴿أَلَمْ نُرَبِّكَ فِينَا وَلِيدًا وَلَبِثْتَ فِينَا مِنْ عُمُرِكَ سِنِينَ ﴿١٨﴾ وَفَعَلْتَ فَعْلَتَكَ الَّتِي فَعَلْتَ وَأَنتَ مِنَ الْكَافِرِينَ ﴿١٩﴾﴾ [الشعراء: ١٨].

فردَّ عليه موسى عليه السلام قائلاً: ﴿فَعَلْتُهَا إِذًا وَأَنَا مِنَ الضَّالِّينَ ﴿٢٠﴾ فَفَرَرْتُ مِنكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ فَوَهَبَ لِي رَبِّي حُكْمًا وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الشعراء: ٢٠ ـ ٢١].

ثم قال له موسى: ﴿يَا فِرْعَوْنُ إِنِّي رَسُولٌ مِّن رَّبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٠٤﴾ حَقِيقٌ عَلَىٰ أَن لَّا أَقُولَ عَلَى اللَّهِ إِلَّا الْحَقَّ قَدْ جِئْتُكُم بِبَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَرْسِلْ مَعِيَ بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿١٠٥﴾﴾ [الأعراف: ١٠٤، ١٠٥].

استغرب فرعون دعوة موسى له بعبادة الله وحده، فشرع يجادله في ربوبية الله ويسأله: ﴿وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الشعراء: ٣].

فقال موسى لفرعون وحاشيته: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِن كُنتُم مُّوقِنِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [الشعراء: ٢٤].

فالتفت فرعون إلى من حوله من أتباعه وأعوانه مظهراً العجب والسخرية قائلاً: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [الشعراء: ٢٥].

وتابع موسى عليه السلام كلامه قائلاً: ﴿رَبُّكُمْ وَرَبُّ ءَابَآئِكُمُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [الشعراء: ٢٦].

فردَّ عليه فرعون وقال لموسى وهو ينظر إلى أعوانه: ﴿إِنَّ رَسُولَكُمُ ٱلَّذِىٓ أُرْسِلَ إِلَيْكُمْ لَمَجْنُونٌ ﴿٢٧﴾﴾ [الشعراء: ٢٧].

فاستمرَّ موسى ناصحاً لفرعون ومن معه فقال لهم: ﴿رَبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَآ ۖ إِن كُنتُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الشعراء: ٢٨].

ولمَّا رأى موسى وهارون عدم استجابة فرعون لهما حذّراه من عذاب الله فقالا: ﴿إِنَّا قَدْ أُوحِىَ إِلَيْنَآ أَنَّ ٱلْعَذَابَ عَلَىٰ مَن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰ ﴿٤٨﴾﴾ [طه: ٤٨].

قال فرعون في سخرية واستهزاء: ﴿فَمَن رَّبُّكُمَا يَٰمُوسَىٰ ﴿٤٩﴾﴾ [طه: ٤٩].

قال موسى: ﴿رَبُّنَا ٱلَّذِىٓ أَعْطَىٰ كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُۥ ثُمَّ هَدَىٰ ﴿٥٠﴾﴾ [طه: ٥٠].

قال فرعون: ﴿فَمَا بَالُ ٱلْقُرُونِ ٱلْأُولَىٰ ﴿٥١﴾﴾ [طه: ٥١].

قال: ﴿عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى فِى كِتَٰبٍ ۖ لَّا يَضِلُّ رَبِّى وَلَا يَنسَى ﴿٥٢﴾ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّن نَّبَاتٍ شَتَّىٰ ﴿٥٣﴾﴾ [طه: ٥٢ ـ ٥٣].

عصا موسى عليه السلام:

اشتدَّ الجدل بين موسى عليه السلام وفرعون، فثار فرعون واضطرب قلبه فلم يجد لنفسه حيلة ومخرجاً مما هو فيه إلا التهديد والوعيد، فقال لموسى: ﴿لَئِنِ ٱتَّخَذْتَ إِلَٰهًا غَيْرِى لَأَجْعَلَنَّكَ مِنَ ٱلْمَسْجُونِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الشعراء: ٢٩].

فأجابه موسى عليه السلام في رويّة واطمئنان: ﴿أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُّبِينٍ ﴿٣٠﴾﴾ [الشعراء: ٣٠].

فقال فرعون وقد أخذه الكبرياء والعجب: ﴿فَأْتِ بِهِۦٓ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٣١﴾﴾ [الشعراء: ٣١].

فألقى موسى عصاه فإذا هي حيّة عظيمة مسرعة إلى فرعون، ﴿فَأَلْقَىٰهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَىٰ ﴿٢٠﴾﴾ [طه: ٢٠].

فلمَّا رآها فرعون قاصدة إليه اشتدَّ به الفزع، وملأ الرعب قلبه وانقلب من فوق سريره، واستغاث بموسى أن يكفها عنه، ففعل، ثم أخرج يده من جيبه، فإذا هي بيضاء من غير سوء، ثم أعادها فعادت كما كانت.

وهنا عجب فرعون، واستشار الملأ من حوله ماذا يصنع؟

فأجابوه بما طمأنه وهدأ من روعه وقالوا له: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخْرِجَاكُم مِّنْ أَرْضِكُم بِسِحْرِهِمَا وَيَذْهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلْمُثْلَىٰ ﴿٦٣﴾﴾ [طه: ٦٣] أي: يضيع ما أنتم فيه من ملك ونعيم وسلطان.

ومع هذا كله ظلَّ فرعون في غيه وضلاله ونظر إلى الملأ من قومه وقال لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى﴾ [القصص: ٣٨].

ثم قال لوزيره: ﴿يَٰهَٰمَٰنُ ٱبْنِ لِى صَرْحًا لَّعَلِّىٓ أَبْلُغُ ٱلْأَسْبَٰبَ ﴿٣٦﴾ أَسْبَٰبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ فَأَطَّلِعَ إِلَىٰٓ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّى لَأَظُنُّهُۥ كَٰذِبًا﴾ [غافر: ٣٦، ٣٧].

موسى عليه السلام والسحرة:

رأى فرعون والملأ من قومه ما فعله موسى عليه السلام فظنوه سحراً وبهتاناً وحسبوا أنهم لو تجمعوا لمقاومة هذا السحر بسحر مثله لانتهت حجته، وسقط برهانه.

فانتهى الرأي بهم إلى فرعون أن يمهل موسى وأخاه، ويبعث في طلب السحرة من آفاق مصر ليأتوا بمثل ما أتى به موسى، فتنهار معجزته ويتلاشى ما ادعاه من النبوة.

أرسل فرعون أعوانه في أنحاء مصر ليأتوه بالسحرة، فجاءوا بكثيرين منهم، فطلب السحرة من فرعون الأجر الجزيل إذا تفوّقوا على موسى في سحره فقبل فرعون ذلك ووعد بجعلهم من المقربين.

وأقبل السحرة في اليوم الموعود، وكانوا يثقون بأنفسهم ثقة لا تحدها حدود، وقالوا لفرعون: ﴿إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِن كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾﴾ [الأعراف: ١١٣].

فقال لهم: ﴿نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٤].

ومنذ سمع السحرة وعد فرعون توجهوا إلى موسى وقالوا: ﴿يَا مُوسَىٰ إِمَّا أَن تُلْقِيَ وَإِمَّا أَن نَّكُونَ نَحْنُ الْمُلْقِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [الأعراف: ١١٥].

فأصرَّ موسى عليه السلام أن يلقوا سحرهم أولاً.

فألقوا ما معهم من عصي وحبال، فامتلأ المكان حيّات وثعابين وخُيِّل إلى موسى والرائين أنها تسعى.

فخاف الناس من هذا المشهد، ووقع في قلوبهم الخوف والرعب.

عندئذٍ اعتقد فرعون وجنوده وكبار أعوانه أن السحرة قد نجحوا فيما صنعوا، وأن موسى لن يستطيع أن يقاوم هذا السحر العظيم.

ووصف الله سبحانه وتعالى حال موسى حين رأى هذا السحر فقال سبحانه: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِۦ خِيفَةً مُّوسَىٰ ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنتَ الْأَعْلَىٰ ۝٦٨﴾ [طه: ٦٧ ـ ٦٨].

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام أن يلقي عصاه، فألقاها فكانت المعجزة الكبرى، وإذا هي ثعبان ضخم يبتلع كل ما يصنعون.

هنا علم السحرة أن السحر لا يفعل مثل ذلك؛ فخروا ساجدين لله تعالى، وقالوا: ﴿ءَامَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ۝٤٧ رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾ [الشعراء: ٤٧، ٤٨].

فاشتد غضب فرعون، وقال لهم: ﴿ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ ۖ إِنَّهُۥ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ ۖ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَٰفٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَآ أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ ۝٧١﴾ [طه: ٧١].

ولكن السحرة لم يخافوا من تهديد فرعون، فلم يزدهم هذا التهديد والوعيد إلا إيماناً على إيمانهم، وقالوا لفرعون: ﴿إِنَّآ ءَامَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَٰيَٰنَا وَمَآ أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ ۗ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰٓ ۝٧٣﴾ [طه: ٧٣].

فسبحان الله، ما أعجب أمرهم! قد ألقوا حبالهم وعصيهم للكفر والجحود، ثم ألقوا رؤوسهم بعد ساعة للشكر والسجود[١].

---

(١) «التفسير الكبير»، فخر الدين الرازي، «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

إيذاء موسى وبني إسرائيل:

رأى فرعون المعجزات التي أتى بها موسى، فتمادى في كفره وأصرَّ على عناده؛ ولامه الأشراف من قومه على ترك موسى وأتباعه يعبدون الله وحده ويتركون عبادته هو وآلهته، فطمأنهم فرعون قائلاً: ﴿ذَرُونِيٓ أَقۡتُلۡ مُوسَىٰ وَلۡيَدۡعُ رَبَّهُۥٓۖ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمۡ أَوۡ أَن يُظۡهِرَ فِي ٱلۡأَرۡضِ ٱلۡفَسَادَ ٢٦﴾ [غافر: ٢٦].

فوافقه كبار قومه على ذلك، فطلبوا منه أن ينزل بموسى ومن معه ألوان العذاب حتى يكونوا عبرة للناس.

هدد فرعون وتوعد، وأنذر موسى وقومه بقتل الأبناء واستحياء النساء إذا ظلوا على طريقتهم ولم يرجعوا عن ملتهم.

حينئذٍ طلب موسى من قومه أن يلجأوا إلى الله الذي يكشف السوء، فقال لهم: ﴿ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨﴾ [الأعراف: ١٢٨].

فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ﴾ [الأعراف: ١٢٩].

فأكد لهم موسى أن مع العسر يسراً، وأن بعد الضيق فرجاً ومخرجاً، وأن الله بقوته وجبروته لن يترك هذا الظلم يدوم، ووعدهم بالنصر القريب.

مؤمن آل فرعون:

جاء رجل من آل فرعون مؤمناً، وكان يكتم إيمانه؛ خوفاً من فرعون وبطشه، فتصدى لفرعون وقومه منذراً ومحذراً وناصحاً، فقال

لهم: ﴿أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءَكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ ۖ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ ﴿٢٨﴾﴾ [غافر: ٢٨].

ثم قال لهم: ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم من قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم، لقد انتقم الله منهم على طغيانهم وظلمهم، فما لكم تجادلون في الحق بعد أن جاءكم.

تابع هذا المؤمن دعوتهم إلى سبيل الحق والرشاد فنصحهم بعدم الاغترار بهذه الدنيا الفانية، والعمل للآخرة دار البقاء.

ثم لامهم هذا المؤمن على دعوتهم له إلى الكفر بينما هو يدعوهم إلى الإيمان والنجاة من النار.

ثم أخبرهم بأنه سيأتي وقت يذكرون فيه نصحه إياهم وأنه يفوض أمره إلى الله.

ولمّا انتهى هذا المؤمن من نصحه، وأظهر إيمانه، قصدوا قتله، فهرب منهم، ونجَّاه الله من مكرهم، وحلَّ عذاب الله بفرعون وقومه.

استخفاف فرعون بموسى عليه السلام:

نصح موسى عليه السلام لفرعون وأخلص في نصحه، فلم يغيّر من نفس فرعون، ولم يخفف من غروره وكبريائه، بل زاده عناداً وطغياناً، استمر فرعون في غيه وضلاله، وأخذته عزة الملك، فجمع قومه ونادى فيهم قائلاً: ﴿يَا قَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَٰذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي ۖ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴿٥١﴾ أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ [الزخرف: ٥١ ـ ٥٢].

استهدف فرعون بكلامه الباطل عقول الناس، وانقادوا إليه لأنهم كانوا قوماً خارجين عن طاعة الله، وبيّن لنا هذا الله سبحانه وتعالى في كتابه فقال تعالى: ﴿فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَوْمًا فَٰسِقِينَ ﴿٥٤﴾﴾ [الزخرف: ٥٤].

آيات الله على فرعون وقومه:

لم تنفع فرعون وقومه الموعظة الحسنة من موسى عليه السلام، بل ازدادوا علوًّا في الأرض وطغياناً وتعذيباً للمؤمنين.

عندئذٍ دعا موسى ربه قائلاً: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَهُۥ زِينَةً وَأَمْوَٰلًا فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۙ رَبَّنَا لِيُضِلُّوا۟ عَن سَبِيلِكَ ۖ رَبَّنَا ٱطْمِسْ عَلَىٰٓ أَمْوَٰلِهِمْ وَٱشْدُدْ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُوا۟ حَتَّىٰ يَرَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ٱلْأَلِيمَ ﴿٨٨﴾﴾ [يونس: ٨٨].

استجاب الله سبحانه دعاء موسى، فقال تعالى: ﴿قَدْ أُجِيبَت دَّعْوَتُكُمَا فَٱسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَآنِّ سَبِيلَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾﴾ [يونس: ٨٩].

هنا أمر الله سبحانه وتعالى موسى بأن يعلنهم بما ينتظرهم من متاعب وأهوال إن ظلوا على كفرهم وغيّهم.

وأخذت النذر تتوالى مؤذنة بغضب الله عليهم، فيطلبون من موسى أن يسأل ربّه كشف الضر عنهم.

فإذا سأل ربه واستجاب له رجعوا إلى ما كانوا فيه من الغي والضلال، وهكذا ظلّوا في كفرهم حتى بطش الله بهم بطشته الكبرى، وأخذهم بظلمهم، وحاق بهم عذاب الدنيا والآخرة.

أرسل الله سبحانه وتعالى إلى فرعون وقومه تسع آيات، قال

تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَىٰ تِسْعَ ءَايَٰتٍۭ بَيِّنَٰتٍ فَسْـَٔلْ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِذْ جَآءَهُمْ فَقَالَ لَهُۥ فِرْعَوْنُ إِنِّى لَأَظُنُّكَ يَٰمُوسَىٰ مَسْحُورًا ﴿١٠١﴾﴾ [الإسراء: ١٠١].

أما النذر والآيات التي سبقت إغراق فرعون وقومه فهي: الجدب ونقص الثمرات، والطوفان، والجراد، والقمل، والضفادع، والدم.

قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ ﴿١٣٣﴾﴾ [الأعراف: ١٣٣].

فأما الجدب فهو القحط والجوع الذي ترتب على نقص النيل وتقصيره في إرواء الأرض، ونتج عن ذلك نقص المال وهلاك الأنفس والثمرات.

وأما الطوفان فقد كان بإغراق النيل لأرضهم، أو نزول المطر الكثير الذي يضر الزرع ويتلفه، ويعوق الناس عن السير إلى العمل والمشي في مناكب الأرض.

وأما الجراد فهو آفة مدمرة مهلكة تطغى على أرزاق الناس وتنازعهم أقواتهم.

والقمل انتشر في أجسامهم فنغّص عليهم معيشتهم.

وأما الضفادع فقد كانت تسقط في طعامهم وفراشهم وبين ملابسهم.

والدم كذلك كان نذيراً وآية من الله، لأن الحياة قد استحالت إلى دماء وفي ذلك بلاء أي بلاء.

تتابعت آيات الله على آل فرعون، فأرسل عليهم الطوفان وهو الماء ففاض على وجه الأرض، فكانوا لا يقدرون على أن يخرجوا، ولا أن يعملوا شيئاً حتى جهدوا جوعاً.

وحينئذٍ قال فرعون والملأ من قومه لموسى عليه السلام: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ لَئِن كَشَفْتَ عَنَّا ٱلرِّجْزَ لَنُؤْمِنَنَّ لَكَ وَلَنُرْسِلَنَّ مَعَكَ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ﴿١٣٤﴾﴾ [الأعراف: ١٣٤].

فدعا موسى ربه فكشفه عنهم، فلم يفوا له بشيء.

ثم أرسل الله عليهم الجراد فأكل الشجر، بل كان يأكل مسامير الأبواب من الحديد ونازعهم في أقواتهم.

فقالوا مثل ما قالوا.

فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء.

فأرسل عليهم القمل، حتى غلب على البيوت والأطعمة ومنعهم النوم، فلمَّا جهدهم قالوا له مثل ما كانوا يقولون.

فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا.

فأرسل عليهم الضفادع، فملأت البيوت والأطعمة والآنية فلم يكشف أحد ثوباً ولا طعاماً إلا وجد فيه الضفادع.

فلمَّا جهدهم ذلك قالوا مثل ما قالوا.

فدعا ربه فكشف عنهم، فلم يفوا له بشيء مما قالوا.

فأرسل عليهم الدم، حتى صارت مياه آل فرعون دماً، لا يستقون من بئر ولا نهر ولا يغترفون من إناء إلا عاد دماً.

وفي ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَهُم بِـَٔايَٰتِنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَضْحَكُونَ ﴿٤٧﴾ وَمَا نُرِيهِم مِّنْ ءَايَةٍ إِلَّا هِىَ أَكْبَرُ مِنْ أُخْتِهَا ۖ وَأَخَذْنَٰهُم بِٱلْعَذَابِ

لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤٨﴾ وَقَالُوا يَا أَيُّهَ السَّاحِرُ ادْعُ لَنَا رَبَّكَ بِمَا عَهِدَ عِندَكَ إِنَّنَا لَمُهْتَدُونَ ﴿٤٩﴾ فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِذَا هُمْ يَنكُثُونَ﴾[الزخرف: ٤٧ ـ ٥٠][1].

هلاك فرعون وجنوده:

انطلق موسى عليه السلام بقومه بني إسرائيل من أرض مصر ذاهباً إلى أرض فلسطين بأمر من الله سبحانه وتعالى، ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [الشعراء: ٥٢].

وقد فزع فرعون لخروج موسى وقومه، وظنّ أنهم خرجوا ليجمعوا شملهم ويستكملوا قوتهم ليعودوا إلى مهاجمته والقضاء عليه.

فأرسل جنده وأعوانه إلى مدائن مملكته يجمعون له الأشدَّاء من قومه للحاق بموسى ومن معه.

خرج فرعون وجنوده يتبعون موسى وبني إسرائيل وتركوا وراءهم ما كانوا يتمتعون به من بساتين وعيون الماء وكنوز من الذهب، ومقام كريم من القصور العالية.

وكان بنو إسرائيل قد وصلوا ساحل البحر الأحمر على خليج السويس، وأدركهم فرعون عندما طلعت الشمس، فظنوا أنهم هالكون، وقالوا لموسى: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الشعراء: ٦١].

ولكن موسى عليه السلام أجابهم بما ملأ قلوبهم سكينة وطمأنينة، فقال لهم: ﴿كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾﴾ [الشعراء: ٦٢].

---

(١) «البداية والنهاية»، ابن كثير. (بتصرف).

ثم تقدم الصفوف ونظر إلى البحر وهو متلاطم بأمواجه، وكان معه أخوه هارون، ومعهما (يوشع بن نون)، وهو يومئذٍ من سادات بني إسرائيل وعلمائهم، وكان مع هؤلاء جميعاً مؤمن آل فرعون.

نظر موسى عليه السلام إلى البحر وقال: هاهنا أمرت أن أسير.

فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى موسى ﴿فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ ﴿٧٧﴾﴾ [طه: ٧٧].

ثم أمر الله سبحانه موسى عليه السلام بالنزول في هذا الطريق ومعه قومه من بني إسرائيل، فانحدروا فيه مسرعين مستبشرين، وقد وضحت لهم آية الله وقدرته، فلما اجتاز موسى ومن معه البحر، كان فرعون حينئذٍ قد وصل هو وجنوده إلى البحر، فرأوا بأعينهم هذا المنظر الهائل الذي لم يروه من قبل.

وظنَّ فرعون وجنوده أن هذه الطرق اليابسة التي مهدت في جوف البحر ستظل على حالها إلى أن يتم عبورهم.

فنزلوا إلى البحر من هذه الطرق غافلين عما أعدَّه الله لهم.

حتى إذا تم نزولهم جاء أمر الله.

فانطبق البحر عليهم، ودهمتهم أمواجه الصاخبة، وحق عليهم القول، فكانوا من المغرقين.

وحينئذٍ صاح فرعون يلتمس النجاة من الهول الذي أحاط به، قائلاً: ﴿آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يونس: ٩٠].

فأجابه الحق سبحانه: ﴿آلْآنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ

﴿ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾ فَٱلْيَوْمَ نُنَجِّيكَ بِبَدَنِكَ لِتَكُونَ لِمَنْ خَلْفَكَ ءَايَةً وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلنَّاسِ عَنْ ءَايَٰتِنَا لَغَٰفِلُونَ ﴿٩٢﴾﴾ [يونس: ٩١ - ٩٢].

هكذا كانت عاقبة آل فرعون في الدنيا إغراقهم في البحر، أما في الآخرة فأعدَّ الله لهم عذاباً أليماً بما كانوا يفسقون.

قال تعالى: ﴿وَحَاقَ بِـَٔالِ فِرْعَوْنَ سُوٓءُ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٥﴾ ٱلنَّارُ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا غُدُوًّا وَعَشِيًّا ۚ وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ أَدْخِلُوٓا۟ ءَالَ فِرْعَوْنَ أَشَدَّ ٱلْعَذَابِ ﴿٤٦﴾﴾ [غافر: ٤٥، ٤٦][1].

نعم الله على بني إسرائيل:

تابع بنو إسرائيل مسيرهم وجاءوا إلى الشاطئ الشرقي فلم يجدوا ماءً لشربهم ولا مساكن يأوون إليها، ولا شجراً يلتمسون تحته الظل شكو إلى موسى عليه السلام ما يلقون من عناء.

فدعا موسى ربه، فساق إليهم الغمام يظلهم ويقيهم قسوة الحر، وحينما تعرض زادهم للنفاد، واشتدَّ بهم الجوع حتى أوشكوا على الهلاك، أرسل الله عليهم الرياح تحمل لهم رزقاً حسناً وطعاماً شهيًّا، هو المن والسلوى (المن مادة تلصق بخشب بعض الأشجار وفيها حلاوة تشبه حلاوة العسل، وهي مع ذلك لينة سهلة الهضم، والسلوى طائر السماني كان يغطي الأرض فيأخذ منه كل إنسان حاجته).

قال تعالى: ﴿وَظَلَّلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْغَمَٰمَ وَأَنزَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلْمَنَّ وَٱلسَّلْوَىٰ ۖ كُلُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا رَزَقْنَٰكُمْ ۚ﴾ [الأعراف: ٦٠].

---

(١) «تاريخ الأنبياء»، محمد الطيب النجار. (بتصرف).

وحيثما أجهدهم العطش ولم يجدوا ماء لشربهم، ولا سقيا لدوابهم؛ شكوا إلى موسى متألمين لما أصابهم، فاستسقى موسى ربه، فقال سبحانه وتعالى له: ﴿أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْحَجَرَ ۖ فَانبَجَسَتْ مِنْهُ اثْنَتَا عَشْرَةَ عَيْنًا ۖ قَدْ عَلِمَ كُلُّ أُنَاسٍ مَّشْرَبَهُمْ ۚ﴾ [الأعراف: ١٥٩].

ومع كل هذه النعم التي أنعمها الله على بني إسرائيل لم يشكروا الله عليها ولم يرعوها حق رعايتها، بل جحدوا بمن أولاهم هذه النعم، وقالوا لنبيهم موسى حينما مروا على أناس يعكفون على أصنام لهم: ﴿يَا مُوسَى اجْعَل لَّنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ ۚ﴾ [الأعراف: ٨٣١].

عميت قلوبهم عن تلك المعجزات التي سخرها الله لهم، ولذا أجابهم موسى عليه السلام: ﴿إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ ﴿١٣٨﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ مُتَبَّرٌ مَّا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٣٩﴾ قَالَ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِيكُمْ إِلَٰهًا وَهُوَ فَضَّلَكُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ [الأعراف: ١٣٨ ـ ١٤٠].

لقاء موسى عليه السلام بربه ونزول التوراة:

أخبر موسى عليه السلام بني إسرائيل وهم بمصر أن الله سيهلك فرعون وأنه سينزل عليهم كتاباً من عنده فيه الأوامر والنواهي التي ينبغي أن يسيروا عليها.

فلمَّا أهلك الله فرعون سأل موسى عليه السلام ربه الكتاب.

أنزل الله التوراة على موسى في ألواح مخصوصة، وكان عددها عشرة ألواح، وقد كتبت بيد القدرة الإلهية، وفيها موعظة وتفصيل لكل شيء.

وقد أوحى الله موسى أن يصعد الجبل وحده ويعكف ثلاثين ليلة

حتى يزداد صفاء نفسه ويكمل استعداده لتلقي الرسالة، ثم أتمها الله بعشر ليال، فتم ميقات ربه أربعين ليلة.

قال تعالى: ﴿ ۞ وَوَٰعَدْنَا مُوسَىٰ ثَلَٰثِينَ لَيْلَةً وَأَتْمَمْنَٰهَا بِعَشْرٍ فَتَمَّ مِيقَٰتُ رَبِّهِۦٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وبعد تمام الأربعين كلم موسى ربه فقال: ﴿ رَبِّ أَرِنِيٓ أَنظُرْ إِلَيْكَ ﴾ [الأعراف: ١٤٣]، ولكن لم يشأ الله سبحانه ذلك؛ ولذا قال الله عز وجل: ﴿ لَن تَرَىٰنِي وَلَٰكِنِ ٱنظُرْ إِلَى ٱلْجَبَلِ فَإِنِ ٱسْتَقَرَّ مَكَانَهُۥ فَسَوْفَ تَرَىٰنِي ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

﴿ فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا ﴾[الأعراف: ١٤٣] مغشيًّا عليه؛ وذلك لما هاله مما أصاب الجبل من زلزال عنيف.

وبعد أن أفاق موسى عليه السلام من غشيته استغفر وأناب، وقال: ﴿ سُبْحَٰنَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٤٣﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

ثم كلم الله موسى عليه السلام دون واسطة الوحي، وقال له سبحانه: ﴿ يَٰمُوسَىٰٓ إِنِّي ٱصْطَفَيْتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي وَبِكَلَٰمِي فَخُذْ مَآ ءَاتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٤].

وقد أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام بأن يأخذ الألواح بقوة وإيمان متين، وأن يأمر قومه أن يعملوا بما جاء فيها من الهدى والحق، وأن يسيروا على أحسن ما جاء فيها، وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿ وَكَتَبْنَا لَهُۥ فِي ٱلْأَلْوَاحِ مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِّكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا۟ بِأَحْسَنِهَا سَأُورِيكُمْ دَارَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿١٤٥﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٥].

وكان من أهم الوصايا التي تضمنتها تلك الألواح هي تلك الوصايا

العشر التالية:

قال تعالى: ﴿ ۞ قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿١٥١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ وَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا وَإِذَا قُلْتُمْ فَاعْدِلُوا وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى وَبِعَهْدِ اللَّهِ أَوْفُوا ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿١٥٢﴾ وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿١٥٣﴾ ﴾ [الأنعام: ١٥١ ـ ١٥٣][1].

عبادة بني إسرائيل للعجل:

كانت عبادة العجل من العبادات الفاسدة التي كانت موجودة لدى المصريين، وهي نوع من عبادة البقر التي لا تزال موجودة إلى الآن في الهند، ولا شك أن بني إسرائيل قد عاشوا فترة طويلة في أرض مصر قبل فرارهم من فرعون فرأوا تلك العبادة.

لمَّا ذهب موسى عليه السلام لميقات ربه ترك قومه لأخيه هارون رقيباً عليهم ووكيلاً له في شئونهم، وقال له: ﴿ اخْلُفْنِي فِي قَوْمِي وَأَصْلِحْ وَلَا تَتَّبِعْ سَبِيلَ الْمُفْسِدِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ [الأعراف: ١٤٢].

وقد أخبر موسى عليه السلام بني إسرائيل أن غيبته عنهم لن تطول أكثر

---

(١) «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

من ثلاثين يوماً، فلمّا أمره الله سبحانه وتعالى أن يتمهم أربعين يوماً، وطالت غيبته عن قومه استبطؤوه وقالوا: إن موسى أخلفنا وعده.

فعندئذٍ انتهز موسى السامري وكان رجلاً ضالاً، وأخذ من بني إسرائيل بعض حليهم التي كان نساؤهم قد جلبنها من مصر، وألقاها في النار، وسبك منها عجلاً، وصاغه بطريقة خاصة تجعل الريح إذا دخلته تعطي أصواتاً من فمه كصوت البقر، ثم أمرهم السامري بعبادته، فلمّا كلم موسى ربه أخبره سبحانه أن قومه فتنهم السامري عن دينهم وأضلّهم.

فعاد موسى عليه السلام وهو أشد حالات الغضب والحزن وقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ ٱلْعَهْدُ أَمْ أَرَدتُّمْ أَن يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُم مَّوْعِدِى ﴿٨٦﴾﴾ [طه: ٨٦].

أجاب القوم موسى عليه السلام: لم نخلف وعدنا إليك باختيارنا ورغبتنا ولكن أضلنا السامري، وقال لنا: إن ما لدينا من ذهب أخذناه من المصريين قد أغضب ربنا وما هو إلا أوزار نحملها تؤخر عودتك إلينا، والرأي أن نقذفها في النار ليرضى ربنا وترجع إلينا. فصدقناه وقذفنا بالحليّ في النار.

وكذلك فعل السامري، قذف ما معه من حليّ وأخرج لنا من هذه الحليّ تمثالاً لعجل.

وقال هو وأتباعه: هذا إلهكم الذي ينبغي أن تعبدوه، وهو إله موسى الذي غفل عنه وذهب بطلبه في جبل الطور.

ولقد تصدى لهم هارون من قبل مجيء موسى وأفهمهم أنهم فُتنوا

وأن إلههم الحق هو الله الرحمن دون سواه، فلم يفلح وأصروا على عبادته حتى يرجع إليهم موسى. وبيّن لنا الله سبحانه مجادلة هارون عليه السلام لقومه فقال تعالى: ﴿يَٰقَوْمِ إِنَّمَا فُتِنتُم بِهِۦ ۖ وَإِنَّ رَبَّكُمُ ٱلرَّحْمَٰنُ فَٱتَّبِعُونِى وَأَطِيعُوٓا۟ أَمْرِى ﴿٩٠﴾ قَالُوا۟ لَن نَّبْرَحَ عَلَيْهِ عَٰكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ﴾[طه: ٩٠، ٩١].

غضب موسى عليه السلام أشد الغضب من قومه وألقى الألواح التي أنزلها الله إليه، ثم التفت إلى أخيه هارون وجره من شعر رأسه ولحيته وأخذ يؤنّبه على هذا التفريط الذي ترتب عليه هذا الكفر والضلال، وقال له: ﴿يَٰهَٰرُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوٓا۟ ﴿٩٢﴾ أَلَّا تَتَّبِعَنِ ۖ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِى ﴿٩٣﴾﴾ [طه: ٩٢، ٩٣].

فقال له هارون: ﴿يَبْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِى وَلَا بِرَأْسِىٓ ۖ إِنِّى خَشِيتُ أَن تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِى ﴿٩٤﴾﴾ [طه: ٩٤].

بعد ذلك ندم بنو إسرائيل على زلتهم، واستغفروا ربهم، فأوحى الله سبحانه لموسى عليه السلام أن توبتهم تكون بقتل أنفسهم، فذهب موسى عليه السلام وبلّغهم رسالة ربه فقال لهم: ﴿إِنَّكُمْ ظَلَمْتُمْ أَنفُسَكُم بِٱتِّخَاذِكُمُ ٱلْعِجْلَ فَتُوبُوٓا۟ إِلَىٰ بَارِئِكُمْ فَٱقْتُلُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ عِندَ بَارِئِكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٤﴾﴾ [البقرة: ٥٤][1].

اختيار موسى عليه السلام سبعين رجلاً:

اختار موسى عليه السلام من قومه سبعين رجلاً من أخيارهم، وقال لهم: انطلقوا معي إلى الله فتوبوا مما صنعتم وصوموا وتطهّروا، وخرج

---

(١) «قصص الأنبياء»، عبدالوهاب النجار» (بتصرف).

بهم إلى طور سيناء للميقات الذي وقَّته الله له.

فقالوا: إنَّا نريد أن نسمع كلام ربّنا.

فقال: أفعلُ.

فلمّا دنا موسى من الجبل، وقع عليه الغمام حتى تغشّى الجبل كلّه ودخل فيه موسى.

وقال لقومه: ادنوا، فدنوا حتى دخلوا في الغمام، فوقعوا سجوداً.

فسمعوا الله عز وجل وهو يكلم موسى عليه السلام يأمره وينهاه، فلمّا فرغ انكشف عن موسى الغمام، فأقبل إليهم.

فقالوا لموسى: ﴿يَٰمُوسَىٰ لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ نَرَى ٱللَّهَ جَهْرَةً﴾[البقرة: ٥٥].

فأخذتهم الصاعقة فماتوا جميعاً.

فقام موسى عليه السلام يناشد الله تعالى ويدعوه ويقول: يا رب اخترت أخيار بني إسرائيل، وأعود إليهم وليسوا معي فلا يصدّقونني.

ولم يزل يتضرع حتى رد الله إليهم أرواحهم، فعاشوا رجلاً رجلاً ينظر بعضهم إلى بعض كيف يحيون.

قال تعالى: ﴿فَأَخَذَتْكُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ وَأَنتُمْ تَنظُرُونَ ﴿٥٥﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰكُم مِّنۢ بَعْدِ مَوْتِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [البقرة: ٥٥، ٥٦][1].

دخول الأرض المقدسة:

أمر الله سبحانه وتعالى موسى عليه السلام أن يذهب ببني إسرائيل إلى

---

(١) «الكامل في التاريخ»، ابن الأثير، «تاريخ الطبري»، الطبري. (بتصرف).

الأرض المقدسة فلسطين للإقامة بها.

فطلب من قومه أن يتوجهوا إلى بيت المقدس لإنقاذه من الكنعانيين الآثمين الذين طغوا في الأرض وأكثروا فيها الفساد، فقال لهم: ﴿يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [المائدة: ٢٠، ٢١]، فقالوا: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا ۖ فَإِن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [المائدة: ٢٢].

هنا قام رجلان من الذين أنعم الله عليهما وقالا لقومهما ناصحين: ادخلوا على القوم في عقر دارهم من باب المدينة فيدخل الذعر قلوبهم فتنتصروا عليهم، وتوكلوا على الله.

فقالوا لموسى عليه السلام: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤].

عندئذ شكا موسى عليه السلام لله سبحانه قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ [المائدة: ٢٥].

فحرم الله سبحانه وتعالى عليهم دخول الأرض المقدسة جزاءً وفاقاً على ما بدا منهم، وكتب عليهم التيه أربعين سنة حتى انقرض هذا الجيل الذليل، وجاء منهم جيل جديد تربَّى في البادية، وألف فيها العزة والكرامة، ليقوم بواجبه في الجهاد ونشر الدين والقضاء على الفساد.

قال تعالى: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۗ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾﴾ [المائدة: ٢٦].

بنو إسرائيل والبقرة:

كان رجل من بني إسرائيل عقيماً، وكان له مال كثير، وكان ابن أخيه وارثه فقتله، ثم احتمله ليلاً فوضعه على باب رجل منهم، ثم أصبح يدعيه عليهم، حتى تسلحوا، وركب بعضهم على بعض، وقاموا ليتقاتلوا، فقال ذوو الرأي منهم: علام يقتل بعضكم بعضاً وهذا رسول الله فيكم؟! فأتوا موسى عليه السلام فذكروا ذلك له وطلبوا منه معرفة القاتل فقال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تَذْبَحُوا۟ بَقَرَةً﴾ [البقرة: ٦٧].

فلو لم يعترضوا لأجزأت عنهم أدنى بقرة، ولكنَّهم شدّدوا فشُدِّد عليهم.

ثم قالوا لموسى عليه السلام: نسألك عن القتيل، وعمن قتله، وتقول: اذبحوا بقرة، أتهزأ بنا؟!

قال: ﴿أَعُوذُ بِٱللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْجَٰهِلِينَ ﴿٦٧﴾﴾ [البقرة: ٦٧].

فلمّا تيقنوا أنه لا يهزأ بهم: ﴿قَالُوا۟ ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِىَ﴾؟ [البقرة: ٨٦].

فقال لهم: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا فَارِضٌ وَلَا بِكْرٌ عَوَانٌۢ بَيْنَ ذَٰلِكَ﴾ [البقرة: ٨٦].

ليست بالهرمة التي لا تلد، ولا بالبكر التي لم تلد إلا واحداً، ولكن هي عوان، وهي التي ولدت وولد ولدها ﴿فَٱفْعَلُوا۟ مَا تُؤْمَرُونَ ﴿٦٨﴾﴾.

قالوا له: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَآءُ فَاقِعٌ لَّوْنُهَا تَسُرُّ ٱلنَّٰظِرِينَ ﴿٦٩﴾﴾.

وهي البقرة الصفراء نقية اللون التي تجذب الناظرين إليها.

قالوا له: ﴿ٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُبَيِّن لَّنَا مَا هِيَ إِنَّ ٱلْبَقَرَ تَشَٰبَهَ عَلَيْنَا وَإِنَّآ إِن شَآءَ ٱللَّهُ لَمُهْتَدُونَ ﴿٧٠﴾﴾.

فقال لهم موسى: ﴿إِنَّهُۥ يَقُولُ إِنَّهَا بَقَرَةٌ لَّا ذَلُولٌ تُثِيرُ ٱلْأَرْضَ وَلَا تَسْقِى ٱلْحَرْثَ مُسَلَّمَةٌ لَّا شِيَةَ فِيهَا﴾.

أي أنها مكرمة حسنة لا عيب فيها، وليس فيها بياض ولا سواد وإنما لونها هو الأصفر.

قالوا: ﴿ٱلْـَٰٔنَ جِئْتَ بِٱلْحَقِّ﴾.

فوجدوها عند رجل ليس له بقرة غيرها، فطلبوها منه، وسألوه أن يبيعهم إيّاها ببقرة أخرى، فأبىٰ.

فقالوا: والله لا نتركك حتى نأخذها منك.

فانطلقوا به إلى موسى عليه السلام.

فقالوا: يا نبي الله، إنّا وجدناها عند هذا، فأبىٰ أن يعطينا إيّاها، وقد أعطيناه ثمنها.

فقال له موسى عليه السلام: أعطهم بقرتك.

فقال: يا رسول الله، أنا أحق بمالي.

فقال موسى عليه السلام: صدقت.

ثم قال للقوم: أرضوا صاحبكم، فأعطوه وزنها ذهباً.

فباعهم إياها وأخذ ثمنها.

فقال لهم موسى عليه السلام: ﴿ٱضْرِبُوهُ بِبَعْضِهَا﴾.

فضربوه بالبضعة التي بين الكتفين.

فقام الرجل، وأفاق من موته بإذن الله.

فسألوه: مَن قتلك؟

قال لهم: قتلني ابن أخي هذا، وأشار إليه.

ثم عاد ميتاً، فلم يُعط ابن أخيه من ماله شيئاً، ولم يورث قاتل بعده.

قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يُحْيِ ٱللَّهُ ٱلْمَوْتَىٰ وَيُرِيكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿٧٣﴾﴾ [البقرة: ٧٣][1].

قارون وموسى عليه السلام:

لقد ابتُلي موسى عليه السلام في حياته ومشوار دعوته بمجموعة من الصناديد.

ابتلي أولاً بفرعون الذي زعم أنه إله واستعبد الناس، ثم ابتلي ثانياً بموسى السامري الذي صنع العجل ودعا بني إسرائيل لعبادته.

ثم ابتلي ثالثاً بقارون، قال تعالى: ﴿۞ إِنَّ قَٰرُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ [القصص: ٧٦].

وقارون رجل من بني إسرائيل أتاه الله بسطة في الرزق حتى إن مفاتيح خزائنه كانت تنوء بالعصبة أولي القوة.

ولمَّا أمر الله تعالى بالزكاة، كان على قارون من كل ألف دينار، دينار، فلمّا عاد إلى بيته وجده كثيراً، فجمع نفراً يثق بهم من بني إسرائيل، فقال لهم: إن موسى أمركم بكل شيء فأطعتموه، وهو الآن

---

(١) «قصص وعبر»، محمد جاب الله. (بتصرف).

يريد أخذ أموالكم.

فقالوا: أنت كبيرنا وسيدنا فمرنا بما شئت.

فقال: آمركم أن تحضروا فلانة البغي، وتتهم موسى بأنه زنىٰ بها. ففعلوا ذلك، فأجابتهم إليه.

ثم أتى قارون إلى موسى عليه السلام وقال له: إنّ قومك قد اجتمعوا لك لتأمرهم وتنهاهم.

فخرج إليهم فقال: من سرق قطعناه، ومن افترى جلدناه، ومن زنى وليس له امرأة جلدناه مائة جلدة، وإن كانت له امرأة رجمناه حتى الموت.

فقال له قارون: وإن كنت أنت يا موسى؟

فقال نعم.

قال: فإن بني إسرائيل يزعمون أنّك فجرت بفلانة.

فقال: ادعها، فإن قالت؛ فهو كما قالت.

فلمَّا جاءت قال لها موسى عليه السلام: أقسمت عليك بالذي أنزل التوراة إلا صدقتِ، أنا فعلت بك ما يقوله هؤلاء؟

قالت: لا، فقد كذبوا ولكن طلبوا مني أن أقذفك. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ ۖ فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ [الصف: ٥].

فسجد موسى عليه السلام فأوحى الله إليه: «**مر الأرض بما شئت تطعك**».

قال: يا أرض، خذيهم.

فلم يكن له ناصر من نفسه ولا من غيره، خسف الله به الأرض هو وحاشيته.

ولما حل به ما حل من الخسف وذهاب الأموال، وخراب الديار ندم من كان تمنى مثل ما أُوتي قارون، ولهذا قالوا: ﴿لَوْلَآ أَن مَّنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا ۖ وَيْكَأَنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٢﴾﴾ [القصص: ٨٢].

وهكذا رد الله كيد الكافر في نحره، وأذاقه وبال أمره، وظهرت براءة موسى عليه السلام.

قال تعالى: ﴿فَمَا كَانَ لَهُۥ مِن فِئَةٍ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾﴾ [القصص: ٨١][1].

موسى والخضر عليه السلام:

قام موسى عليه السلام خطيباً في بني إسرائيل، فلمّا انتهى من خطبته سأله رجل: هل تعلم أحداً أعلم منك يا نبي الله؟

قال: لا، فأوحى الله إليه إن لي عبداً بمجمع البحرين على الساحل عند صخرة هناك هو أعلم منك.

فقال موسى لربه: فكيف لي به؟

قال: تأخذ معك حوتاً فتجعله في مكتل، فحيثما فقدت الحوت تجده هناك، فأخذ موسى حوتاً في مكتل، واصطحب فتاه يوشع بن نون.

---

(١) «قصص الأنبياء»، الشعراوي. (بتصرف).

وقال له: إذا فقدت الحوت فأخبرني.

ثم انطلق موسى عليه السلام وانطلق معه فتاه حتى وصلا إلى الصخرة وغشاهما النعاس، فناما، ومس الحوت بعض الماء فاضطرب في المكتل، وأخذ سبيله في البحر سربا.

فرآه يوشع وهو بين النوم واليقظة.

فلمّا استيقظ موسى نسي أن يسأل يوشع عن أمر الحوت، ونسي يوشع أن يخبره بما حدث.

فانطلقا بقية يومهما وليلتهما حتى إذا كان الغداة وقد أجهدهم السير، قال موسى لفتاه: ﴿ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾﴾ [الكهف: ٦٢].

ولمّا همَّ يوشع لإعداد الطعام تذكَّر الحوت الذي تسرب إلى البحر، فقال لموسى: ﴿أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ ۚ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾﴾ [الكهف: ٦٣].

فقال موسى: إن فقدان الحوت هو ما كنا نبغيه؛ لأنه أمارة على نيل ما نطلبه.

فرجعا حتى أتيا الصخرة، فوجدا العبد الصالح.

قال تعالى: ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾﴾ [الكهف: ٦٥].

قال موسى عليه السلام للعبد الصالح: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾﴾ [الكهف: ٦٦].

قال له العبد الصالح: ﴿إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا

﴿لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾﴾ [الكهف: ٦٧، ٦٨].

ولمَّا أصرَّ موسى عليه السلام على المصاحبة، اشترط عليه العبد الصالح ألا يسأله عن شيء مما سيراه.

انطلق موسى عليه السلام والخضر يمشيان على ساحر البحر، فمرَّت سفينة فكلموهم أن يحملوهم، فعرفوا الخضر، فحملوهم.

فلمّا ركب في السفينة قلع الخضر لوحاً من ألواح السفينة فقال له موسى عليه السلام: ﴿أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا إِمْرًا﴾ [الكهف: ٧١].

فقال له الخضر: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا﴾ [الكهف: ٧٢].

وجاء عصفور فوقع على حرف السفينة فنقر في البحر نقرة فقال له الخضر: ما علمي وعلمك من علم الله إلا مثل ما نقص هذا العصفور من هذا البحر.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذ أبصر الخضر غلاماً يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر رأسه بيده، فاقتلعه بيده، فقتله.

فقال له موسى: ﴿أَقَتَلْتَ نَفْسًا زَكِيَّةًۢ بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْـًٔا نُّكْرًا ﴿٧٤﴾﴾ [الكهف: ٧٤].

قال الخضر لموسى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٧٥﴾﴾ [الكهف: ٧٥].

انطلق موسى مع الخضر حتى دخلا قرية، فطلبا من أهل القرية طعاماً.

فقالوا لهما: لا، لن نعطيكما. لقد كانوا لئاماً.

ولما رأى العبد الصالح جداراً يريد أن ينقض فأقامه.

فقال له موسى عليه السلام متسائلاً: لماذا لا تأخذ منهم أجراً وأنهم منعونا الطعام؟

هنا وقف الخضر وقال لموسى عليه السلام: ﴿هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ ۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٧٨﴾﴾ [الكهف: ٧٨].

﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا ﴿٧٩﴾﴾ [الكهف: ٧٩].

﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾﴾ [الكهف: ٨٠].

﴿وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَا أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ﴾ [الكهف: ٨٢].

* * *

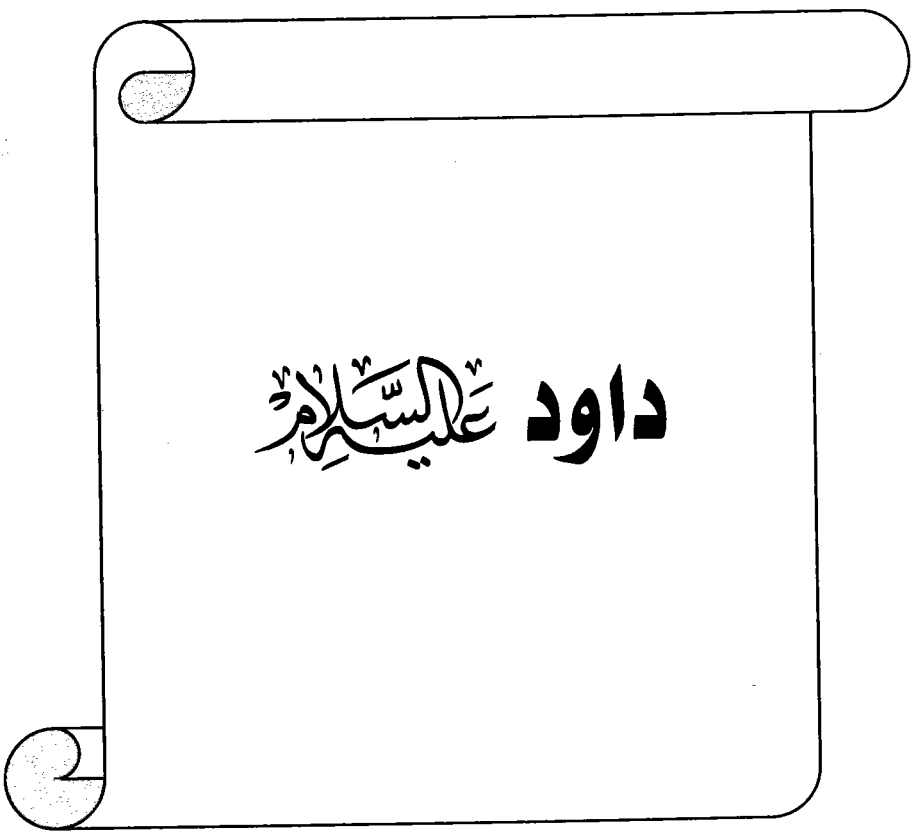
داود علیہ السلام

داود عليه السلام

هو نبي الله داود بن إيشا بن عابر يمتد نسبه إلى يهوذا بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

وهو من أنبياء بني إسرائيل، وقد جمع الله تعالى له بين النبوة والمُلك وأعطاه خيري الدنيا والآخرة، فكان نبيًّا وملكاً.

وهو عليه السلام أحد الرُّسل الذين نزلت عليهم الكتب السماوية بعد موسى عليه السلام إذ آتاه الله الزبور.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ عَلَىٰ بَعْضٍ وَءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ زَبُورًا ﴿٥٥﴾﴾ [الإسراء: ٥٥].

بعث الله سبحانه وتعالى داود عليه السلام في عصر طالوت، وكان طالوت من ملوك بني إسرائيل، وكان يدين بدين موسى عليه السلام ويحكم اليمن وأطرافها.

بنو إسرائيل يطلبون ملكاً:

توالت القرون على بني إسرائيل بعد وفاة موسى عليه السلام، وكان خلال ذلك يتعرضون لغزوات الأمم المجاورة، ويبعث الله فيهم الأنبياء، ويتولى أمرهم قضاة منهم يحكمون بشرائع الأنبياء، وأحياناً يكون الأنبياء أنفسهم هم القضاة، وكان من قضاة بني إسرائيل نبي اسمه (شمويل) وكان ذلك بعد وفاة موسى بأكثر من ثلاثة قرون، وكان له والدان عيَّنهما للقضاء؛ فلم يعدلا، فخاف بنو إسرائيل أن يفسد

عليهم الأمر بعد شمويل.

فجاءوه وألحُّوا عليه أن يقيم عليهم ملكاً يأتمرون بأمره، ويقودهم إلى قتال أعدائهم من الفلسطينيين، الذين كانوا يفوقونهم عدداً وعدة، والذين طالما أغاروا عليهم وآذوهم وساموهم سوء العذاب.

وكان شمويل عارفاً بطبائع بني إسرائيل، فهم الذين قالوا لموسى عليه السلام من قبل: ﴿فَاذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلَا إِنَّا هَاهُنَا قَاعِدُونَ ﴿٢٤﴾﴾ [المائدة: ٢٤].

ومن أجل ذلك توقَّع منهم عدم الوفاء بما تعهَّدوا به.

فقال لهم: ﴿هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا﴾ [البقرة: ٢٤٦] فأجابوه منكرين عليه ما توقعه منهم فقالوا: ﴿وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا﴾ [البقرة: ٢٤٦].

ولكن لم يصدقوا مع نبيهم شمويل، وفي ذلك يقول الله سبحانه: ﴿فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾ [البقرة: ٢٤٦].

عندئذٍ أخبرهم شمويل أن الله قد جعل عليهم (طالوت) ملكاً، وكان طالوت هذا شابًّا من بني إسرائيل راعياً لقطيع من البقر، وقد زاده الله بسطة في العلم والجسم، ولكن ليس عنده من المال ما يؤهله للمُلك والسلطان.

ومن أجل ذلك اعترض بنو إسرائيل على تمليكه عليهم وقالوا: ﴿أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ﴾ [البقرة: ٢٤٧].

فقال لهم نبيهم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ

﴿وَٱلْجِسْمِ ۗ وَٱللَّهُ يُؤْتِى مُلْكَهُۥ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾[البقرة: ٢٤٧].

ثم كشف لهم نبيهم العلامة التي يعرفون بها هذا الملك وفضله عليهم، وهو أن يرجع إليهم التابوت الذي كان أخذه منهم أعداؤهم الذي فيه بقية من ألواح التوراة؛ فيكون ذلك آية على صلاح هذا الملك، ورضا الله عنه.

فقال لهم: ﴿إِنَّ ءَايَةَ مُلْكِهِۦٓ أَن يَأْتِيَكُمُ ٱلتَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ ءَالُ مُوسَىٰ وَءَالُ هَٰرُونَ تَحْمِلُهُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٤٨﴾﴾ [البقرة: ٢٤٨][1].

طالوت يختبر جيشه:

دعا طالوت قومه للجهاد في سبيل الله حثّهم على قتال أعدائهم الذين أذلوهم من قبل.

فاجتمع تحت لوائه جيش كبير وساقهم إلى قتال الفلسطينيين الذين كانوا يقودهم (جالوت) الذي اشتهر بالشجاعة والبأس.

وسار طالوت بجنوده وابتعد بهم عن ديارهم وأصبحوا قريبين من لقاء العدو، فأراد طالوت أن يختبرهم ليعرف مدى عزيمتهم وقوة إيمانهم حيث قال لهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فلمَّا جاءوا النهر خالف معظمهم أمر طالوت، ﴿فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ﴾.

---

(١) «تاريخ الأنبياء»، محمد الطيب النجار. (بتصرف).

داود عليه السلام وقتله جالوت:

اجتاز طالوت النهر مع الذين صبروا على العطش والتعب، ولمَّا تراءى الجمعان، وظهرت قوة جالوت، وما أعدَّه للقاء طالوت؛ قال فريق منهم وقد هالتهم كثرة العدو: ﴿لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فردَّ عليهم المؤمنون المخلصون الذين يظنون أنهم ملاقو الله فقالوا لهم: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ [البقرة: ٢٤٩].

هنا وقف طالوت ملك بني إسرائيل يحرضهم على قتال جالوت وجنوده.

ويقول: مَن قتل جالوت زوَّجته بابنتي وأشركته في ملكي.

عندئذٍ قال داود لطالوت: إذا سمحت لي بقتاله فإنني سأنتصر عليه بإذن الله تعالى.

فسأله طالوت: يا داود هل اشتركت من قبل في حرب؟

فأجابه: نعم مع الأسود والذئاب والنمور، عندما كانت تهاجم أغنامي فكنت أتصدى لها وأهزمها.

وأصرَّ داود على قتال جالوت، ولم يتطوع أحد غير داود لمنازلة جالوت، ودعا طالوت لداود بالنصرة والغلبة، وقال له: إنني معجب بقوة إيمانك وشجاعتك.

وكان داود عليه السلام يرمي بالمقلاع رمياً عظيماً، ولا تخطئ إصابته أبداً.

وفي حالة من التعجب والدهشة لدى الجيشين حمل داود مقلاعه والحجر ودخل ميدان المعركة ووقف أمام جالوت.

فقال له جالوت بكل غرور: أأنت الذي ستنازلني؟

فأجابه داود عليه السلام: نعم.

فسأله: وبأي سلاح؟

فقال له: بهذه الحجارة التي في يدي.

فقال جالوت: أنا أأسف على أن أقتلك فإنك شاب مغرور.

فقال داود: أمّا أنا فلا أأسف على قتلك إذا لم تؤمن بالله.

عندئذٍ وضع داود حجراً في مقلاعه ورمى به جالوت ففلق رأسه وفرَّ جيشه مهزوماً.

فوفى له طالوت بما وعده، فزوَّجه ابنته وقلَّده الحكم.

ويصف الله سبحانه وتعالى هذا النصر المبين فيقول تعالى: ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٥١][1].

معجزات داود عليه السلام:

مَنَّ الله سبحانه وتعالى على داود عليه السلام بنعمٍ كثيرة لم يعطها لأحدٍ من خلقه.

منها أنَّ الله سبحانه وتعالى ألانَ له الحديد حتى كان يفتله بيده، لا يحتاج إلى نار أو مطرقة، فيصنع منه الدروع التي تحفظ الجنود من

---

(١) «معجزات الأنبياء»، محمد عبدالله. (بتصرف).

ضرب السيوف وطعن الرماح في الحروب.

قال تعالى: ﴿وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ﴿١٠﴾ أَنِ ٱعْمَلْ سَٰبِغَٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ وَٱعْمَلُوا۟ صَٰلِحًا إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١١﴾﴾ [سبأ: ١٠، ١١].

وكان عليه السلام يبيع كل درع بأربعة آلاف درهم، فكان يأكل ويطعم أولاده ويتصدق منها على الفقراء والمساكين.

قال رسول الله ﷺ: «**إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه، وإن نبي الله داود كان يأكل من كسب يده**»(١).

تسبيح داود عليه السلام:

أنزل الله سبحانه وتعالى على داود عليه السلام كتاباً هو «الزبور»، وقد حوى هذا الكتاب المقدس أصول الفضائل، وكان داود عليه السلام يترنم بآياته حينما يبلغها الناس، وقد منحه الله الصوت الجميل، فكان الكون كله يردد بترديده.

وقد ذلَّل الله له الجبال تردد معه التسبيح في الليل والصباح، وكذلك الطير كانت تجتمع حوله عند تسبيحه لله وتشاركه في التسبيح وهذا ما ذكره الله سبحانه فقال تعالى: ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا ٱلْجِبَالَ مَعَهُۥ يُسَبِّحْنَ بِٱلْعَشِىِّ وَٱلْإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَٱلطَّيْرَ مَحْشُورَةً ۖ كُلٌّ لَّهُۥٓ أَوَّابٌ ﴿١٩﴾﴾ [ص: ١٨، ١٩](٢).

استغفار داود عليه السلام:

دخل رجلان على داود عليه السلام وهو جالس في محرابه، ففزع

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٢٠٧٢)، وأحمد في «مسنده»: (٢٢٠).

(٢) «تاريخ الطبري»، الطبري. (بتصرف).

منهم لهول المفاجأة، وظن أنهما يريدان شرًّا به.

فقالا له: لا تخف، نحن خصمان تعدى بعضنا على بعض، فجئنا نحتكم إليك، فاحكم بيننا بالحق ولا تكن جائراً، وأرشدنا إلى الطريق المستقيم.

ثم أخذ أحدهما يعرض شكواه.

فقال: إن أخي يملك تسعاً وتسعين نعجة، وأنا أملك نعجة واحدة فطمع في نعجتي، وأراد أن يأخذها مني ويضمها إلى نعاجه، وقد حاولت إقناعه بفساد طلبه لكنه غلبني في جداله وخصامه.

أنكر داود عليه السلام على صاحب النعاج الكثيرة أن يأخذ من أخيه نعجته فقال: ﴿لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِۦ ۖ وَإِنَّ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْخُلَطَآءِ لَيَبْغِى بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ [ص: ٢٤].

وهنا أدرك داود عليه السلام أنه تسرَّع في حكمه، وحكم لمصلحة الذي سمع حجَّته دون أن يسمع حجة الطرف الآخر، فكان ذلك خطأ منه؛ حينئذٍ رجع داود عليه السلام إلى ربه منيباً مستغفراً إليه راكعاً خاشعاً، فتجاوز الله سبحانه وتعالى عنه هذا الخطأ.

قال تعالى: ﴿وَظَنَّ دَاوُۥدُ أَنَّمَا فَتَنَّٰهُ فَٱسْتَغْفَرَ رَبَّهُۥ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ ﴿٢٤﴾ فَغَفَرْنَا لَهُۥ ذَٰلِكَ ۖ وَإِنَّ لَهُۥ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَـَٔابٍ ﴿٢٥﴾﴾ [ص: ٢٤، ٢٥].

بين داود وسليمان عليهما السلام:

أقبلت غنم ليلاً على مزرعة ولم يكن معها راعٍ، فأفسدت الزرع وأتت عليه.

فتخاصم صاحب الحرث وصاحب الغنم إلى داود عليه السلام.

فقال أصحاب المزرعة: يا نبي الله، إنّا حرثنا أرضنا وزرعناها وتعهّدناه حتى إذا آن أوان حصادها جاءت غنم هؤلاء اليوم ليلاً فانتشرت في زرعنا وأكلته حتى لم يبق منه شيء.

فقال داود لأصحاب الغنم: أحقًّا ما يقوله هؤلاء؟

قالوا: نعم.

فقال لأصحاب المزرعة: كم تقدّرون ثمناً لزرعكم؟

فذكروا له الثمن.

فقال لأصحاب الغنم: كم تقدرون ثمناً لأغنامكم.

فقدّروا بثمن ما.

فلمّا رأى داود عليه السلام الثمنين متقاربين قال لأصحاب الغنم: ادفعوا أغنامكم إلى أصحاب المزرعة تعويضاً لهم عن زرعهم.

ولكن ابنه سليمان كان حاضراً يشهد هذه المحاكمة، وكان حينئذٍ في الحادية عشرة من عمره.

فابتدر أباه قائلاً لي رأي في هذه القضية، وهو أن يدفع أصحاب الغنم أغنامهم إلى أصحاب المزرعة فينتفع هؤلاء بأصوافها وألبانها ونتاجها. وأن يأخذ أصحاب الغنم المزرعة فيحرثوها ويزرعوها ويسقوها ويتعهدوها حتى يستوي الزرع، فإذا حان وقت حصاده سلّموا المزرعة إلى أصحابها وتسلموا منهم أغنامهم، فرضي الجميع بهذا الحكم.

وقال داود عليه السلام: وُفقت يا بنيّ بهذا الحكم، وحكم بما أفتى به سليمان، وهذا ما أشار الله سبحانه وتعالى به، فقال تعالى: ﴿ وَدَاوُۥدَ

وَسُلَيْمَٰنَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي ٱلْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ ٱلْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَٰهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَٰهَا سُلَيْمَٰنَ ۚ وَكُلًّا ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا ﴾[الأنبياء: ٧٨، ٧٩][1].

من أقوال وحكم داود عليه السلام:

كان داود عليه السلام لا يمضي ساعة من آناء الليل وأطراف النهار إلا وأهل بيته في عبادة ليلاً ونهاراً، كما قال تعالى: ﴿ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾ [سبأ: ١٣].

وعن عبادته وصلاته وقيامه قال رسول الله ﷺ: «**أحب الصلاة إلى الله صلاة داود، وأحب الصيام إلى الله صيام داود، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه، وينام سدسه، وكان يصوم يوماً ويفطر يوماً، ولا يفر إذا لاقى**»[2].

ومن أقوال وحكم داود عليه السلام:

أنه عليه السلام قال: كن لليتيم كالأب الرحيم، واعلم أنك كما تزرع كذلك تحصد.

وقال: مثل الخطيب الأحمق في نادي القوم كمثل المغني عند رأس ميت.

وقال عليه السلام: ما أقبح الفقر بعد الغنى، وما أقبح من ذلك الضلالة بعد الهدى.

وقال: انظر ما تكره أن يذكر عنك في نادي القوم، فلا تفعله إذا خلوت.

---

(١) «تفسير القاسمي»، جمال الدين الفاسي. (بتصرف).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٤٢٠)، ومسلم في «صحيحه»: (١١٥٩).

وقال عليه السلام: لا تعدن أخاك بما لا تنجزه له، فإن ذلك عداوة بينك وبينه[١].

وصية داود عليه السلام لابنه سليمان:

لما استخلف داود عليه السلام ابنه سليمان عليه السلام وعظه فقال له: يا بنيّ إيّاك والهزل فإنّ نفعه قليل ويهيج العداوة بين الإخوة.

وإيّاك والغضب فإن الغضب يستخف بصاحبه.

وعليك بتقوى الله وطاعته فإنهما يغلبان كل شيء.

وإيّاك وكثرة الغيرة على أهلك من غير شيء فإن ذلك يورث سوء الظن بالناس وإن كانوا براء.

واقطع طمعك عن الناس فإن ذلك هو الغنى.

وإيّاك والطمع فإنه الفقر الحاضر، وإياك وما يعتذر منه بالقول والفعل، وعوّد نفسك ولسانك الصدق، والزم الإحسان في قولك وعملك، وإن استطعت أن يكون يومك خيراً من أمسك فافعل وصلّ صلاة مودع، ولا تجالس السفهاء، ولا تردّ على عالم ولا تماره في الدين، وإذا غضبت فالصق نفسك بالأرض، وتحول من مكانك وارجُ رحمة الله فإنها وسعت كل شيء.

وفاته عليه السلام:

بيّن لنا رسول الله ﷺ وفاة داود عليه السلام فقال: «**كان داود عليه السلام في غيرة شديدة فكان إذا خرج أغلقت الأبواب فلم يدخل على أهله أحد**

---

(١) «صحيح قصص الأنبياء»، ابن كثير. (بتصرف).

حتى يرجع.

فخرج ذات يوم وغلقت الدار، فأقبلت امرأته تطلع إلى الدار، فإذا رجل قائم وسط الدار.

فقالت له: من أين دخلت والدار مغلقة؟ والله لنفتضحن بداود.

فجاء داود عليه السلام فإذا الرجل قائم في وسط الدار.

فقال له داود: من أنت؟

فقال: أنا الذي لا أهاب الملوك، ولا أمنع من الحجاب.

فقال داود: أنت والله إذن ملك الموت، مرحباً بأمر الله.

ثم مكث حتى قبضت روحه، فلمّا غُسل وكفن وفرغ من شأنه طلعت عليه الشمس.

فقال سليمان للطير: أظلي على داود.

فأظلته الطير حتى أظلت عليه»[1].

وكان قد شيع جنازته عليه السلام أربعون ألف راهب، ولم يمت في بني إسرائيل بعد موسى وهارون أحد كانت بنو إسرائيل أشد حزناً وجزعاً عليه منهم على داود عليه السلام[2].

* * *

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (٢/ ٤١٩).

(٢) «البداية والنهاية»، ابن كثير.

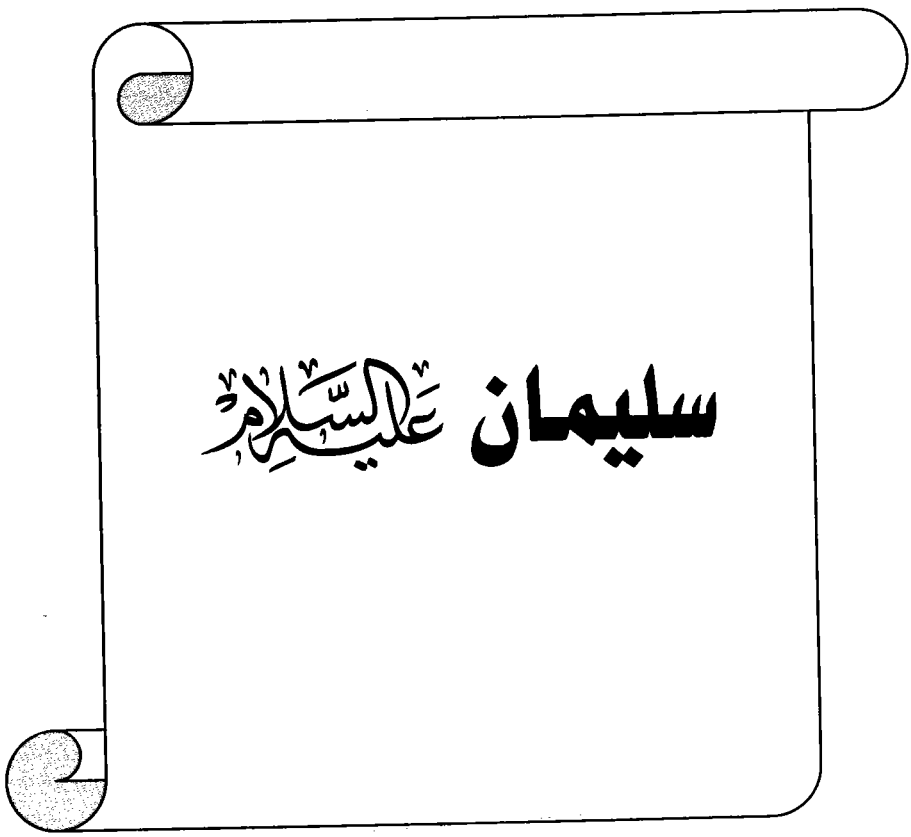
سليمان عليه السلام

سـليمان عليه السلام

هو نبي الله سليمان بن داود بن إيشا، يمتد نسبه إلى يهوذا بن يعقوب بن إسحاق بن إبراهيم الخليل عليه السلام.

ملك أمر بني إسرائيل بعد أبيه داود عليه السلام، وسخر الله له الجن، والإنس، والطير، والريح، وآتاه مع ذلك النبوة.

سأل الله عز وجل أن يؤتيه ملكاً لا ينبغي لأحد من بعده فأعطاه ذلك.

ولم يملك الأرض إلا أربعة ملوك اثنان مؤمنان هما سليمان بن داود وذو القرنين، واثنان كافران النمرود بن كنعان وبختنصر[1].

مولده عليه السلام:

ولد سليمان عليه السلام في مدينة القدس، ونشأ في بيت الملك والنبوة نشأة الصالحين المؤمنين، فأحبه أبوه حبًّا شديداً، لم يكن يطيق فراقه، فكان يجلسه في مجالس الحكم والقضاء ويستشيره في مهام الأمور، ويعرض عليه الفصل في الخصومات، فرأى منه ذكاءً وحكماً صائباً، فورثه النبوة والعلم دون سائر أولاده، قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ﴾ [النمل: ١٦].

---

(١) «تاريخ الطبري»، الطبري. (بتصرف).

معرفته عليه السلام بمنطق الطير:

كان سليمان عليه السلام يعلم من أصوات الطير ما تقصده من معان، وما يدور في رأسها من أغراض.

وفي ذات يوم كان سليمان جالساً إذا مر به طائر يطوف، فقال لجلسائه:

أتدرون ما يقول هذا الطائر؟

إنه يقول: السلام عليك أيها الملك والنبي، أعطاك الله الكرامة وأظهرك على عدوك، إني منطلق إلى أفراخي ثم أرجع إليك.

وإنه سيرجع إلينا مرة ثانية، وقد رجع الطير فعلاً، واستأذن سليمان عليه السلام في الانصراف.

وصاح عنده طاووس، فقال: أما تدرون ما يقول؟

قالوا: لا.

قال سليمان عليه السلام: إنه يقول: كما تدين تدان.

وهدرت عنده حمامة، فقال: أما تدرون ما تقول؟

قالوا: لا.

قال: إنها تقول: سبحان ربي الأعلى عدد ما في سماواته وأرضه.

قال تعالى: ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ ﴿١٦﴾﴾ [النمل: ١٦].

سليمان عليه السلام في وادي النمل:

دعا سليمان عليه السلام جنوده، فاجتمع جنده من الجن والإنس والطير مؤتمرين بطاعته.

ومضى سليمان عليه السلام بهذا الجن حتى وصل إلى وادٍ فيه نمل كثير، فسمع سليمان عليه السلام نملة تقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمْلُ ٱدْخُلُوا۟ مَسَٰكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٨﴾﴾ [النمل: ١٨].

سمع سليمان عليه السلام ما قالته النملة فسُرَّ بذلك.

فقال شاكراً ومناجياً ربّه: ﴿رَبِّ أَوْزِعْنِىٓ أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتَ عَلَىَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَىَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ وَأَدْخِلْنِى بِرَحْمَتِكَ فِى عِبَادِكَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١٩﴾﴾ [النمل: ١٩][1].

تسخير الرياح لسليمان عليه السلام:

سخر الله سبحانه وتعالى الريح لسليمان عليه السلام فكانت تنقله إلى أي أطراف الدنيا شاء، وتقطع به المسافات الطويلة البعيدة في ساعات معدودات.

فكان عليه السلام إذا أراد الغزو أمر بعسكره فضرب له بخشب، ثم نصب له على الخشب، ثم حمل عليه الناس والدواب وآلة الحرب كلها، حتى إذا حمل ما يريد أمر العاصف من الريح، فدخلت تحت ذلك الخشب فاحتملته بإذن الله، حتى إذا استقلَّت به أمر الرخاء، فمر بها شهراً في روحته وشهراً في غدوته إلى حيث أراد.

قال تعالى: ﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ ٱلرِّيحَ تَجْرِى بِأَمْرِهِۦ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ﴾ [ص: ٣٦].

---

(١) «البداية والنهاية»، ابن كثير. (بتصرف).

وقال سبحانه: ﴿وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِى بِأَمْرِهِۦٓ إِلَى ٱلْأَرْضِ ٱلَّتِى بَٰرَكْنَا فِيهَا ۚ وَكُنَّا بِكُلِّ شَىْءٍ عَٰلِمِينَ ﴿٨١﴾﴾ [الأنبياء: ٨١](١).

تسخير الجن لسليمان عليه السلام:

أعطى الله سبحانه وتعالى سليمان عليه السلام مقدرة لم يعطها لأحد من أنبيائه، وهي القدرة على تسخير الشياطين والتحكم فيها وتشغيلها وتقييدها بالسلاسل وتعذيبها إذا هي عصت أوامره ولم تنفذ ما أمرها به، وكانت الشياطين تبني له ما يأمرها ببنيانه من القصور الشامخة والدور والقدور والتماثيل والمحاريب، وكانت أيضاً تغوص في أعماق البحار وتستخرج له اللؤلؤ والمرجان والياقوت.

قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ﴾ [سبأ: ١٢، ١٣].

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**إن عفريتاً من الجن تفلَّت البارحة ليقطع عليَّ صلاتي فأمكني الله منه فأخذته فأردت أن أربطه إلى سارية من سواري المسجد حتى تنظروا إليه كلكم؛ فذكرت دعوة أخي سليمان ﴿رَبِّ ٱغْفِرْ لِى وَهَبْ لِى مُلْكًا لَّا يَنۢبَغِى لِأَحَدٍ مِّنۢ بَعْدِىٓ ۖ﴾ [ص: ٣٥] فرددته خاسئاً**»(٢).

---

(١) «تاريخ الطبري»، الطبري. (بتصرف).

(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٤٣٢٣).

هدهد سليمان عليه السلام :

تفقَّد سليمان عليه السلام يوماً الطير فلم يجد الهدهد ولم يظهر له أثر، فقال: ﴿ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ﴾ [النمل: ٢٠].

بدا على سليمان عليه السلام الغضب، ونوى معاقبته، فقال: ﴿ لَأُعَذِّبَنَّهُۥ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَا۟ذْبَحَنَّهُۥٓ أَوْ لَيَأْتِيَنِّى بِسُلْطَٰنٍ مُّبِينٍ ﴾ [النمل: ٢١].

لم يطل غياب الهدهد، بل رجع إلى سليمان قائلاً: ﴿ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍۭ بِنَبَإٍ يَقِينٍ ﴿٢٢﴾ ﴾ [النمل: ٢٢].

وبدأ الهدهد يتحدث إلى سليمان بما رأى، فقال: وجدت امرأة تحكم مملكة سبأ، وقد أوتيت كل ما تريد من أسباب القوة وألوان النعم، ولها عرش عظيم محلّى بالجواهر واللآلئ، ولكن رغم ما أفاض الله من نعمة على أهل هذه المملكة فإنهم لا يعترفون بنعم الله عليهم ولا يؤمنون به ولا يعبدونه، بل يعبدون الشمس، ويسجدون لها من دون الله، وقد زيَّن لهم الشيطان عبادة الشمس فصرفهم عن طريق الهداية والخير.

ثم ظهر حزنه وأسفه على ذلك، وقال لسليمان: ﴿ أَلَّا يَسْجُدُوا۟ لِلَّهِ ٱلَّذِى يُخْرِجُ ٱلْخَبْءَ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ رَبُّ ٱلْعَرْشِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٢٦﴾ ﴾ [النمل: ٢٥، ٢٦].

لمَّا انتهى الهدهد من كلامه أجابه سليمان: سوف نبحث ونحقق فيما قلت؛ لنتبين أأنت صادق في قولك، أم أنت كاذب، وسيكون حكمنا عليك بعد ذلك.

رسالة من سليمان إلى بلقيس:

أراد سليمان عليه السلام أن يتبين من حقيقة ما أعلنه الهدهد، فأعطاه رسالة وأمره بإلقائها بين يدي بلقيس ملكة سبأ وأوصاه بمراقبتها وقومها والاستماع إلى ما يجيبونه ويردون على رسالته.

طار الهدهد برسالة سليمان عليه السلام إلى مملكة سبأ باليمن وألقاها بين يدي بلقيس التي تناولتها وقرأت ما فيها، وبعد أن أتمت بلقيس قراءة الرسالة جمعت أشراف قومها وقادة مملكتها وقالت لهم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ إِنِّىٓ أُلْقِىَ إِلَىَّ كِتَٰبٌ كَرِيمٌ ﴿٢٩﴾ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا۟ عَلَىَّ وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ ﴿٣١﴾﴾ [النمل: ٢٩ ـ ٣١].

ثم قالت: أيها القوم أشيروا عليَّ في هذا الأمر فإني لا أنفذ حكماً، ولا أبرم أمراً إلا في حضوركم ومشورتكم.

فأجاب الحاضرون: ﴿نَحْنُ أُو۟لُوا۟ قُوَّةٍ وَأُو۟لُوا۟ بَأْسٍ شَدِيدٍ وَٱلْأَمْرُ إِلَيْكِ فَٱنظُرِى مَاذَا تَأْمُرِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [النمل: ٣٣].

بلقيس ترد على رسالة سليمان عليه السلام:

أحست بلقيس أن قومها يميلون إلى قتال سليمان عليه السلام عندما قالوا لها: نحن أصحاب قوة شديدة وعدد عظيم.

وكانت عاقلة تقدر عواقب الأمور فأرادت أن تبين لهم أضرار الحرب فقالت لهم: ﴿إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوٓا۟ أَعِزَّةَ أَهْلِهَآ أَذِلَّةً ۖ وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ ﴿٣٤﴾ وَإِنِّى مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌۢ بِمَ يَرْجِعُ ٱلْمُرْسَلُونَ ﴿٣٥﴾﴾ [النمل: ٣٤، ٣٥].

أرسلت بلقيس وفداً إلى فلسطين يحمل الهدايا إلى سليمان

عليه السلام، ولمَّا وصل الوفد إلى مُلك سليمان رأى قصوراً وجنوداً ليست مملكة سبأ إلى جانبها شيئاً يذكر.

هنا تقدم الوفد وقدم هدية بلقيس إلى سليمان عليه السلام، فأنكر هديتهم، وقال لهم: ﴿أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَآ ءَاتَىٰنِۦَ ٱللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّآ ءَاتَىٰكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ ﴿٣٦﴾﴾ [النمل: ٣٦].

ثم خاطب سليمان عليه السلام رئيس الوفد قائلاً: ارجع إلى قومك، واردد إليهم هديتهم، وأخبرهم بما شاهدت من ملكنا وقوَّتنا وعبادتنا لله، فإن أطاعوك وآمنوا بالله نجوا، وإن بقوا على الكفر، فوالله لنأتينهم بجنود لا طاقة لهم بمقاومتها، ولنخرجنهم من مدينة سبأ أسرى أذلاء مستعبدين(١).

عرش بلقيس:

بعد أن رجع الوفد من عند سليمان عليه السلام أخبر ملكته بلقيس بما رأى من قوة سليمان ورفضه هديتها، وأخبرها بما أقسم عليه سليمان من التهديد والوعيد بالغزو إذا ما رفضت الحضور إليه.

عندئذٍ أدركت بلقيس أن سليمان نبيٌّ مُرسَل، وأنه صادق في تهديده ووعيده، وأنها لا طاقة لها بمخالفة أمره، فتجهَّزت للمسير إليه مع أشراف قومها.

عرف سليمان عليه السلام بمسيرة بلقيس إليه، فأراد أن يريها بعض ما خصه الله به من معجزات ليكون ذلك دليلاً على نبوَّته، فقال لمن حوله

---

(١) «تفسير ابن كثير»، ابن كثير. (بتصرف).

من الجن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَؤُا۟ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ﴾ [النمل: ٣٨].

فقال عفريت من الجن لسليمان عليه السلام: أنا آتيك به قبل أن تقوم من مجلسك الذي تقضي وتحكم فيه، وكان سليمان يجلس من الصبح إلى الظهر كل يوم ليحكم بين الناس، وأضاف هذا العفريت بأنه قادر على حمله، أمين على ما فيه من الجواهر.

ولكن أحد الملائكة الذين أيَّد الله بهم سليمان، وكان عنده علم الكتاب السماوية، قال لسليمان عليه السلام: ﴿أَنَا۠ ءَاتِيكَ بِهِۦ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ [النمل: ٤٠].

وأتى بالعرش أمام سليمان، فلمَّا رأى سليمان العرش مستقرًّا في مجلسه قال: ﴿هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِىٓ ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ ۖ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّى غَنِىٌّ كَرِيمٌ ﴿٤٠﴾﴾ [النمل: ٤٠].

بلقيس تتعرف على عرشها:

بعد أن استقر عرش بلقيس أمام سليمان عليه السلام أمر رجاله أن يغيروا هيئة العرش بعض الشيء ليعرف ما إذا كانت بلقيس تهتدي إيه بعد، أم أنها لا تعرف أن هذا عرشها وكرسي ملكها.

فلمّا جاءت بلقيس عُرض عليها عرشها، وقال لها سليمان عليه السلام: ﴿أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ﴾؟ [النمل: ٤٢].

وقفت بلقيس أمامه في حيرة وأجابت: ﴿كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ﴾.

وبعد أن أعادت النظر إليه أيقنت أنه عرشها، وأن الإتيان به قبل حضورها معجزة من معجزات سليمان عليه السلام، وخصوصاً أنه كان مغلقاً عليه في قصرها ووكلت به حراساً أشدَّاء.

عندئذٍ قالت لسليمان: لقد علمنا بقدرة الله وصحة نبوّتك قبل هذه المعجزة، وما سمعنا من رسلنا إليك من الآيات الدالة على ذلك، وكنا موقنين منذ ذلك الوقت، ومنعنا من إظهار إيماننا وإعلانه إلا أننا كنا بين قوم راسخين في الكفر، وهذا ما جعلنا نكتمه إلى حين حضورنا إليك، قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَآءَتْ قِيلَ أَهَٰكَذَا عَرْشُكِ ۖ قَالَتْ كَأَنَّهُۥ هُوَ ۚ وَأُوتِينَا ٱلْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ ﴿٤٢﴾ وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَٰفِرِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [النمل: ٤٢، ٤٣].

بلقيس في قصر سليمان عليه السلام:

أمر سليمان عليه السلام ببناء قصر، فصُنعت ساحة القصر من زجاج مستوٍ أملس، وأرسل الماء تحت الزجاج فبدأت ساحة القصر كأنها ماء، ثم جلس سليمان عليه السلام في صدر الساحة على سرير الملك، وبعث في طلب بلقيس لمقابلته في القصر، فقيل لبلقيس: ادخلي القصر لمقابلة سليمان، فاعترتها دهشة عندما رأت ساحة القصر كأنها مليئة بالماء، فكشفت عن ساقيها حتى لا تبتل ثيابها حسب ظنها، وسارت في ساحة القصر.

فقال لها سليمان: ﴿إِنَّهُۥ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ۗ﴾ [النمل: ٤٤].

ثم لمَّا رأت بلقيس من إكرام سليمان الشديد لها، توجهت إلى ربها مناجية وقالت: ﴿رَبِّ إِنِّى ظَلَمْتُ نَفْسِى وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَٰنَ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٤﴾﴾ [النمل: ٤٤].

حكمة سليمان عليه السلام:

جاءت امرأتان إلى سليمان عليه السلام بعد أن تخاصمتا في ولد

صغير، حيث تدَّعي كل واحدة منهما أنه ولدها.

فقالت إحداهما وهي تشتكي إلى سليمان عليه السلام: يا نبي الله، إنني أسكن مع هذه المرأة في بيت، وقد ولدت معها في البيت.

وفي اليوم الثالث بعد ولادتي وَلَدَت هذه المرأة أيضاً، وكنا معاً ولم يكن معنا غريب في هذا البيت.

فمات ابن هذه المرأة في الليل؛ لأنها اضطجعت عليه، فقامت وسط الليل وأخذت ابني من جانبي وأنا نائمة ووضعته في حضنها، ووضعت ابنها الميت في حضني.

فلمَّا قمت في الصباح لأرضع ابني إذا هو ميت، ولمَّا تأملت فيه وجدته ليس ابني الذي ولدته.

ولمَّا سأل سليمان المرأة الثانية نفت ذلك وأنكرته.

وقالت: كلا، إن ابني هو الحي وابنها هو الميت.

فقال سليمان عليه السلام: ائتوني بسيف، ثم قال: اشطروا الولد نصفين، وأعطوا لكل امرأة نصفه.

فصرخت إحداهما وقالت: لا يا سيدي، أعطوها الولد ولا تشطروه.

وأما الثانية فقالت: اشطروه حتى لا يكون لي ولا لك.

فقال سليمان عليه السلام، وقد وضح الحق أمامه: أعطوا الولد للمرأة الأولى فإنها أمه[1].

---

(١) «تاريخ الأنبياء»، محمد الطيب النجار. (بتصرف).

وفاة سليمان عليه السلام :

عاش سليمان عليه السلام اثنين وخمسين سنة، وكان ملكه أربعين سنة، وأدركه الموت وهو جالس متكئ على عصاه، فجاءت دابة الأرض وأكلت عصاه، فلمَّا خرَّ بعد أن انكسرت العصا عرفت الجن وفاته وندمت على العمل في تلك الساعات التي خفيت عليها فيها الوفاة.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾﴾ [سبأ: ١٤].

* * *

العزير عليه السلام

العزير عليه السلام

هو نبي الله عزير بن شرخيا، كان من السبايا الذين كانوا ببابل فرجع إلى الشام، وكان لا يوجد أحد في بني إسرائيل يحفظ التوراة، فخرج هائماً ببطون الأودية يبكي.

فبينما هو كذلك في حزنه على التوراة وبكائه عليها، إذ أقبل عليه رجل وهو جالس.

فقال له: يا عزير ما يبكيك؟

قال: أبكي على كتاب الله وعهده، كان بين أظهرنا فبلغت بنا خطايانا وغضب ربنا علينا أن سلط علينا عدونا فقتل رجالنا وأخرب ديارنا وأحرق كتاب الله الذي بين أظهرنا، الذي لا يصلح دنيانا وآخرتنا غيره، فعلام أبكي إذا لم أبك على هذا؟

قال الرجل: أفتحب أن يرد ذلك عليك؟

قال: وهل إلى ذلك سبيل؟

قال: نعم، ارجع وصم وتطهر وطهر ثيابك، ثم موعدك هذا المكان غداً.

خرج عزير عليه السلام، وفعل ما أُمر به، ثم لمَّا كان من الغد عمد إلى المكان الذي وعده فجلس فيه، فأتاه ذلك الرجل بإناء فيه ماء (وكان مَلَكاً بعثه الله إليه) فسقاه من ذلك الإناء، فامتثلت التوراة في صدره فرجع إلى بني إسرائيل فوضع لهم التوراة يعرفونها بحلالها وحرامها

وسننها وفرائضها وحدودها.

فأحبوه حبًّا لم يحبوه شيئاً قط، وأقام العزير عليه السلام مؤدياً لحق الله، ثم حدثت فيهم الأحداث، فقالوا: العزير هو ابن الله، قال تعالى: ﴿وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ عُزَيْرٌ ٱبْنُ ٱللَّهِ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَى ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ ٱللَّهِ ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ يُضَٰهِـُٔونَ قَوْلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَبْلُ قَٰتَلَهُمُ ٱللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴿٣٠﴾﴾ [التوبة: ٣٠][1].

الذي مرّ على قرية:

عن علي رضي الله عنه قال: «خرج عزير نبي الله من مدينته وهو رجل شاب، فمر على قرية وهي خاوية على عروشها قال: ﴿أَنَّىٰ يُحْىِۦ هَٰذِهِ ٱللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا﴾ [البقرة: ٢٥٩]، فأماته الله مائةَ عامٍ ثم بَعَثَه، فأول ما خلق عيناه فجعل ينظر إلى عظامه ينظم بعضها إلى بعض، ثم كسيت لحماً ونفخ فيه الروح وهو رجل شاب.

فقيل له: ﴿كَمْ لَبِثْتَ﴾؟

قال: ﴿لَبِثْتُ يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ﴾.

قال: ﴿بَل لَّبِثْتَ مِاْئَةَ عَامٍ فَٱنظُرْ إِلَىٰ طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَٱنظُرْ إِلَىٰ حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ ءَايَةً لِّلنَّاسِ وَٱنظُرْ إِلَى ٱلْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْمًا﴾ [البقرة: ٢٥٩][2].

وبعد أن شهد كل ما يحيط به من إعجاز شهد شهادة يقينية بقدرة

---

(١) «تاريخ الرسل والملوك»، الطبري. (بتصرف).

(٢) أخرجه الحاكم في «المستدرك»: (٢٨٢).

الله أن يميت الأحياء ويحيي الأموات، فقال: ﴿أَعْلَمُ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٥٩﴾﴾ [البقرة: ٢٥٩].

ثم ركب العزير عليه السلام حماره حتى أتى مدينته، فأنكره الناس، وأنكر الناس.

فانطلق على وهم منه حتى أتى منزله، فإذا هو بعجوز عمياء مقعدة قد أتى عليها مائة وعشرون وكانت أمَةً لهم، فخرج عنهم عزير عليه السلام وهي بنت عشرين سنة.

فقال لها عزير عليه السلام: يا هذه، أهذا منزل عزير؟

قالت: نعم، هذا منزل عزير.

فبكت، وقالت: ما رأيت أحداً من كذا وكذا سنة يذكرُ عزيراً وقد نسيه الناس.

قال: فإني أنا عزير كان الله أماتني مائة عام ثم بعثني.

قالت: سبحان الله، فإن عزيراً فقدناه منذ مائة عام فلم نسمع له بذكر.

قال: فإني أنا عزير.

قالت: كان عزير رجلاً مستجاب الدعوة، يدعو للمريض وصاحب البلاء بالعافية والشفاء، فادع الله أن يرد عليَّ بصري حتى أراك، فإن كنت عُزيراً عرفتك.

هنا دعا عزير عليه السلام ربه ومسح بيده على عينيها فشفيت بإذن الله، وردَّ الله عليها بصرها.

وأخذ بيدها وقال: قومي بإذن الله، فأطلق الله عز وجل رجليها،

فقامت صحيحة.

فنظرت، فقالت: أشهد أنك عزير.

وانطلقت إلى قومها وهم في أنديتهم ومجالسهم، وكان يوجد ابن لعزير عليه السلام شيخ له من العمر مائة وثماني عشرة سنة، وبني بنيه شيوخ في المجلس.

فنادتهم وقالت لهم: هذا عزير قد جاءكم. فكذَّبوها، فقالت: أنا فلانة مولاتكم، دعا لي ربَّه فردَّ عليَّ بصري، وأطلق رجلي، وزعم أن الله أماته مائة عام ثم بعثه.

عندئذٍ نهض الناس، وأقبلوا إليه.

فقال ابنه: كان لأبي شامة سوداء بين كتفيه.

فكشف عن كتفيه، فإذا هو عزير.

فقالت بنو إسرائيل: لم يكن فينا أحد أحفظ التوراة فيما حُدِّث غير عزير.

فجلس عزير عليه السلام في ظل شجرة وبنو إسرائيل حوله، وقرأ عليهم التوراة، فجدَّدها لبني إسرائيل، وقامت التوراة بين أظهرهم، وصلح بها أمرهم[1].

* * *

(١) «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي. (بتصرف).

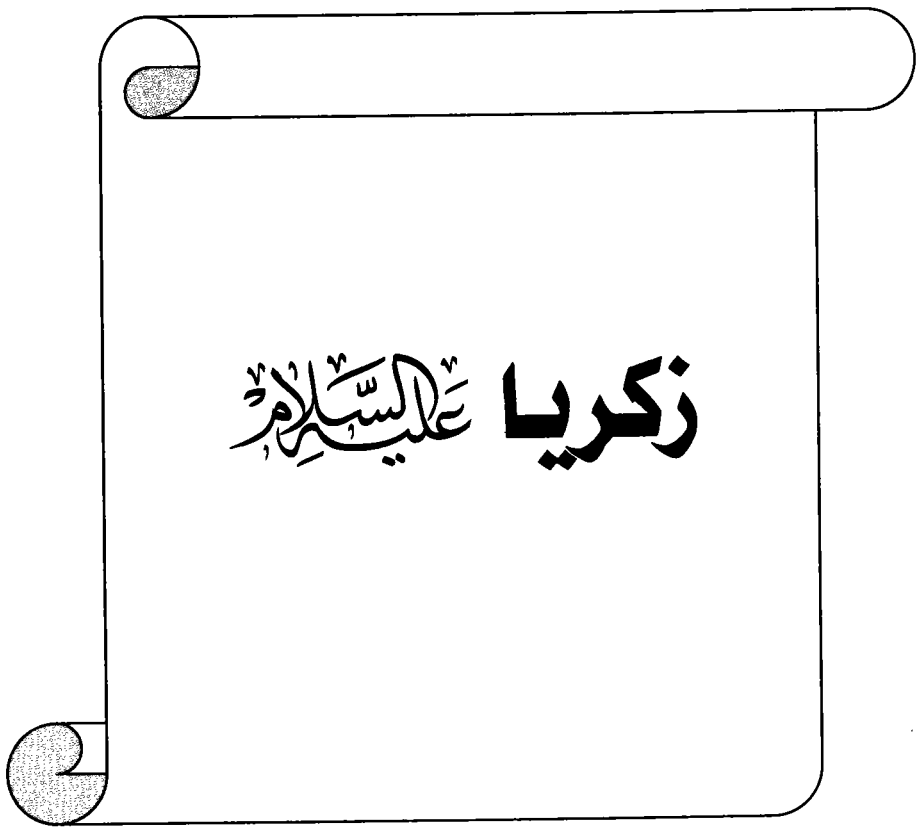
زكريا عليه السلام

زكريا عليه السلام

هو نبي الله زكريا بن برخيا، ويمتد نسبه إلى سليمان بن داود عليهما السلام، وهو الذي كفل مريم ابنة عمران أم نبي الله عيسى عليهما السلام.

وكان عليه السلام رئيساً لعلماء الدين في بيت المقدس وزعيماً للمؤمنين.

دعوته إلى قومه:

قبيل ميلاد المسيح عيسى ابن مريم عليهما السلام بعث الله زكريا عليه السلام رسولاً إلى بني إسرائيل.

فقام يدعوهم إلى الله، ويخوفهم عذابه، في وقت اشتد فيه الفسق والفجور وانتشرت المنكرات، وكثرت المعاصي.

وقد لقى زكريا عليه السلام من الحكام والجبابرة وبني إسرائيل كل عنف ومشقة، وكل جهد وبلاء، وناله من أذاهم الشيء الكثير، وتوالت عليه الأهوال والشدائد، فلم يعد به طاقة لتحمل الأذى والأخطار، وخشي على بني إسرائيل أن يضلّوا ويفتنوا، فطلب من ربه أن يعينه بولد يواسيه في شيخوخته، ويخلفه في تبليغ الرسالة، قا تعالى: ﴿وَزَكَرِيَّآ إِذْ نَادَىٰ رَبَّهُۥ رَبِّ لَا تَذَرْنِى فَرْدًا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٨٩﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ وَوَهَبْنَا لَهُۥ يَحْيَىٰ وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ يُسَٰرِعُونَ فِى ٱلْخَيْرَٰتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَبًا وَرَهَبًا ۖ وَكَانُوا۟ لَنَا خَٰشِعِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [الأنبياء: ٨٩، ٩٠].

الملائكة تبشر زكريا عليه السلام بيحيى:

كان لمريم عليها السلام محراب خاص تتعبَّد فيه، وكانت لا تغادر مكانها إلا قليلاً تقضي وقتها كله في عبادة وصلاة، وكان زكريا عليه السلام يزورها في المحراب، فكلما دخل عليها المحراب وجد عندها فاكهة في غير أوانها.

فسألها زكريا عليه السلام وقال لها: ﴿أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾؟ [آل عمران: ٣٧].

قالت مريم عليها السلام: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧].

فعلم زكريا أن الرازق للشيء في غير أوانه قادر على أن يرزقه ولداً، وإن كان قد طعن في السن، وكانت امرأته عاقراً.

هنا دعا ربه خفية قائلاً: ﴿رَبِّ إِنِّى وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّى وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا ﴿٤﴾ وَإِنِّى خِفْتُ ٱلْمَوَٰلِىَ مِن وَرَآءِى وَكَانَتِ ٱمْرَأَتِى عَاقِرًا فَهَبْ لِى مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا ﴿٥﴾ يَرِثُنِى وَيَرِثُ مِنْ ءَالِ يَعْقُوبَ ۖ وَٱجْعَلْهُ رَبِّ رَضِيًّا ﴿٦﴾﴾ [مريم: ٤ ـ ٦].

استجاب الله سبحانه وتعالى دعاء زكريا، وأرسل إليه ملائكة تبشره بأن الله تعالى سيهب له ولداً، وقد اختار له اسم يحيى، وسيكون مؤمناً.

فنادته الملائكة وهو يصلي في المحراب، فبشَّرته بالغلام، فقالت: ﴿أَنَّ ٱللَّهَ يُبَشِّرُكَ بِيَحْيَىٰ مُصَدِّقًۢا بِكَلِمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩].

تعجَّب زكريا عليه السلام من هذه البشرى؛ لأنه طاعن في السن، فقال: ﴿رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٌ وَقَدْ بَلَغَنِيَ ٱلْكِبَرُ وَٱمْرَأَتِي عَاقِرٌ﴾[آل عمران: ٤٠].

فقيل له: ﴿كَذَٰلِكَ ٱللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَآءُ ﴿٤٠﴾﴾ [آل عمران: ٤٠].

بعد أن بشَّرت الملائكة زكريا عليه السلام بغلام طلب من الله تعالى أن يجعل له علامة ودليلاً على وجود الحمل في بطن زوجته.

فاستجاب الله عز وجل لطلب زكريا عليه السلام وقال له سبحانه: ﴿ءَايَتُكَ أَلَّا تُكَلِّمَ ٱلنَّاسَ ثَلَٰثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴿١٠﴾﴾ [مريم: ١٠].

تحققت إرادة الله، وحملت زوجة زكريا عليه السلام، ولما انتهت مدة الحمل وُلِدَ يحيى، فخصَّه الله منذ الصغر ببصيرة قادرة على التفقه في الدين وتفهم أحكام الشريعة وطهَّره من الرجل والدنس، وجعله تقيًّا مطيعاً، وجعله الله كثير البر والإحسان بوالديه، ولم يكن قاسياً متكبراً، قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾ وَحَنَانًا مِّن لَّدُنَّا وَزَكَوٰةً وَكَانَ تَقِيًّا ﴿١٣﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا ﴿١٤﴾﴾ [مريم: ١٢، ١٤][1].

* * *

(١) «تفسير أبي بكر الرازي»، الرازي. (بتصرف).

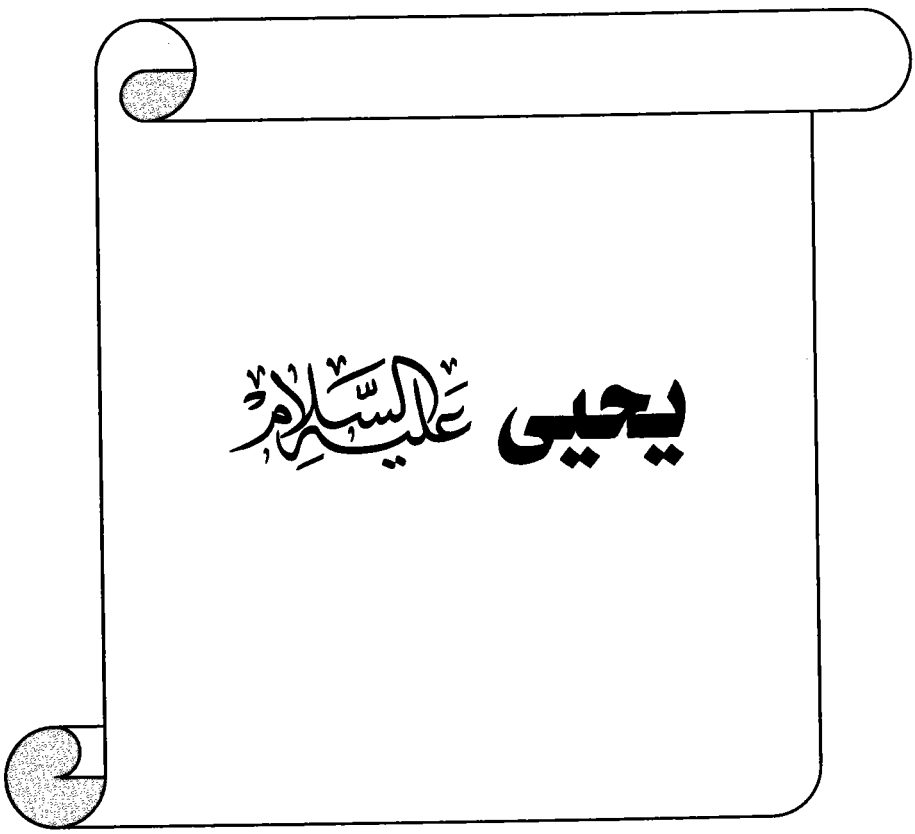
يحيى عليه السلام

يحيى عليه السلام

هو نبي الله يحيى بن زكريا عليه السلام.

أعطاه الله عز وجل النبوة وهو ابن ثلاثين سنة، كما قال تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢]، وجعله سيداً بعيداً عن مقارفة المنكرات والشهوات، كما قال تعالى: ﴿وَسَيِّدًا وَحَصُورًا وَنَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿٣٩﴾﴾ [آل عمران: ٣٩].

ولد يحيى عليه السلام في العام الذي ولد فيه السيد المسيح عيسى ابن مريم عليه السلام وعاصره وعاش معه فترة طويلة من الزمن ورافق أطوار دعوته.

وقد نشأ يحيى عليه السلام كما بشر الله سبحانه نشأة صلاح وتقى وطهر ونقاء، وكان كثير العبادة والتضرع والبكاء من خشية الله تعالى.

دعوة يحيى عليه السلام:

قام يحيى عليه السلام يدعو بني إسرائيل إلى عبادة الله وحده، ولا يشركوا مع الله أحداً، وكانت دعوته بالحكم والمواعظ الحسنة.

وعن دعوته لقومه قال رسول الله ﷺ: «**إن الله أمر يحيى بن زكريا بخمس كلمات أن يعمل بهن، وأن يأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهن، وكاد أن يبطئ.**

فقال له عيسى عليه السلام: إنك قد أمرت بخمس كلمات أن تعمل بهن، وتأمر بني إسرائيل أن يعملوا بهنّ، فإمّا أن تبلغهنّ وإما أن أبلغهن.

فقال: يا أخي، أخشى إنْ سبقتني أنْ أعذّب أو يُخسف بي.

فجمع يحيى عليه السلام بني إسرائيل في بيت المقدس حتى امتلأ المسجد، فحمد الله، وأثنى عليه، ثم قال: إن الله أمرني بخمس كلمات أن أعمل بهنّ وآمركم بهنّ:

وأولهنّ أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، فإن مثل من أشرك بالله مثل من اشترى عبداً من خالص ماله بورقٍ (فضة) أو ذهب فجعل يعمل ويؤدي غلّته إلى غير سيده، فأيكم يسره أن يكون عبده كذلك؟ وإن الله خلقكم ورزقكم فاعبدوه ولا تشركوا به شيئاً.

وآمركم بالصلاة، فإن الله ينصب وجهه قِبَل عبده ما لم يلتفت فإذا صلَّيتم فلا تلتفتوا.

وآمركم بالصيام، فإن مثل ذلك كمثل رجل معه صُرّة من مسك في عصابة كلّهم يجد ريح المسك، وإن خُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك.

وآمركم بالصدقة، فإنّ مثل ذلك كمثل رجل أسره العدو فشدّوا يده إلى عنقه، وقدّموه ليضربوا عنقه، فقال لهم: هل لكم أن أفتدي نفسي منكم، فجعل يفتدي نفسه منهم بالقليل والكثير حتى فكّ نفسه.

وآمركم بذكر الله، فإن مثل ذلك كمثل رجل طلبه العدو سراعاً في أثره فأتى حصناً فتحصّن فيه، وإن العبد أحصن ما يكون من الشيطان إذا كان في ذكر الله عز وجل[1].

---

(١) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده»: (٥/ ٢٤٤)، والترمذي في «سننه»: (٢٨٦٧).

قتل يحيى عليه السلام :

كان يحيى عليه السلام عالماً بالشريعة ومرجعاً مهماً لكل من يستفتي في أحكامها.

وكان أحد حكام فلسطين يقال له (هيرودس)، وكان رجلاً شريراً فاسقاً، وكانت له ابنة أخ يقال لها (هيروديا) بارعة الجمال، فأراد عمها أن يتزوج منها، وكانت البنت وأمها تريدان هذا الزواج.

فلمّا علم يحيى عليه السلام بذلك أعلن معارضته، لأنَّ هذا الزواج محرم في الشريعة عند أهل الكتاب كما هو محرم عند المسلمين.

فحقدت أم الفتاة على يحيى وبيّتت له مكيدة قتل، فزينت ابنتها هيروديا أحسن زينة وألبستها أفخم اللباس وأدخلتها على هيرودس.

فقال لها: تمنّي عليَّ.

فقالت له كما علمتها أمها: أريد رأس يحيى بن زكريا في هذا الطبق، فاستجاب لطلبها وأمر برأس يحيى عليه السلام.

فقُتل عليه السلام وهو في الصلاة، وذبح ثم قدم رأسه في طبق والدم ينزف منه.

وجاء تلاميذ يحيى وأخذوا جثته بعد قتله فدفنوها، ثم جاءوا إلى المسيح عيسى ابن مريم وأخبروه بمقتل يحيى عليه السلام فحزن حزناً شديداً عليه[1].

* * *

(١) «قصص الأنبياء»، عبدالوهاب النجار. (بتصرف).

عيسى عليه السلام

عيسى عليه السلام

هو المسيح عيسى ابن مريم، عبدالله ورسوله، وهو كلمة الله، ألقاها إلى مريم وروح منه.

وهو عليه السلام آخر الأنبياء في بني إسرائيل، كما أن محمداً ﷺ هو آخر الرُّسل جميعاً؛ لأنه خاتم الأنبياء والمرسلين، صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين.

وهو عليه السلام رابع أنبياء أولي العزم من الرسل.

وعيسى عليه السلام أول نبي كلم الناس وهو في المهد، وبشر بنبوته، وله شبه بآدم عليه السلام حيث خلقه الله من تراب ونفخ فيه من روحه، وعيسى خلقه الله سبحانه وتعالى من غير أب ومن أم عذراء.

وأمه مريم ابنة عمران التي ضربها الله مثلاً للمحصنات المؤمنات القانتات، فقال عنها: ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ ٱلَّتِىٓ أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهِ مِن رُّوحِنَا وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَٰتِ رَبِّهَا وَكُتُبِهِۦ وَكَانَتْ مِنَ ٱلْقَٰنِتِينَ ﴿١٢﴾﴾ [التحريم: ١٢].

والتي قال عنها كذلك: ﴿وَإِذْ قَالَتِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرْيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصْطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾﴾ [آل عمران: ٤٢].

منزلة مريم عليها السلام:

مريم العذراء الطاهرة، الصِّدِّيقة، البتول، هي ابنة عمران، وكان عمران أبومريم عليه السلام من العلماء البارزين في بني إسرائيل، وكانت

امرأته عاقراً لم تُرزق بولد، فالتجأت إلى الله وتوسَّلت إليه في ضراعة أن يهبها ولداً ونذرت أن تجعله محرراً لخدمة بيت الله، فلما وضعت وتبين أن المولود ليس بذكر أرادت أن تبرئ ذمتها أمام الله، فقالت: ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالْأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: ٣٦].

وقد توفي عمران وابنته مريم لا تزال صغيرة، فكفلها زكريا عليه السلام، وكان زوجاً لخالتها، واتخذ لها محراباً لا يدخل عليها أحد سواه، وقد شاء الله أن يطلعه على كرامة مريم وجليل قدرها، فكان كلما دخل عليها المحراب وذهب للقائها يجد عندها من رزق الله ما لم يأتها به فيأخذه العجب ويسألها: ﴿يَا مَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا﴾ [آل عمران: ٣٧].

فتجيبه مريم عليها السلام: ﴿هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: ٣٧].

وكانت الملائكة تأتي إلى مريم عليها السلام بين الحين والحين، لتبشرها بما منحها الله من منزلة كريمة وفضل عظيم، وتطلب إليها أن تقابل ذلك بالحمد والعرفان لله عز وجل، فقالت لها: ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَا مَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: ٤٢، ٤٣].

قال رسول الله ﷺ: «**كمل من الرجال كثير، ولم يكمل من النساء إلا مريم بنت عمران، وآسية امرأة فرعون**»[(١)].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٧٦٩)، ومسلم في «صحيحه»: (٢٤٣١).

بشارة الملائكة لمريم عليها السلام :

لمَّا بلغت مريم عليها السلام مبلغ النساء، خرجت ذات يوم من الأيام من محرابها، وسارت جهة شرقي بيت المقدس، فبينما هي تسير، وقد ابتعدت عن أهلها وقومها، إذ جاءها جبريل عليه السلام في صورة شاب وضيء الوجه، فتملكها الرعب والخوف وظنت أنه يريد بها السوء.

فقالت له: ﴿إِنِّيٓ أَعُوذُ بِٱلرَّحۡمَٰنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيّٗا ١٨﴾ [مريم: ١٨].

فأخبرها جبريل عليه السلام بأنه مرسل من الله سبحانه وتعالى كي يبشرها بأن الله سيهب لها غلاماً ذكيًّا.

وحينئذٍ تملكها العجب، فقالت: ﴿أَنَّىٰ يَكُونُ لِي غُلَٰمٞ وَلَمۡ يَمۡسَسۡنِي بَشَرٞ وَلَمۡ أَكُ بَغِيّٗا ٢٠﴾ [مريم: ٢٠].

ولكن جبريل عليه السلام أذهب عن نفسها هذا العجب كله حينما قال لها: ﴿كَذَٰلِكِ ٱللَّهُ يَخۡلُقُ مَا يَشَآءُۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمۡرٗا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ٤٧﴾ [آل عمران: ٤٧].

ولادة عيسى عليه السلام :

حملت مريم بعيسى، ولا ريب أنها تخيلت ما سيقوله الناس عن عذراء تحمل وتلد من غير أن يكون لها زوج، فأصبحت خائفة قلقة تحب العزلة وتميل إلى الانفراد، فاعتزلت من أهلها مكاناً بعيداً تستتر فيه عن أعينهم.

وكان أول من فطن لحملها (يوسف بن يعقوب النجار)، وهو ابن خالها، وكان شابًّا صالحاً من عباد بني إسرائيل.

فعجب أشد العجب، وذلك لما يعلم من ديانتها وعبادتها، فكيف

تحمل دون أن يكون لها زوج؟!

وقد عَرَّض لها ذات يوم في الكلام، فقال: يا مريم هل يكون زرع من غير بذر؟

قالت: نعم، فمن خلق الزرع الأول.

ثم قال: فهل يكون ولد من غير ذكر؟

قالت: نعم، إن الله خلق آدم من غير ذكر ولا أنثى.

قال لها: فأخبريني خبرك.

قالت: إن الله بشَّرني بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم، وجيهاً في الدنيا وفي الآخرة ومن المقربين، ويكلم الناس في المهد وكهلاً ومن الصالحين.

ولمَّا كان أوان الوضع اضطرها ألم الولادة للالتجاء إلى جذع نخلة لتستتر به، ولكنها فزعت حينما جاءها المخاض؛ لأنها تعتقد أن الناس لا يصدقونها إذا أخبرتهم بما حدث لها.

فقالت: ﴿يَٰلَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: ٢٣].

وسرعان ما أدركها لطف الله وأحاطت بها عنايته، فسمعت صوت جبريل عليه السلام يناديها من مكان منخفض عنها قائلاً لها: ﴿أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا ﴿٢٤﴾ وَهُزِّيٓ إِلَيْكِ بِجِذْعِ ٱلنَّخْلَةِ تُسَٰقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴿٢٥﴾ فَكُلِي وَٱشْرَبِي وَقَرِّي عَيْنًا﴾ [مريم: ٢٤-٢٦].

وضعت مريم البتول العذراء طفلها، وهزت جذع النخلة فتساقط عليها الرطب الجني، فأكلت من الرطب وشربت من النهر الذي أجراه الله لها في مكان لا نهر فيه، وكان ذلك إكراماً من الله تعالى لها على

إيمانها وصلاحها وطاعتها لله عز وجل، وعناية لوليدها عيسى عليه السلام.

عيسى عليه السلام يتكلم في المهد:

حملت مريم عليها السلام وليدها الصغير، وأتت به قومها تحمله على يدها، فلمَّا شاهدوه فزعوا لهذا الحدث العظيم، وأخذوا يظنون بها الظنون، وقالوا لها: ﴿يَٰٓأُخۡتَ هَٰرُونَ مَا كَانَ أَبُوكِ ٱمۡرَأَ سَوۡءٖ وَمَا كَانَتۡ أُمُّكِ بَغِيّٗا ٢٨﴾ [مريم: ٢٨].

وهنا سكتت مريم عليها السلام، وأشارت إلى وليدها الرضيع ليتكلم معهم، وليجيبهم على أسئلتهم التي وجّهوها إليها، والتهم التي اتهموها بها.

فقالوا لها: ﴿كَيۡفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي ٱلۡمَهۡدِ صَبِيّٗا ٢٩﴾ [مريم: ٢٩].

وما هي إلا لحظات قصيرة حتى ظهر الحق على لسان عيسى عليه السلام، فقال لهم: ﴿إِنِّي عَبۡدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِيَ ٱلۡكِتَٰبَ وَجَعَلَنِي نَبِيّٗا ٣٠ وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيۡنَ مَا كُنتُ وَأَوۡصَٰنِي بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمۡتُ حَيّٗا ٣١ وَبَرَّۢا بِوَٰلِدَتِي وَلَمۡ يَجۡعَلۡنِي جَبَّارٗا شَقِيّٗا ٣٢ وَٱلسَّلَٰمُ عَلَيَّ يَوۡمَ وُلِدتُّ وَيَوۡمَ أَمُوتُ وَيَوۡمَ أُبۡعَثُ حَيّٗا ٣٣﴾ [مريم: ٣٠-٣٣].

نبوة عيسى عليه السلام ودعوته لقومه:

لمَّا بلغ عيسى عليه السلام من العمر ثلاثين عاماً بعثه الله عز وجل نبيًّا بعد أن تلقَّى من ربه الوحي وعلَّمه التوراة والإنجيل، قال تعالى: ﴿وَيُعَلِّمُهُ ٱلۡكِتَٰبَ وَٱلۡحِكۡمَةَ وَٱلتَّوۡرَىٰةَ وَٱلۡإِنجِيلَ ٤٨ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [آل عمران: ٤٨، ٤٩].

أخذ عيسى عليه السلام يبشّر في الناس برسالته ويدعوهم إلى اتباعه ويسعى في أن يرد اليهود عن زيغهم، ويصدّهم عن ضلالهم، ويبين لهم ما اختلفوا فيه من الحلال والحرام، ويحل لهم بعض الذي حُرِّم عليهم.

فقال لهم عليه السلام: ﴿قَدْ جِئْتُكُم بِالْحِكْمَةِ وَلِأُبَيِّنَ لَكُم بَعْضَ الَّذِي تَخْتَلِفُونَ فِيهِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴿٦٣﴾ إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ فَاعْبُدُوهُ هَٰذَا صِرَاطٌ مُّسْتَقِيمٌ ﴿٦٤﴾﴾ [الزخرف: ٦٣، ٦٤].

وكان من ضمن رسالة عيسى عليه السلام التبشير بمجيء خاتم المرسلين نبينا محمد ﷺ.

قال تعالى على لسان عيسى عليه السلام: ﴿يَا بَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُم مُّصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِن بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ﴾ [الصف: ٦].

أنصار عيسى عليه السلام:

أكرم الله سبحانه وتعالى عيسى عليه السلام بأتباع وأصحاب سُمّوا بالحواريين؛ لصفاء قلوبهم ونقاء سرائرهم.

وهؤلاء من أنصار عيسى عليه السلام، وهم بمنزلة الصحابة الكرام الذين صاحبوا وناصروا رسول الله ﷺ.

وقد ذكرهم الله سبحانه في كتابه ومدحهم وأثنى عليهم، فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴿٥٢﴾ رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [آل عمران: ٥٢، ٥٣].

قال رسول الله ﷺ: «**إنَّ لكل نبيٍّ حواريًّا، وإن حواريَّ الزبير بن العوام**»(١).

والحواريون هم أصاب عيسى وتلاميذه المقرَّبون، وكانوا اثني عشر رجلاً أرسلهم المسيح في حياته للتبشير بديانته(٢).

مائدة السماء:

خرج عيسى عليه السلام يدعو إلى الله ويؤذِّن في الناس برسالته، ومعه الحواريون يشدون أزره، ويشتد بهم عضده.

فأمر عيسى عليه السلام الحواريين بصيام ثلاثين يوماً.

فلمَّا أتموها سألوا عيسى عليه السلام إنزال مائدة من السماء عليهم.

فقالوا له: ﴿هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَن يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ [المائدة: ١١٢].

فوعظهم عيسى عليه السلام، وخاف عليهم أن لا يقوموا بشكرها ولا يؤدوا حق شروطها، فقال لهم: ﴿ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [المائدة: ١١٢].

فأبوا عليه إلا أن يسأل ذلك من ربه عز وجل، فلمَّا لم يقلعوا عن ذلك قام إلى مصلاه وتضرَّع إلى الله عز وجل بالدعاء، فقال: ﴿ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [المائدة: ١١٤].

---

(١) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٧١٩).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن»، القرطبي. (بتصرف).

فأنزل الله سبحانه وتعالى المائدة من السماء والناس ينظرون إليها وجعلت تدنو قليلاً قليلاً، وكلما دنت سأل عيسى ربه عز وجل أن يجعلها رحمة لا نقمة، وأن يجعلها بركة وسلامة، فلم تزل تدنو حتى استقرت بين يدي عيسى عليه السلام، وهي مغطاة بمنديل.

فقام عيسى عليه السلام يكشف عنها وهو يقول: بسم الله خير الرازقين، فإذا عليها سبعة من الحيتان وسبعة أرغفة.

ثم أمرهم بالأكل منها، فقالوا: لا نأكل حتى تأكل.

فقال عيسى عليه السلام: إنكم الذين ابتدأتم السؤال بها.

فأبوا أن يأكلوا منها ابتداءً، فأمر الفقراء والمرضى وكانوا قريباً من ألف وثلاثمائة، فأكلوا منها فبرئ كل من به عاهة أو آفة أول مرض مزمن.

فندم الناس على ترك الأكل منها لمَّا رأوا من إصلاح حال أولئك ثم كانت تنزل يوماً بعد يوم، كما كانت ناقة صالح يشربون لبنها يوماً بعد يوم، ثم أمر عيسى عليه السلام أن يقصرها على الفقراء دون الأغنياء، فشق ذلك على كثير من الناس، وتكلم منافقوهم في ذلك فرفعت بالكلية، ومسخ الذين تكلموا في ذلك خنازير.

قال تعالى: ﴿إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١١٥﴾﴾ [المائدة: ١١٥][1].

---

(١) «صحيح قصص الأنبياء»، ابن كثير. (بتصرف).

خلق عيسى عليه السلام الطير بإذن الله:

جلس عيسى عليه السلام يوماً مع رجال من بني إسرائيل فأخذ طيناً ثم قال لهم: أأجعل لكم من هذا الطين طائراً؟

قالوا: وتستطيع ذلك؟!!

قال عيسى عليه السلام: نعم، بإذن ربي سبحانه وتعالى.

ثم هيأه حتى إذا جعله في هيئة الطائر نفخ فيه.

ثم قال: كن طائراً بإذن الله، فخرج يطير بين كفيه.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

إبراء الأكمه والأبرص:

الأكمه: هو الذي يبصر بالنهار ولا يبصر بالليل، فهو يتكمه، أو هو الأعمى الذي ولدته أمه كذلك.

أمَّا الأبرص فهو بياض يصيب بعض الجلد فيجعله مشوَّهاً.

وقد أخبر الله عز وجل عيسى عليه السلام أن يقول لبني إسرائيل إنه يبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، مع أن الكمه والبرص لا علاج لهما، فكان ذلك من أدلته على صدق قوله إنه رسول من عند الله عز وجل.

قال تعالى: ﴿وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي﴾ [المائدة: ١١٠].

وأمَّا إحياؤه الموتى فقد طلبوا منه ذلك، فتحقق بقدرة الله، وكان الميت يخرج من القبر ويتكلم ويراه من عاصروه، فيعرفهم ويعرفونه، ثم يموت بعد ذلك فيعيدونه إلى قبره.

أقوال النبي ﷺ عن عيسى عليه السلام :

قال رسول الله ﷺ: «**ما من مولود إلا والشيطان يطعن في خاصرته حين يولد فيستهل صارخاً، إلا مريم وابنها، ذهب يطعن، فطعن في الحجاب**»(١).

وقال رسول الله ﷺ: «**من شهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمداً عبده ورسوله، وأن عيسى عبدالله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، والجنة حق، والنار حق، أدخله الله الجنة على ما كان من العمل**»(٢).

وعن أبي موسى الأشعري عن رسول الله ﷺ قال: «**إذا أدَّب الرجل أَمَته فأحسن تأديبها، وعلَّمها فأحسن تعليمها، ثم أعتقها فتزوجها، كان له أجران، وإذا آمن بعيسى ابن مريم ثم آمن بي فله أجران، والعبد إذا اتقى ربه وأطاع مواليه فله أجران**»(٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، عن رسول الله ﷺ قال: «**رأى عيسى ابن مريم رجلاً يسرق، فقال له: أسرقت؟ قال: كلا، والذي لا إله إلا هو، فقال عيسى: آمنت بالله وكذبت عيني**»(٤).

وقال رسول الله ﷺ: «**أنا أولى الناس بعيسى عليه السلام، والأنبياء**

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»: (٥٢٣).
(٢) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٤٣٥)، ومسلم في «صحيحه»: (٢٨).
(٣) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٤٤٦)، ومسلم في «صحيحه»: (١٥٤).
(٤) أخرجه البخاري في «صحيحه»: (٣٤٤٤)، وأحمد في «مسنده»: (٤٦٣).

إخوة أولاد علات، وليس بيني وبين عيسى نبي»[١].

من حكم ومواعظ عيسى عليه السلام:

قال عيسى عليه السلام: ويل لصاحب الدنيا، يموت ويتركها، وتغره ويأمنها وتخذله، ويثق بها وتخونه ثم يقبل عليها، ويل للمغترين بالدنيا وقد أرتهم ما يكرهون وفارقهم ما يحبون وجاءهم ما يوعدون.

وقال: ارضوا بقليل الدنيا مع سلامة الدين، كما رضي أهل الدنيا بقليل الدين مع سلامة الدنيا.

وقال عليه السلام: طوبى للمتواضعين في الدنيا، هم أصحاب المنابر يوم القيامة، وطوبى للمصلحين بين الناس في الدنيا هم الذين يرثون الفردوس يوم القيامة، طوبى للمطهرة قلوبهم في الدنيا هم الذين ينظرون إلى الله يوم القيامة.

وكان من دعاءه عليه السلام:

«اللهم أنت إله من في السموات وإله من في الأرض، لا إله فيهما غيرك، وأنت جبار من في السموات وجبار من في الأرض لا جبار فيهما غيرك، وأنت ملك من في السموات وملك من في الأرض لا حكم فيهما لغيرك، قدرتك في الأرض كقدرتك في السماء، وسلطانك في الأرض كسلطانك في السماء، أسألك بأسمائك الكرام فإنك على كل شيء قدير».

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»: (٤٦٣).

رفع عيسى عليه السلام إلى السماء:

لمَّا أراد الله عز وجل أن يرفع عيسى عليه السلام إلى السماء، خرج على أصحابه وفي البيت اثنا عشر رجلاً منهم من الحواريين، ورأسه يقطر ماءً، ثم قال: أيكم يلقى شبهي عليه، فيقتل مكاني فيكون معي في درجتي؟

فقام شابٌّ من أحدثهم سنًّا فقال: أنا يا نبي الله.

فقال له عيسى عليه السلام: اجلس، ثم أعاد عليهم فقام الشاب فقال: أنا يا نبي الله.

فقال اجلس، ثم أعاد عليهم ثالثة.

فقال الشاب: أنا يا نبي الله.

فقال عيسى عليه السلام: نعم أنت.

فألقى عليه شبه عيسى عليه السلام، ثم رُفع عيسى من بيته إلى السماء وجاء الطلب من اليهود، فأخذوا الشاب للشبه، فقتلوه ثم صلبوه فتفرقوا ثلاث فرق!

فقالت فرقة: كان فينا الله عز وجل ما شاء ثم صعد إلى السماء، وهؤلاء هم اليعقوبية.

وردَّ عليهم الله عز وجل، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

وقالت فرقة: كان فينا ابن الله ما شاء الله ثم رفعه الله إليه، وهؤلاء القسطورية.

وردَّ عليهم الله عز وجل، فقال تعالى: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ ثَالِثُ ثَلَٰثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقالت طائفة: كان فينا عبدالله ورسوله ما شاء الله ثم رفعه، فهؤلاء المسلمون، وأكد الله سبحانه وتعالى قولهم، فقال تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمَسِيحُ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ ٱللَّهِ وَكَلِمَتُهُۥٓ أَلْقَىٰهَآ إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ﴾ [النساء: ١٧١].

فتظاهرت الفرقتان الكافرتان على المسلمة فقتلوها فلم يزل الإسلام طامساً حتى بعث الله محمداً ﷺ، فأنزل الله عز وجل: ﴿فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ﴾ [الصف: ١٤][1].

قال تعالى: ﴿وَمَا قَتَلُوهُ وَمَا صَلَبُوهُ وَلَٰكِن شُبِّهَ لَهُمْ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ لَفِى شَكٍّ مِّنْهُ مَا لَهُم بِهِۦ مِنْ عِلْمٍ إِلَّا ٱتِّبَاعَ ٱلظَّنِّ وَمَا قَتَلُوهُ يَقِينًۢا ﴿١٥٧﴾ بَل رَّفَعَهُ ٱللَّهُ إِلَيْهِ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٥٨﴾﴾ [النساء: ١٥٧، ١٥٨].

ما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً:

خلق الله سبحانه وتعالى آدم من غير ذكر ولا أنثى، وخلق زوجته حواء من ذكر بلا أنثى، كما قال تعالى: ﴿وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [النساء: ١]، وخلق سبحانه وتعالى المسيح من أنثى بلا ذكر، وخلق سائر الخلق من ذكر وأنثى.

قال تعالى: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٥٩﴾﴾ [آل عمران: ٥٩].

وكان خلق آدم وحواء عليهما السلام أعجب من خلق المسيح عليه السلام، فإن حواء خلقت من ضلع آدم، وهذا أعجب من خلق المسيح من بطن

---

(١) أخرجه النسائي في «الكبرى»: (١١٥٩١).

مريم، وخلق آدم أعجب من هذا وهذا.

فإذا كان سبحانه وتعالى قادراً أن يخلق بشراً من تراب، أفلا يقدر أن يخلقه من امرأة هي من جنس بدن الإنسان، وهو سبحانه خلق آدم من تراب، ثم قال له كن فيكون؟!

إنجيل عيسى عليه السلام:

الإنجيل هو أحد الكتب السماوية الأربعة التي أنزلها الله عز وجل على رسله الكرام، والتي يجب الإيمان بها وتصديق ما فيها لأنها منزلة من عند الله، وهذه الكتب هي (الزبور، والتوراة، والإنجيل، والقرآن).

أما الزبور فقد نزل على داود عليه السلام.

وأما التوراة فقد نزلت على موسى عليه السلام.

وأما الإنجيل فقد نزل على عيسى عليه السلام.

والقرآن نزل على خاتم المرسلين محمد ﷺ.

الأناجيل وتعددها وهل هي صحيحة؟

من المؤكد أن الإنجيل الرباني الذي أنزله الله على عبده ورسوله عيسى عليه السلام غير هذه الأناجيل الموجودة لدى النصارى اليوم، وإنما توجد قصص ألّفها تلاميذ المسيح وغيرهم لم تسلم من المسخ والتحريف بالزيادة والحذف.

فالمسيح عيسى ابن مريم جاء إلى أصحابه بكتاب هو الإنجيل، ولكن الناس على مرّ الزمان تركوا ذلك الإنجيل، وترتب على ذلك ضياعه واستمساكهم بكتب ألّف بعضها تلاميذ المسيح، وبعضها ألفه

تلاميذه أو من بعدهم، وقد كثرت الأناجيل كثرة فاحشة حتى اقتربت من المائة.

والكنيسة رفضت ما يخالف رغبتها وأمَرّت الأناجيل الأربعة المعروفة اليوم على ما هي عليه من انقطاع السّند وهي عبارة عن مصنفات تاريخية حول قصة حياة مريم وابنها المسيح عيسى عليه السلام وما جرى له منذ ولادته حتى نهاية حياته في الأرض حسب معتقداتهم.

ولم يكتب شيء من هذه الأناجيل في حياة عيسى عليه السلام وإنما كتبت بعد رفعه إلى السماء.

والأناجيل الأربعة المعروفة الآن لدى النصارى هي (إنجيل متّى، وإنجيل يوحنا، وإنجيل لوقا، وإنجيل مرقس).

عودة المسيح عليه السلام إلى الأرض:

لم تنته مهمة المسيح عليه السلام بعدُ، وسينزل إلى الأرض ليتمم رسالته، ويبلّغ دعوته، فهو الآن حي في السماء، رفعه الله تعالى إليه بروحه وجسده، وقد أخبر رسول الله ﷺ عن ذلك فقال ﷺ: «**والذي نفسي بيده ليوشكنَّ أن ينزل فيكم عيسى ابن مريم حكماً مقسطاً، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، وليفيض المال حتى لا يقبله أحد، وحتى تكون السجدة الواحدة خير من الدنيا وما فيها، وسيحكم بشريعة القرآن فلا يقبل من أحد إلا الإسلام**»[1].

وقد أخبرنا رسول الله ﷺ عن نزول المسيح إلى الأرض ليقتل

---

(١) أخرجه مسلم في «صحيحه»: (١٥٥)، وأبوداود في صحيحه: (٤٣٢٤).

المسيح الدجال، فقال ﷺ: «**الأنبياء إخوة لعلات، ودينهم واحد وأمهاتهم شتى، وأنا أولى الناس بعيسى ابن مريم؛ لأنَّه لم يكن بيني وبينه نبي، وإنه نازل، فإذا رأيتموه فاعرفوه، فإنه رجل مربوع إلى الحمرة والبياض، سبط كأنَّ رأسه يقطر وإن لم يصبه بلل، بين ممصرتين، فيكسر الصليب، ويقتل الخنزير، ويضع الجزية، ويعطل الملل حتى تهلك في زمانه كلها غير الإسلام، ويهلك الله في زمانه المسيح الدجال الكذاب، وتقع الآمنة في الأرض حتى ترتع الإبل مع الأُسد جميعاً والنمور مع البقر، والذئاب مع الغنم، ويلعب الصبيان الغلمان بالحيَّات لا يضر بعضهم بعضاً، فيمكث ما شاء الله أن يمكث، ثم يتوفى فيصلي عليه المسلمون ويدفنونه**»[1].

وسينزل عيسى عليه السلام على المغارة البيضاء بدمشق وقد أقيمت صلاة الصبح.

فيقول له إمام المسلمين: تقدم يا روح الله فصلِّ.

فيقول: لا، بعضكم على بعض أمراء، مكرمة الله هذه الأمة.

ثم يركب ومعه المسلمون في طلب المسيح الدجال، فيلحقه عند باب لدّ فيقتله بيده الكريمة، ثم يذهب إلى بيت الله الحرام حاجًّا أو معتمراً، ويقيم بقية أربعين سنة، ثم يموت عليه السلام.

قال تعالى: ﴿وَإِن مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا لَيُؤْمِنَنَّ بِهِۦ قَبْلَ مَوْتِهِۦ ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يَكُونُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا ﴿١٥٩﴾﴾ [النساء: ١٥٩].

---

(١) أخرجه أحمد في «مسنده»: (٤٦٣).

فهرس الموضوعات

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة	٥
الأنبياء صفوة البشر	٩
١ ـ آدم عليه السلام	١٥
خلق الله آدم بيده	١٥
سجود الملائكة لآدم وامتناع إبليس	١٩
آدم عليه السلام مُعلِّم الملائكة	١٩
حواء عليها السلام كيف خُلِقَت	٢٠
آدم وحواء في الجنة	٢١
إغواء إبليس لآدم	٢٢
إخراج آدم وحواء عليهما السلام من الجنة	٢٣
حكمة آدم عليه السلام	٢٣
قابيل وهابيل	٢٤
وصية آدم عليه السلام	٢٦
وفاة آدم عليه السلام	٢٧
٢ ـ إدريس عليه السلام	٢٩
ولادته ونشأته	٣١

الموضوع — الصفحة

إدريس عليه السلام في السماء ٣٢
من أقواله عليه السلام ٣٣
٣ ـ نوح عليه السلام ٣٥
عبادة الأصنام ٣٧
عناد واستعلاء الكفار ٣٩
يأس نوح عليه السلام من إيمان قومه ٤٠
امرأة نوح وعبادة الأصنام ٤٠
سفينة نوح عليه السلام ٤١
نوح عليه السلام والطوفان ٤٢
ابن نوح مع الكافرين ٤٣
نوح عليه السلام عبداً شكوراً ٤٤
وصية نوح عليه السلام لابنه قبل موته ٤٤
٤ ـ هود عليه السلام ٤٧
مساكن عاد وآلهتهم ٤٩
هود عليه السلام يدعو قومه ٥٠
موقف قومه من دعوته ٥١
هلاك الكافرين ونجاة المؤمنين ٥٢
٥ ـ صالح عليه السلام ٥٧
مساكن ثمود وآلهتهم ٥٩

الموضوع الصفحة

دعوة صالح عليه السلام ٦٠
ناقة صالح عليه السلام ٦١
وصف ناقة صالح عليه السلام ٦٢
قتل الناقة ٦٢
هلاك ثمود ٦٤
٦ - إبراهيم عليه السلام ٦٥
دعوة إبراهيم عليه السلام لأبيه ٦٧
إبراهيم عليه السلام والأصنام ٦٨
إبراهيم عليه السلام والنار ٧١
الذي حاج إبراهيم في ربه ٧٢
إبراهيم عليه السلام وساره ٧٣
سارة عليها السلام والمحنة ٧٣
زواج إبراهيم عليه السلام من هاجر ٧٥
سارة ورُسُل الله ٧٦
هجرة إبراهيم عليه السلام بابنه إسماعيل إلى مكة المكرمة ... ٧٧
هاجر وبئر زمزم ٧٩
قبيلة جُرهم وهاجر ٨٠
الذبيح إسماعيل ٨١
إبراهيم عليه السلام يزور ابنه إسماعيل ٨٣

الموضوع الصفحة

بناء البيت الحرام ٨٥
وفاة إبراهيم عليه السلام ٨٦
٧ ـ لوط عليه السلام ٨٧
فساد قوم لوط ٨٩
لوط عليه السلام يدعو قومه ٩٠
خيانة امرأة لوط عليه السلام ٩٠
إبراهيم عليه السلام يجادل في قوم لوط ٩١
الملائكة في ضيافة لوط عليه السلام ٩٢
هلاك قوم لوط عليه السلام ٩٤
وفاة لوط عليه السلام ٩٥
٨ ـ يعقوب عليه السلام ٩٧
زواج يعقوب عليه السلام من ابنتا خاله ٩٩
أولاد يعقوب عليه السلام ١٠٠
وفاة يعقوب عليه السلام ١٠١
٩ ـ يوسف عليه السلام ١٠٣
رؤيا يوسف عليه السلام ١٠٦
يوسف عليه السلام وإخوته ١٠٦
يوسف عليه السلام في البئر ١٠٨
يوسف عليه السلام في بيت عزيز مصر ١٠٨

الموضوع الصفحة

امرأة العزيز تراود يوسف عليه السلام ١٠٩
مكر النسوة ودهاء امرأة العزيز ١١١
يوسف عليه السلام في السجن ١١٢
يوسف يدعو الله في السجن ١١٣
رؤيا الملك ١١٤
خروج يوسف عليه السلام من السجن ١١٥
يوسف عليه السلام وزيراً على خزائن مصر ١١٧
إخوة يوسف في مصر ١١٨
بين إخوة يوسف وأبيهم ١١٩
وصية يعقوب عليه السلام لبنيه ١٢٠
يوسف الصِّدِّيق وأخوه بنيامين ١٢١
وابيضت عيناه من الحزن ١٢٢
يوسف عليه السلام يتعرف على إخوته ١٢٤
قميص يوسف عليه السلام ١٢٤
تحقيق رؤيا يوسف عليه السلام ١٢٥
وفاة يوسف عليه السلام ١٢٦
١٠ ـ شعيب عليه السلام ١٢٧
دعوة شعيب عليه السلام لقومه ١٢٩
موقف قومه من دعوته ١٣١

الموضوع الصفحة

هلاك أهل مدين ١٣٢
١١ ـ أيوب عليه السلام ١٣٥
بلاء أيوب عليه السلام ١٣٧
أيوب عليه السلام يتحلل من يمينه ١٤٠
١٢ ـ إلياس عليه السلام ١٤٣
دعوته عليه السلام إلى قومه ١٤٥
١٣ ـ إليسع عليه السلام ١٤٧
دعوته عليه السلام إلى قومه ١٤٩
١٤ ـ ذو الكفل عليه السلام ١٥١
سبب تسميته بـ(ذي الكفل) ١٥٣
١٥ ـ يونس عليه السلام ١٥٧
يونس في بطن الحوت ١٥٩
نجاة يونس ١٦٠
توبة قوم يونس عليه السلام ١٦١
١٦ ـ موسى عليه السلام ١٦٣
ولادته عليه السلام ١٦٥
موسى عليه السلام في بيت فرعون ١٦٦
رجوع موسى عليه السلام إلى حضن أمه ١٦٧
موسى عليه السلام ينصر أحد الإسرائيليين ١٦٨

الموضوع الصفحة

موسى عليه السلام في مدين ١٧٠
زواج موسى عليه السلام ١٧٢
قضاء موسى عليه السلام الأجل وخروجه من أرض مدين .. ١٧٣
بدء نبوة موسى عليه السلام ١٧٤
دعوة موسى وهارون عليهما السلام لفرعون ١٧٦
عصا موسى عليه السلام ١٧٧
موسى عليه السلام والسحرة ١٧٩
إيذاء موسى وبني إسرائيل ١٨١
مؤمن آل فرعون ١٨١
استخفاف فرعون بموسى عليه السلام ١٨٢
آيات الله على فرعون وقومه ١٨٣
هلاك فرعون وجنوده ١٨٦
نعم الله على بني إسرائيل ١٨٨
لقاء موسى عليه السلام بربه ونزول التوراة..... ١٨٩
عبادة بني إسرائيل للعجل..... ١٩١
اختيار موسى عليه السلام سبعين رجلاً..... ١٩٣
دخول الأرض المقدسة ١٩٤
بنو إسرائيل والبقرة..... ١٩٦
قارون وموسى عليه السلام ١٩٨

الموضوع — الصفحة

موسى والخضر عليه السلام ٢٠٠
١٧ ـ داود عليه السلام ٢٠٥
بنو إسرائيل يطلبون ملكاً ٢٠٧
طالوت يختبر جيشه ٢٠٩
داود عليه السلام وقتله جالوت ٢١٠
معجزات داود عليه السلام ٢١١
تسبيح داود عليه السلام ٢١٢
استغفار داود عليه السلام ٢١٢
بين داود وسليمان عليهما السلام ٢١٣
من أقوال وحكم داود عليه السلام ٢١٥
وصية داود عليه السلام لابنه سليمان ٢١٦
وفاته عليه السلام ٢١٦
١٨ ـ سليمان عليه السلام ٢١٩
مولده عليه السلام ٢٢١
معرفته عليه السلام بمنطق الطير ٢٢٢
سليمان عليه السلام في وادي النمل ٢٢٢
تسخير الرياح لسليمان عليه السلام ٢٢٣
تسخير الجن لسليمان عليه السلام ٢٢٤
هدهد سليمان عليه السلام ٢٢٥

الموضوع الصفحة

رسالة من سليمان إلى بلقيس ٢٢٦
بلقيس ترد على رسالة سليمان ٢٢٦
عرش بلقيس ٢٢٧
بلقيس تتعرف على عرشها ٢٢٨
بلقيس في قصر سليمان عليه السلام ٢٢٩
حكمة سليمان عليه السلام ٢٢٩
وفاة سليمان عليه السلام ٢٣١
١٩ ـ العزير عليه السلام ٢٣٣
الذي مرَّ على قرية ٢٣٦
٢٠ ـ زكريا عليه السلام ٢٣٩
دعوته إلى قومه ٢٤١
الملائكة تبشر زكريا عليه السلام بيحيى ٢٤٢
٢١ ـ يحيى عليه السلام ٢٤٥
دعوة يحيى عليه السلام ٢٤٧
قتل يحيى عليه السلام ٢٤٩
٢٢ ـ عيسى عليه السلام ٢٥١
منزلة مريم عليها السلام ٢٥٣
بشارة الملائكة لمريم عليها السلام ٢٥٥
ولادة عيسى عليه السلام ٢٥٥

الموضوع الصفحة

عيسى عليه السلام يتكلم في المهد ٢٥٧
نبوة عيسى عليه السلام ودعوته لقومه ٢٥٧
أنصار عيسى عليه السلام ٢٥٨
مائدة السماء ٢٥٩
خلق عيسى عليه السلام الطير بإذن الله ٢٦١
إبراء الأكمه والأبرص ٢٦١
أقوال النبي ﷺ عن عيسى عليه السلام ٢٦٢
من حكم ومواعظ عيسى عليه السلام ٢٦٣
رفع عيسى عليه السلام إلى السماء ٢٦٤
ما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً ٢٦٥
إنجيل عيسى عليه السلام ٢٦٦
الأناجيل وتعددها وهل هي صحيحة ٢٦٦
عودة عيسى عليه السلام إلى الأرض ٢٦٧
فهرس الموضوعات ٢٦٩

* * *